● هموم ثقافية

قراءة في قصيدة ..
"تأملات ليلية"
لصلاح عبد الصبور

دراسة

فاروق خورشيد

كل يذهب إلى رحلته حين تحين الساعة . .

وحيدا يكون . . ووحيدا يلقى الساعة . . ووحيدا يواجه القبر الأكيد والضياع الأكيد . . فما يعرف أحد أبدا ، ولن يعرف أحد ، ماذا تعنى الساعة وماذا تخبىء .

لم يعد أحد ليخبرنا أو يحكى لنا على طول معاناة الإنسانية عبر كل عمرها ، لم يعرف أحد ، ولم يكشف أحد ، سر الساعة .

تلمح على شفاه المفارقين ابتسامة ساخرة عذبة ، كأنهم اكتشفوا سرا لا يوحون به ، وكأنهم يسعدون حين لا يوحون ، وحين يتركون الأحبة والثكالى ، والباكين الصارخين ، حيارى لا يعرفون سر ما اكتشفوه ، سر هذه الابتسامة المتعالية الساخرة العارفة العنيدة . .

حتى حين يسترجعون الوجود للحظات بضراعة ابن محب ، أو عذاب ابنة والهة ، أو صرخة أم ثكلى ، أو إصرار أب مفجوع . . فهى لحظات يرفعون الستر عن العيون لينبهوا الصارخين أنها لحظة النهاية ، وأنه لا فائدة من الضراعة ، وأن الوداع نهائى ومقيم ولا رجعة فيه ، ثم تسدل الستر على العيون وترتسم الابتسامة من جديد ، ويروح العائد إلى غيبوبته دون شيء من بوح أو إيحاء أو إيماء ـ إنه السر العظيم .

سر اللحظة المقدسة يلتقى فيها الإنسان بنهايته ، ويلتقى فيها بخالقه ، ويلتقى فيها بمعنى الحياة والموت ـ ولا يبوح بها أبدا ، أبدا لم يبح بها أحد منذ خلق البشرية ووجودها وحتى الآن ، رغم أنك كثيرا ما تحسها على طرف الشفاه ، على المعنى تحاول العيون المسبلة أن تشى به ، على هزات أنفاس أخيرة سعيدة راضية ، كم تريد أن تسعدنا بما تجد . . ولكنها لن تقدر أبدا .

فالموت سر لا يعرفه أحد ، ولن يعرفه أحد ـ سر شخصى بين الإنسان ولحظة نهايته ، وبين الإنسان وملك الموت الموكل به لحظة يبلغ نهايته ، ولحظة يصبح وحده ، بعيدا عن هذا العالم الذى ارتبط بأفراحه وأحزانه وأحداثه ـ فقط انطلق وحده ، يبغى الطريق المجهول ، يبغى العالم الذى لم يعرفه أحد وهو يعرفه اليوم ، يشق طريقه فيه وحيدا ، وحيدا ، مجهولا ، مجهولا ـ وحده يشق الطريق ـ أيسمح لهذا الذاهب أن يعود . . ؟ . وإن عاد فماذا يكون ؟ أواحدا منا ، أم واحدا مفردا وليس منا ولسنا منه ـ يتوه وسطنا يبحث عن كل ما عاشه ، وعن كل ما أحبه ، وعن كل ما فهمه . . ولكن متوحدا يكون ، مفردا يتحرك ، وحده يبحر . .

فى تأملات ليلية من ديوان شجر الليل يقول أخى صلاح :

ـ أبحرت وحدى فى عيون الناس والأفكار والمدن
وتهت وحدى فى صحارى الوجد والظنون
وغفوت وحدى ، مشرع القبضة ، مشدود البدن
على أرائك السعف .

كيف أجتاز المسافة بين الحياة والموت ؟ وكيف كتب وهو حى يصف لحظة الرغبة فى العودة وهو قد مضى ؟ كيف عبر عن هذه اللحظة المخيفة التى يريد فيها من عبر وراح أن يعود إلى دنياه من جديد . أهى مغامرة حى يبحث عن عالم الموق ، أم هى مغامرة ميت يبحث عن عالم الأحياء .

هل قهر صلاح الحياة ليرى الموت ؟ أم تراه قهر الموت ليبحث عن ظلال الحياة ؟ الموت عنده غفوة وليس نوما ـ مجرد غفوة تليها يقظة ، أو تليها حياة ، ولكنه مجرد غفوة فإذا هو يغفو فوق سرير موته :

ـ غفوت وحدى ، مشرع القبضة ، مشدود البدن .
على أرائك السعف . .

ولكنه وحده ، وحده تماما ، فما كان من عالمه القديم ولى وراح ، وما فى عالمه الجديد لا يعرفه هو ، ولا يعرفه أحد فيه ـ فهو وحده ، ينام نوم الموت فوق أرائك السعف . ولكن الشوق إلى عالم الناس قائم ، الشوق إلى عالم الأحبة والأصدقاء ، عالم المدينة والحب والبغض والعهر والكراهية ، فهو مجرد روح تحاول أن تعود ، تحاول أن تجاوز البرزخ الذى اجتازه ـ لن تعيش الروح فى الأشياء أبدا ، إنما هى تعبر عبر الأفكار ، عبر العيون ، عبر المدن التى نراها ، سحابة تكون ، ربما . . روحا محتضرة تكون ، ربما . . هياما ووجدا بعالم الناس تكون ، ربما . . . ولكن لن يراها أحد ولن يحس بها أحد ـ فهى وحيدة تمر عبر العيون ، عبر الوجد ، عبر الظنون ، عبر المدينة . .

أبحرت وحدى فى عيون الناس والأفكار والمدن
وتهت وحدى فى صحارى الوجد والظنون
غفوت وحدى مشرع القبضة ، مشدود البدن .
على أرائك السعف .

هو رغم الجسد المسجى يبحر ، ولكن إبحاره لا يجد إلا العيون والأفكار والمدن والتيه فى الصحارى ، صحارى الوجدان والظنون ـ روح هائمة انطلقت من جسد مسجى لا حراك به ، روح تريد أن تعود وتتواصل مع كل ما أحبته ومن أحبت ـ فهى تطرق وجود الأحبة وتريد أن تعيش معهم من جديد ولكنها وحيدة .

(أبحرت وحدى) ـ (وتهت وحدى) ـ (وغفوت وحدى) ـ وحدة قاتلة مجنونة ، لا تتحقق إلا فى الطارق الغريب . .

كنا نسأل آخر الليل حين يحتوينا الخمر والخدر ، ونقعد على قارعة الطريق فى مقاهٍ تسهر حتى الصباح ، ولا تعرف إلا أمثالنا ممن تعذبهم رؤى مبهمة غامضة لا قوام لها :

ـ أحقا نموت ؟ . .

ويقول أحمد زكى :

ـ الموت حق ، الموت حق ولا جدال . . والذى يحاول أن يجادلنى فى الموت أميته أولا ثم ليحاول أن يجادلنى فى الموت .

همس صلاح مترجما الخيام من فيتزجيرالد :

ـ آه لتتقطر كل ما نستطيع تذوقه
قبل أن نوارى نحن أيضا فى التراب
من التراب وإلى التراب وتحت التراب نرقد . .
النبيذ المقدس والأغنيات المقدسة والغناء المقدس وأيضا النهاية المقدسة . .

ضحك أحمد وهو يقول :

ـ لو سمعك المازنى لآذاك . . ففيتز جيرالد من اختصاصه المقدس .

وضحكنا وأسكتنا صلاح وعاد يقرأ الرباعية بالإنجليزية كما حفظها ثم يترجمها لنا من جديد ثم قال :

ـ هناك رباعية أخرى توافق توعدك لنا ياأحمد اسمعه يقول .

ومضى يردد بالإنجليزية رباعية الخيام كما ترجمها إدوارد فيتزجيرالد ، ثم يقدمها لنا فى ترجمته هو ، قال :

وإذا ما انتهى النبيذ الذى يشرب ، والشفاه التى تلصقها بالكأس إلى لا شىء ، فكل الأشياء تنتهى إلى عدم . .
وساعتها تخيل أنك كنت ـ ولكن كنت ماذا . . ؟
أنت تكون ساعتها لا شىء ـ ولن تكون أبدا . . أقل من لا شىء . .

قال أحمد ضاحكا :

ـ كفى ياصلاح . . لقد حول غيرك هذا الكلام توقيعا محفوظا

صاح صلاح فى غضب :

ـ وهل يعجزنى هذا ، ولكنى أحترم الكلام ـ وأحترم عذابات الضائعين ، أحترم كلماتهم العفوية بلا صياغة مملولة بلا كلمات جوفاء وسطحية ، بلا ملل ، يَاكَمْ أخاف أن تصيب الملل كلماتى يوما وسادنا صمت ووجوم .

أيامها كنا نرفض ترجمات رامى والسباعى عن الفارسية والمازنى عن فيتزجيرالد لعمر الخيام ، نحاول أن نتعثر فى الكلمات الفارسية القليلة التى تعلمناها من أستاذنا يحيى الخشاب ، ونحاول أن نتابع معنى ما يقرؤه لنا من الرباعيات فى أصلها الفارسى ـ ونحاول أيضا بفتوة الشباب وعنجهيتهم أن نقرأ الخيام من خلال الترجمة الإنجليزية التى قدمها إدوارد فيتزجيرالد لرباعيته ففتحت أمامه باب الشهرة العالمية الواسعة . .

قال أحمد زكى :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ هذا شاعر يلتصق بالعدمية ، وكفى ما قرأناه منه ولنبحث عن غيره .

قال صلاح :

ـ وماذا هو فى المعرى الذى يقول :

(ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد) . ضحك أحمد فى انفعال وهو يقول :

ـ هناك أخوك البياتى العنيف العراقى الذى يقول (وصنعنا من جماجمهم منافض للسجائر :)

قلت :

ـ فضوا الاشتباك ، نحن من الأرض وإلى الأرض نعود ، فما كل هذه المعركة الصاخبة ولا طحن هناك . .

ابتسم أحمد ابتسامته الحلوة المتفائلة ، واعتدل فى جلسته وهو يقول :

ـ اسمعوا ، لنعقد اتفاقا بيننا ، من مات منا قبل الآخرين ، عاد ليزور الأحياء منا ، ويحكى لهم عن تجربته .

ثم صمت لحظة غريبة متأملة وقال :

ـ وأنا أكبركم سنا ، فأنا أسرعكم إلى الذهاب .

وضحك وقال :

ـ وأعدكم أننى سأبحث عنكم بعد أن أذهب فى حانات المدينة وشوارعها ومقاهيها ، فأين ستوجدون إلا فى مظان كهذه المظان ، تناقشون وتلغزون وتسهرون .

كان معنا الصديق الصحفى عبد الله إمام ، الذى ضحك وقال وهو ينهى كوب الشاى فى يده :

ـ أنا بالذات ستجدنى فى الفيشاوى ـ سواء كنت إنسانا أم مجرد كوب شاى أو برادا أو حتى كرسيا . وضحك . . وسادنا الوجوم من جديد .

كان عبد الله رفيعا جدا كالنسمة . . واتجهت نظرتنا نحوه ، وكأنما أحس ما تعنيه هذه النظرات ، إذ وضع كوبه فجأة فوق المنضدة وهو يقول صارخا وقد هب من مكانه مغادرا المقهى والمكان والحى كله :

ـ لا . . أنا آخركم ، لن أموت قبلكم أبدا ، أنا صحفى ، ومهمتى أن أتابع أمثالكم إلى النهاية .

ضحك أحمد فى هدوء وهو يقول :

ـ النهاية لا تزعجنا فأنا الأول . . إذ أنا الأكبر سنا .

قلت :

ـ ما هذا الليل الكئيب ، أما كفانا قرفا طوال النهار ـ ما نقرأ وما نسمع وما نعانى ، لنأتى آخر الليل فنتبادل التعازى . .

ضحك صلاح فى استخفافه الساخر وقال :

ـ أنا على كل حال أرضيت ضميرى وكتبت مرثيتى فى كل واحد منكم ، فاطمئنا وموتا ، فلن يضيع موتكم بلا صوت .

ليلتها لم نكن نصدق أن أحدا منا سيموت يوما . .

ياأحمد . . كان صلاح أول الراحلين ، سبقك وسبقنى . . وسبق الجميع . . وهو دائما السباق إلى كل الأشياء ـ فهو ذهب وهو عاد . . عاد يبحث عنا ، عنى وعنك وعن كل ما أحب فى طرقات المدينة التى أحب : يقول واصفا رحلته الباحثة الشاردة التائهة :

ـ طارق نصف الليل فى فنادق المشردين
أو فى حوانيت الجنون . .
سريت وحدى فى شوارع لغاتها ، سماتها ، عماة
أسمع أصداء خطاى ،
ترن فى النوافذ العمياء .

وكنا لا نلج المدينة إلا فى منتصف الليل ، فى الصباح نحن فى مدارسنا نعلم الصبية كلاما ممجوجا معادا ومكررا وسخيفا تعلمناه نحن أنفسنا فى نفس أعمارهم فى نفس الكتب ، وربما فى نفس الدكك الخشبية المهترئة ، وداخل نفس الجدران الرطبة المتهاوية ـ وعند الظهر نلتقى وفى عيوننا كآبة المعاناة التى عشناها أن نأكل خبزنا من ممارسة ما نكره ، وما نمل ، وما نوقن أنه ضياع غد بلادنا ووجودها ـ ونتناقش على لقيمات الغذاء ، وكانت دائما مأجورة ، فهى من عند (نصار) الذى افتتح مطعما خلف الأوبرا ، وكان ملقنا فى المسرح ، وزوجته مصممة أزياء معروفة فى عالم المسرح . . وكان أمينا علينا ، يأخذ مرتباتنا الهزيلة ، ليقدم بديلا لها ، سندوتشات وأطباقا من البصارة وعصيرا من البرسيم . . اخترع هو عصير البرسيم هذا ، وظل سائدا فترة طويلة فى حياة أهل الفن والثقافة ، ولم نكن فى هذا السن منهم ـ كنا نتفرج على أعلام الفن ، وأعلام الثورة معا ، فقد حدث أن مجلس قيادة الثورة تصور أن من ضمن تطبيقه لنقائه الثورى أن يأكل السندويتشات فى أثناء اجتماعاته من عند نصار هذا فكان تضخم نصار وإحساسه بالزهو على أمثالنا من صغار الموظفين والمدرسين الذين لا يدخلون فى أى ميزان أو مقياس . ومع هذا ـ ولأنه فنان حقيقى ـ كان يتولانا برعايته الحقيقية . . ومن دكانه الصغير ننتقل عصرا إلى مقر جمعية المعلمين فى الأوبرا نلعب كرة الطاولة ، والنرد الموزع بين كفى والصديق) والشطرنج ، ونناقش الأدب ونقرأ الشعر ، ونجدف ، ونصرخ حتى يدركنا الملال ، فننصرف إلى حوانيت الجنون ثم إلى شوارع خالية من أصداء وقع أقدامنا ، وهمسنا حينا بالسؤال المحير اللعين . . لماذا وإلى أين ؟ . . وننتهى آخر الأمر إلى أن الأمل الوحيد لنا هو أن نرتمى فى أحضان الورق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والقلم ، نقرأ ونحاول أن نكتب . . لا طريق إلا أن نقف فى طابور المندهشين ، أصحاب الحواجب المرفوعة فى انبهار بما يقرأون ، وفى تساؤل حول ما يكتبون . .

ـ وطرت بين الشمس والسحابه
وغمت فى أحضان ربة الكتابه

بعد هذا التشرد فى الطرقات والأفكار ، وبعد هذا التجول الدائم فى طرقات المدينة ، عيوننا كأنها تلتهم كل ما ترى ، وآذاننا كأنها تلتهم كل ما تسمع ، ويعود تساؤلنا بالصمت واليأس والعماة ، كنا نعكف فوق موائد نكتب عليها فى بيوتنا الهزيلة على الورق نحاول أن نقول ، لنجد ما نقرؤه لبعضنا البعض فى الصباح ، كل ليلة نحاول ، وكل صباح نطرح التجربة على آذان المجموعة كلها . . وياويل من يلقى المجموعة وليس فى حقيبته من الحصاد ما يقدمه لها دليلا على أنه قضى ليلته (فى أحضان ربة الكتابة) . . والعادة غلابة رغم الموت . فها هو وقد أنسى ظله ، وغابت عن العالم كثافته ، يحاول أن يخترق الحواجز ليعيش تجربة كل ليلة ، ولكنه فى هذه الليلة يعجز . . فقد ضاع الجسد واختفت الكثافة ، إذ نسى أنه لم يعد من أبناء هذا العالم المتجسد . . يقول :

سلكتنى ، هذا المساء
(ممدا ساقى فى مقعدى المألوف)
أحس أنى خائف
وأن شيئا فى ضلوعى يرتجف
وأننى أصابنى العمى ، فلا أبين
وأننى أوشك أن أبكى
وأننى ،
سقطت ،
فى ،
كمين . .

عند هذه الكلمة تنتهى الحركة الأولى من القصيدة حيث تدرك هذه الروح الطموح التى تريد أن تتخطى حاجز الموت أن شيئا قد حدث . وأن الجسد (المشرع القبضة ، مشدود البدن ، على أرائك السعف) لا يستطيع أن يتحرك من مكانه ، ولا أن (ينام فى أحضان ربة الكتابة) فهذا زمن ولى وانقضى إلى غير عودة أبدا . . وإن كانت الروح الطموح تحس أنها تجلس فى مكانها الذى كانت تأخذه كل ليلة استعدادا للكتابة (ممدا ساقى فى مقعدى المألوف) إلا أنها تدرك عجزها عن النوم (فى أحضان ربة الكتابة) هذه الليلة . . وتحس بالخوف ، وأن شيئا فيها ينتفض ويرتجف ، وأن العمى أصابها فلا تبين . وما عاشت إلا لتبين ، ما كانت إلا الكلمة والكتابة ، ما كنت إلا الإفصاح . . ويرتجف الشاعر الطموح الذى أحب أن يكسر الحاجز الذى لا يكسر ، أن يقهر الموت بحثا عن الحياة ، أو أن يقهر الحياة بحثا عن الموت . . وحين يملكه العمى والعجز يملؤه القهر . . هو الذى يقهر ويحس بالضياع والفشل حتى ليوشك أن يبكى ، ثم يتأكد أنه (سقط فى كمين) . .

أى كمين أبشع من هذا الكمين المر . . حين سخرت النفس من الموت ، وظنته حاجزا تتخطاه كما تخطت فى الحياة كل الحواجز . . فاستسلمت له فى راحة وابتسامة . . وإذ هى قد وقعت فى كمين ، سقطت فيه وسقطت ، ثم سقطت ، وحين أرادت العطف والتحليق ، حلقت على أرائك السعف ، إلى الولوج فى نصف الليل ، فى فنادق المشردين ، إلى المسرى فى شوارع المدينة ، ولكنها حين أرادت أن تمارس الفعل ، أن تعود إلى حضن ربة الكتابة عرفت أن الفعل امتنع وأنها سقطت فى كمين لا فكاك منه ، كمين محكم مطبق حزين

ومن هذا الإدراك تبدأ الحركة الثانية فى القصيدة ، من لحظة المعرفة المرة أن التحول قد تم ، وأنه قد انفصل عن الجسد ، وأن القناع قد سقط وتعرى منه ما تعرى . . ساعتها تستدعى النفس من الأغوار السحيقة كل الرؤى والحكايات ، تثب الأساطير والمخاوف والهموم التى أقضت وجودها البدائى وحيرت عقل الإنسان بحثا عن الإجابة الشافية عن السؤال الملح . . من أين وإلى أين ؟ . . .

من قديم ، منذ البداية ، والإنسان يحل به الموت قدرا محتوما لا راد له ، لا الجاه يمنعه ، ولا السطوة تمنعه ، ولا الرفعة تمنعه . ، ولا المال يمنعه ، ولا القوة والفتوة تمنعه . . فجأة يسكن كل شىء ، ويكف كل صخب ، وبعد حين يتحلل كله ويغدو ترابا من تراب الأرض يختلط به ويذوب فيه . . ومن هنا ظهرت أسطورة إله الخلق الذى يصنع الأطفال الجدد من طين الأرض ورمالها ومياهها . يظل طوال الليل يدير عجلته التى هى عجلة صانع الفخار يصنع البشر الجدد مما حوله من ذوب وجود البشر القدامى الذين امتزجوا بالأرض وصخرها ورمالها ومياه أنهارها .

أى شىء كان هذا الجزء الرملى الطينى الصخرى الذى يصنع منه إله الفخار يدا ، ربما كان قلبا ، ربما . . وأى شىء كان هذا الجزء الرملى المائى الصخرى الذى يصنع منه إله الفخار عقلا . . ربما كان ساقا ، ربما ـ ونحتار ويحتار إله الخلق . . صاحب العجلة التى تصنع فخارا ، ناسا ، حياة ، بشرا ، وجودا ، عبثا ، موتا ، ياتعس ما نجد . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فما نأكله اليوم هو نحن الأمس ، وما نسعد من زهر وعطر ونبات هو نحن الأمس ، وما نلقاه من تعاسة اليوم صخرا ورملا وماء هو نحن الأمس . . وجودنا يأكل أمسنا ، وأمسنا يأكله حاضرنا ـ دائرة تدور ، وألف ألف أسطورة ، وألف ألف حكاية ، وألف ألف تعاسة ومعاناة . .

فمن نحن . . ولم . . وإلى أين ؟ . .

نحن التراب يعود إلى التراب . . نحن الصدفة تعود إلى الصدفة ، نحن العبث يصنع العبث .

فمن نحن ، وما نحن ؟

حين ينقضي الوجود البشرى بنبله وأفكاره وطموحاته وإبداعه ، أين يكون الجسد ، وكيف يكون ـ هذا الجزء الكثيف من وجودنا كيف يتحول ، وإلى أى شيء يتحول ؟

ياضياعنا إن كان الابتذال والسطحية يكون ، ونحن من عشنا النبل والرفعه ، والحلم فى الرقي واستشراف القمم . . كم هى تعاسة لو رحلنا إلى شيء مبتذل سخيف ، فما عظامنا إلا عظام كالعظام ، تذروها الرياح حين تدق وتشف وتغدو ترابا ورمالا وماء متاحا لا معنى له .

أين أنا وأين جسدى وسط هذا العالم المتكشف فى الأشياء . . ؟

هل أنا هذه القطعة من الصخر . . ربما كنتها ـ وإن كنت صخرا . . فلست كأى صخر . .

يقول صلاح المحلق فى دنيا الفقد والضياع :

ـ وكأنى قطعة صخر . .
تهف بالأقدام . .
رديني فى أكتاف الجبل الجرداء
أو فى حضن الأغوار المهجورة .
وخذيني من أرصفة الطرقات
أو زنزانات السجن المتسخة
أو أعتاب الخمارات

النقاء ما عشنا له ، والنقاء ما نريده بعد الموت ـ والنبالة ما حلمنا بالوصول إليها ، والضيعة ما نرفض ، فإن عدنا صخرة ، قطعة من صخر فمكاننا فى (أكتاف الجبل الجرداء) أو فى حضن (الأغوار المهجورة) بعيدا بعيدا عن وسخ الطرقات وضيعة الزنزانات وهوان الخمارات . .

أين أنا وأين جسدى وسط هذا العالم المتكشف فى الأشياء ؟ هل أنا هذه الكومة من الرمل . . إن كنتها فأنا أصرخ بالأيدى لست كأى رمل . . يقول صلاح :

ـ وكأن كومة رمل
تهف بالأيدى
ذريني فوق شطوط البحر
ألقيني جنب طيور الزبد البضاء
صونيني عن آنية الزرع الشمعى
أو عن طرق الأمراء

الرمل ما نكون رمل طليق حر ، تغسله أمواج البحر تحضن الشاطىء وتبلله بحبها ونقائها وتسطع فوقه أشعة الشمس متوهجة بحنانها ودفئها ، وتمور فوق الرياح طليقة صاخبة ضاحكة مندفعة . . عالم من الطهر والحرية والانطلاق ، وتتواثب فوقه الموجات المزبدة كأنها طيور مرفرفة بيضاء وطلقه تنشد الوضوح والحياة والصرخة العارمة . . لا لن نكون رمالا تنغرس فيها النباتات الميتة المقلدة الشمعية ، ولا لن تدوسنا أقدام الأمراء ، وتطحننا كبرياؤهم المقيتة فى زهوهم المريض السجين . . رمال منطلقة نظيفة تتفاعل مع الحياة ، وتزيد الحياة بهجة ، تحضن الشمس والموج والرياح . . أبدا لن تسجنها قيود الزيف ، ولن يقهرها كبرياء الغرور . .

أين أنا وأين جسدى وسط هذا العالم المتكشف بالأشياء ؟ هل أنا هذا النهر المتدفق . . إن كنته فليجف مائى ، وليتوقف جريانه إن كان مصيرى الضياع عند من لا يفهم ولن يفهم . .

يقول صلاح :

ـ وكأن نهر
يهف بالمجرى
ارجعني للقمم البيضاء
حتى لا يشربني الحمقى والجهلاء . .

والمزج هنا بين النهر المتدفق ، وبين الشعر المتدفق مزج يمثل صرخة الشاعر فى الحياة والموت معا ، فحين ينهل الحمقى والجهلاء من الماء الصافى لا يزدادون حكمة ولا معرفة ، وحين ينهل الحمقى والجهلاء من نبع الشعر الصادق لا يزدادون حسا ولا نقاء ، فكأن الماء مضيع وكأن الشعر مضيع . . وما أحلى أن نعود إلى المجرى لنحبس أنفسنا عن التدفق لنصبح نهبا متاحا بكل عطائنا للحمقى والجهلاء . . لا ابتذال فى التحول إلى الصخرة بل الرفعة إلى القمم الجرداء ، ولا ابتذال فى التحول إلى الرمال بل الامتداد النقى على شطوط البحر ، ولا ابتذال فى التحول الى النهر بل ردة إلى القمم البيضاء . . فليس من حسرة على العودة إلى الامتزاج بالأرض بعد الموت ، وذوبان الجسد فى مكوناتها إلا خوف الابتذال والضياع فى دنيا السجن والخمارات وطرق الأمراء ودنيا الحمقى والجهلاء . . لا ابتهال للعودة إلى الحياة وإنما الابتهال من أجل نبل المكان ، ونبل العطاء . .

تمتزج هنا أساطير الخلق القديمة بأساطير التحول المتوارثة ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعطاءات عمر الخيام والمعرى ، وأصحاب الفلسفات المغرقة فى تصوفها ، والمغرقة فى عدميتها فى آن واحد . . وتمتزج كلها بلهفة الشاعر الذى تجاوز من تعرضوا لنفس المعنى من الشعراء السابقين تجاوزا كبيرا . . فعند الخيام مرارة من أدرك أن الحركة ستتحول إلى سكون ، وأن الدفء سيتحول إلى برودة ، وأن الجمال سيتحول إلى قبح . . وعند المعرى تحذير ساخر من الاغترار بالدنيا والتهافت على عطائها ، والزهو بثوب الحياة ومتعها . . فالأمر يقف عند إدراك مر ، واتعاظ مستسلم ، وسخرية قاسية . أما عند صلاح فالأمر يخرج إلى التمرد على المصير المجهول ، والخوف من أن يسلم إلى ابتذال لا يد له فيه . . فالقمة ما استشرف فى حياته ، والسمو ما طمح إليه ، والمعنى النبيل ما نشد . . والخوف كل الخوف أن يسلمه التحول إلى ما كافح حياته من أجل الخلاص منه ، ومن أجل محاربته والقضاء عليه . . وذعر الشاعر هنا لا يتجه إلى الموت فقد فهمه واستراح إليه ، وذعره أيضا لا يتجه إلى التحول إلى جزء من مكونات الأرض ، فهذا أيضا قد فهمه وارتضاه وإنما ذعر الشاعر من ضياع النبالة والسمو ، من العودة إلى الزنزانات وأقدام الأمراء ، ودنيا الحمقى والجهلاء . . فالاستسلام المر عند الخيام ، والسخرية الحادة عند المعرى تعطى الحكمة الحزنية والحكمة الساخرة . . أما هنا فنحن أمام روح الشاعر المتمردة حتى فى الموت

ثم تبدأ الحركة الثالثة فى القصيدة بردة إلى الداخل ، إذ ترسخ فى أعماقه حقيقة أنه لن يرقد فى (حضن ربة الكتابة) . . بل هو قد حرم نعمة التعبير ، إذ لا اللسان هنا ولا اليد عادة تكتب ، انهار الحائط الجسدى الذى كان يعلق عليه تذكاراته وتعبيره . . يقول :

ـ أين أعلق تذكاراتى ؟
والحائط منهار
اين أسمر حزنى ، شغفى
أفراحى ، وهمى ، لهفى
والحائط منهار

الكلمة ما يبكى من كل الدنيا ، الحسرة على أن الكلمة توقفت ، وأن اللسان كف . المزمار لا تمسكه يد ، فاليد قد غدت صخرة . والنغم لا ترتده شفاه ، فالشفاه قد غدت كومة رمل . والشعر لا ينطقه لسان ، فاللسان غدا نهرا يجرى ماؤه بين شطئان المجرى . . فأين وكيف يغنى الشاعر أحزانه وشغفه وأفراحه ووهمه ولهفته ، والموت قد سلبه أدوات التعبير ، وكثافة الوجود التى يعلق عليها حلم الشاعر وتعبير الفنان ، والعجلة تدور ليلف النسيان الروح الصداحة والنفس الشاعرة . يقول :

ـ يا أيتها الأمسية الصيفية
ردى عنى أنسام النسيان
أو فأعطينى صندوقا من كلمات
كى أخزن فيه بعض المقتنيات . .

فى ذات ليلة من أغسطس سلبته الأنسام الجسد الذى كان يعلق عليه تذكاراته ، وانهار الحائط ، وبدأت أنسام النسيان تعبث بكل ما أودع الحياة من أسرار . . عاش بالكلمات ، فهل تمنحه هذه الأمسية الصيفية بعض الكلمات يخزن فيها بعض ما يجد وبعض ما يحس . فالنفس ما زالت تواقة ، والذكريات ما زالت كثيرة ، والعطاء ما زال وفيرا . . لم تنته عنده الكلمات . . ولكن . . يقول :

ـ يا أسفى هربت مقتنياتى كالطير الهيمان
تذكاراتى ارتفعت نحو الآفاق الغيمية
حبلا من دخان . .

فهذه الليلة الحزينة ليلة ١٣ أغسطس هربت فيها كل مقتنيات الروح ، هربت معها كالطائر الهيمان وهى تعرج إلى السماء ، وارتفع الشعر ، التذكارات ، الفن ، الفكر ، الرؤية ، نحو الآفاق الغيمية تغادر الجسد المسجى حبلا من دخان . .

وفى أول الحركة الرابعة من القصيدة يقف عند هذه الليلة الحزينة ليصفها ، يقول :

ـ الظلمة تهوى نحو الشرفه
فى عربتها السوداء
صلصلة العجلات الوهميه
تتردد فى الأنحاء
خدم الظلمه والأجزاء
طافوا من حول المركبة الدخانيه
يلقون بذور الوجد الخضراء

العربة السوداء الوهمية وسائقها المجهول الوجه فى عباءته السوداء يحمل سوطه الطويل ويجلس فوق مقعده المرتفع ، والخيول الضخمة المغطاة بأردية سوداء ، والصلصلة تتردد فى الليل الموحش صورة متكررة فى الأدب الأوروبى القصصى ، قرأناها فى قصة للكاتب الشهير أ . م . فورستر فى مجموعته القصصية التى ترجمت فى الألف كتاب ، ووقفنا عندها كثيرا وعند الكاتب نفسه الذى استهوانا حتى ترجم له أخونا عز الدين إسماعيل كتابه عن فن القصة . وكان فورستر من

الكتاب الذين تبادلنا قصصه وتناقشنا فيها وأحببناها وانضم عندنا إلى مجموعة القصاصين العظام الذين استهوتنا أعمالهم فقرأنا كل ما هو متاح منها ، انضم إلى تشيكوف وجوركى وموباسان وهمنجواى ولورانس وأوسكار وايلدوكامى وبيراندللو . . ورسمت صورة العربة الدخانية الشبحية فى أذهاننا تجسيدا لمعنى الزيارة الحتمية لملك الموت يجمع الأوراح فيها ، من يركب معه يغادر وسط الضباب الأوروبى والغيوم والأمطار والقمر الشاحب الحزين ، دنيا الأحباب ، وعالم الألام . . ولكنها مغادرة إن شابتها المرارة فهى آخر الأمر رحلة الوجد إلى من نحب ، رحلة العودة إلى الحب الأكبر . . فى تلك الليلة من أغسطس حلت العربة بشرفته وانداحت الظلمة نحو القلب المتعب وألقى خدم الظلمة بذور الوجد تخضر فى قلوبنا شوقا إلى اللقاء المنتظر ، ومرارة فى حب من نهجر ونفارق ، والرياح تعصف والمطر ينهمر ، وصلصلة العربة التى تسير فى بطء نحو السماء تملأ الأذان ، والقمر الشاحب يطل وسط الضباب فى استحياء وحزن ـ يقول صلاح :

ـ عينا القمر اللبنى الشاحب
بكتا مطرا فوق جبينى المتعب
بكتا حتى ابتل الثوب
آه ، يلذعنى البرد
فلأهرع للغرفه
لم أدرك أنى عريان
إلا الآن . .

أطل الجسد من الشرفة يشهد العربة الدخانية وهى تسير بطيئة وسط الضباب ، وقد تسمرت العيون على القمر الذى يبكى مطرا يبل الجسد ، ويحس الجسد أنه قد برد ، أصابه لذع برودة الموت ، وحين يهرع إلى الغرفة يدرك أنه مسجى ، وعريان ، ويعرف الآن . . والآن فقط أن الرحلة بدأت للروح وانتهت للجسد المسجى فوق أرائك السعف .

ومن هنا تبدأ الحركة الخامسة فى القصيدة فرغم الموت الواضح المدرك المسلم به ، فالحياة لم تنته ، الحياة الوجود ، فى كل قلب قرأ ، وفى كل نفس وعت ، وفى كل جيل جديد يشدو إلى صدق الكلمة وصدق الشعر وصدق الفنان ، ولكنه يخاف أن يسلبه الموت هذه الفكرة لو عرفها قيمتها ، فهى كل ما تبقى من أمل ، وكل ما سيخلد من معنى . . يقول :

ـ أرتد إلى هذه الفكرة كل مساء
مثل صدى يرتد إلى الصوت
مثل النهر إلى البحر
تتشكل أحيانا فى أقنعة
متشابهة ، متغيرة ! كالأيام
أو كالموت . .
تتجول فى جسمى مثل دمى
تلذعنى أحيانا فى عينى .
إذ أنزف
أو فى قدمى
إذ أتوقف . .
تبغى أن تعرفها ياجاسوس الوقت ؟
لا ، إن أكتمها عنك
بل إن فى الحق
لا أعرف كيف أعبر عنها لك .

هى شىء مخامر ولكنه ثابت متردد ودائم ، فالصدى إلى الصوت ، والنهر إلى البحر . . والكلمة إلى دنيا الكلمات ، إلى ذخيرة العالم من الفن الخالد الذى لا يموت . . يحفها الشك إذ هى مرة تلبس ثوب الطموح ومرة ثوب الحقيقة ، ومرة ثوب اليأس ، ومرة ثوب الموت ، ولكنها شىء ثابت ، هى الدم للجسد الذى فقد دمه ، وهى الرؤية فى العين التى جمدت ، وهى الحركة للقدم التى توقفت . .

يريد الموت ، جاسوس الوقت أن يعرفها ليميتها ، ولكنه أبدا لن يقدر عليها ، فهو يقدر على الحائط فينهار تحت ضربته ، على الكتافة فتتبخر لدنانه ، ولكن الفن لا يموت . . ولن يشى الشاعر بسره ، بل هو لا يعرف كيف يجسده فى كلمات حتى لو أراد . .

طاف بالمدينة وشوارعها ، ذهب يبحث عن الأصدقاء ، جال فى فنادق المشردين وحوانيت الجنون ولكنه يتوه (وحده) ويبحر (وحده) . .

إنه الإدراك المر . . يقول فى الحركة السادسة والأخيرة :

ـ لا شىء يعينك . . لا شىء يعينك
لا شىء يعينك . . لا شىء يعين
لا شىء يعينك . . لا شىء
لا شىء يعينك
لا شىء . .
لا . .

متدرجة مرة . . حزنية مرة . . متوحدة فى كلمة لا ، مرة . .

جاء طارق نصف الليل يبحث عنا ياأحمد كما تواعدنا ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلا وجدك ولا وجدنى ، ولا وجد أحدا ، ولا وجد شيئا . . فلا شيء يعين . . لا . . والكلمات كفت ، والتذكارات تبددت وطارت كالطير الهيمان ، وسكت الناى . . لا شيء يعين . . لا . .

كيف قهر صلاح حاجز الموت فعبره وهو حى ، ثم عاد يعبره إلىّ كل ليلة وأنا أقرأ تأملاته الليلية هذه فأحس أنه يحاول أن يقول لى شيئا ، أن يقهر حاجز الصمت الذى فرض عليه ليبوح بكلمة ، بشوق إلى دنيا الكلمات ، إلى مزيد من الذكريات ، إلى مزيد من القول . .

كيف استشرف النهاية وأحسها ثم عبرها وعبر عنها ، وعاد بعد نهاية القصيدة يمارس الحياة فى كآبة ، إلى أن جاءت الليلة الكئيبة فأصبحت القصيدة حقيقة ، وتحولت أبياتها قصة ليلة الفراق الحزينة

أكنت تعرف ؟ وكنت تخفى . . فضحك الشعر ، وكشف ما كنت تخبىء . . وباح بسرك الحزين الذى أضجرك ليالى طويلة عشتها فى قلق وعناء تنتظر الليلة الموعودة واللحظة الحاسمة . .

وجاءت وصلصلت العربة بأجراسها تحت شرفتك ، وسجى الجسد فوق أرائك السعف ، وغفوت وحدك مشرع القبضة ، مشدود البدن . . وحين جئتنا نسيناك . . ياويلنا نسينا الموعد ، نسيناه . .

القاهرة : فاروق خورشيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نعمان عاشور

تأملات متأخرة فى الرحيل .. والعمل .. والحياة

سامى خشبة

رحل نعمان عاشور عن عالمنا يوم الأحد ، الخامس من ابريل ١٩٨٧ . علامة ثانية . بعد رحيل نظيره ونقيضه : رشاد رشدى ـ قبل عدة أعوام ـ على أن الدراما المصرية ، تفقد دعاماتها وصناعها الراسخين ، الذين اشتركوا ـ من منظورات مختلفة وبدوافع جد متناقضة ، ولكن باعتبارهم جيلا واحدا ـ فى صياغة ورسم الوجود الإنسانى والاجتماعى ، الفردى والجماعى ، المصرى ، على المسرح .

رحل نعمان عاشور بعد رشاد رشدى ، وسبقهما ، وتوسطهما ، رحيل عدد من فلذات أكباد الدراما المصرية من الجيل الذى تلاهما معا : ميخائيل رومان ونجيب سرور ومحمود دياب وصلاح عبد الصبور ، بينما تدفع عوامل وتطورات عامة وشخصية بالكثيرين إلى الصمت الدرامى ، بل الصمت الإبداعى عموما (يوسف إدريس) أو إلى الهجرة الدائمة (الفريد فرج) .. بعد أن سكت سعد الدين وهبة دراميا ، ربما لأنه لم يعد يستطيع أن يواكب التطورات بالدراما كما كان يفعل قديما أو ربما لأنه قال بالقالب الدرامى كل ما كان يمكنه أن يقوله به ، ثم لم يعد يملك ما يقال الا نثرا .. وسكت توفيق الحكيم .. « دراميا » منشغلا بالتبشير الأخير ورسم الصورة الدنيوية النهائية للذات فى عيون الآخرين ..

الآن يبدو أن عصرا دراميا (ثقافيا ؟!) قد انتهى بالفعل بعد أن توارى أول فرسانه وراء باب المالا نهاية الذى أوصده خلفه ، تاركا فى العراء كثيرين لم يبلغوه . الآن إذن أصبح ـ بحكم التاريخ وحده ـ ممكنا أن تتبدى دلالات ذلك العصر : الحياة والرحيل ، فى ضوء الموضوعية الكاملة ، المتاحة . فرحيل الجميع ، أو سكوتهم ، يجعل عصرهم يبدو كيانا مكتملا ، منتهيا ، وجزءا من التاريخ . برحيل نعمان ـ اذن ـ يتأكد مغزى رحيل رشاد ، وميخائيل ، ونجيب ، ومحمود وصلاح ، ويتأكد مغزى صمت يوسف وهجرة الفريد ، وصمت سعد بعد أن صمت الحكيم . وبينما يجيد « الدكاترة » ، من مؤلفى الدراما الأكاديميين الأربعة : سمير سرحان وفوزى فهمى ومحمد عناني وعبد العزيز حمودة التحكم التكنيكى فى القوالب وسبك الموضوعات « المثيرة » فى الاساليب المناسبة ، واثارة « القضايا » الجادة والهامة من خلال شخصيات تتراوح بين ايقاظ العقل والهام الخيال .. فإن ما يبدو محققا هو أن العالم ـ المجتمع (الجمهور ، الاعلام ، عقلية الامة وروحها ..) لا يهتم ، ولا ينفعل بما يفعله هؤلاء الكتاب المجيدون ، انفعالا « دراماتيكيا » عميقا . لا تتجاوب تلك الروح وتلك العقلية الجماعية (للمجتمع أو للامة) بمثل ما كانت تتجاوب به مع أعمال جيل نعمان ، ومن خلفه وجايله فى الخمسينات والستينات . وفى الوقت نفسه ، لا يبدو أن أقدام الشباب (الكهول ! ؟) من الكتاب الدراميين غير الاكاديميين ـ قد ترسخت بعد بما يكفى ، والفارق « الفنى » فى النهاية ليس جسيما بين مجموعة الدكاترة ـ المؤلفين الأكاديميين ـ وبين مجموعة « النبت الشيطانى » من هذا الجيل الأخير : يسرى الجندى والسلاموني ، وأحمد سويلم ، وشوقى خميس وفاروق جويدة ومهران السيد ومحمد أبو سنة . هؤلاء

أيضا ينتجون أعمالا تتراوح مستوياتها فنيا ، وتتلاقى ـ فى العموميات الاساسية ـ فكريا ، ولكنها مثل أعمال الكتاب الاكاديميين ، لا تستثير الاستجابة الساخنة من « روح الأمة ولا من عقليتها ». ولكن هذه قضية أخرى . فلنتشغل برحيل آخر الراحلين .

* * *

وقبل أن نتشغل تماما بجوهر تراث نعمان عاشور وحده ، أحب أن نتوقف سطورا قليلة ، عند أحد العوامل الرئيسية ، التى أظنها العوامل الكامنة وراء ضمور تأثير هذا الجيل من الكتاب الدراميين المصريين ، رغم محاولاتهم الطموح . وقد سبق لى أن أوضحت فى غير هذا المكان ما اعتقده من أن « المناخ العام » للثقافة المصرية الان ليس هو المناخ الملائم لنضج « الفن الدرامى » ولا لا تساع تأثيره . إن المسرح « فن جماعى » : تنتجه جماعة ، وتتلقاه جماعة فتعيد انتاجه على المسرح وفى المسرح . والتلقى الجماعى المؤثر والمتفعل فى آن معا ، يحتاج إلى « مزاج » جماعى وهو المزاج الذى لا تخلقه إلا رؤية جماعية (قومية) تؤلف أكثر مما تفرق وتوحد الاهتمامات والارادات أكثر مما تشتتها ، رؤية تنبع مما يسميه علماؤنا الاجتماعيون الآن : « المشروع الحضارى » للمجتمع بأسره ، أى للأمة ، تتبلور فيه ومن أجله أهداف محددة لها فى الآن وفى المستقبل المنظور .

ولكن المسرح أيضا ـ ربما لأنه فن جماعى بالذات ـ فن مقترن بالديموقراطية ، وقد أثبت مؤرخو المسرح العظام ، من شليجل إلى كيتو إلى جاسنر ، ومرورا بآخرين كثيرين ـ أن عصور ازدهار الفن المسرحى ـ من العصر الأثينى إلى العصر الباريسى (القرن ١٧) إلى العصر الاليزابيثى . . الخ ـ كانت فى جوهرها عصورا شهدت موجات التحرر الروحى والعقلى والانسانى العامة ، فى عصر بيركليس ، أولويس الـ١٣ ، أو اليزابيث الأولى . .

أيامها ، كانت المشروعات الحضارية للأمم « تتبلور » . . وكانت موجات التحرر تدفع كل الناس ـ بكل فئاتهم وطبقاتهم وانتماءاتهم المختلفة ـ إلى الاندماج الحر بهذا المشروع الحضارى ، اندماجا اختياريا ، بدافع الارتباط الشخصى ، التلقائى أو الواعى بعناصر ووعود المشروع الحضارى نفسه : فينتجون الدراما ويتلقونها ، لأنها فن جماعى ، ولأن جوهرها ، هو المواجهة الحرة ـ والمحسوبة فى آن معا ـ بين ارادات انسانية متميزة ، تسعى إلى خلق موقف مشترك ـ مركب ـ واحد .

ولكن الثقافة المصرية تفتقد ـ منذ منتصف السبعينات على الأقل ـ الاحساس بوجود ذلك المشروع الحضارى الموحد ـ المؤلف ، القادر على بلورة الأرادات . . . والاهتمامات فى مسيرة موحدة نحو اهداف موحدة ـ مع احتوائها على كل التناقضات الممكن استيعابها فى الوقت نفسه لهذه التناقضات . وفى اعتقادى أن الثقافة المصرية الآن ، التى تعكس جوهر البنية الاجتماعية السائدة هى فى جوهرها ثقافة ذات بنية شمولية ، وغير ديموقراطية إلى حد بعيد . إن الاطار الخارجى الديموقراطى للنظام السياسى وللبنية الاجتماعية (بالتعددية الطبقية ، والحزبية ، وحرية الصحافة والكتابة والاعتقاد والعمل . . إلى آخر هذه المسميات الفعلية أو القانونية) اطار قائم وفعل ، يكفله الدستور ويلتزم به النظام السياسى ، ولكن الروح السائدة فى المجتمع بأسره ، وفى كل مؤسسات هذا المجتمع وتجلياته الفكرية ـ دون استثناء ، الا فى حالات نادرة فى حلقات بعض المثقفين الليبراليين ، هى روح شمولية تتناقض بالفعل مع الاطار ذى الشكل الديموقراطى . إنها روح شمولية تعكسها « ثقافات » التيارات الاساسية التى تشارك فى صنع الخريطة (البنية) الداخلية الممتدة فى الاطار نفسه ؛ هذا الاطار الذى يكافح لكى يثبت قدرته على البقاء .

وقد تكون لهذا التصور فرصة أخرى لدراسة مستقلة .

* * * *

ولم يكن هذا هو الحال عندما شرع نعمان عاشور ـ فى بداية الخمسينات ـ يكتب أولى مسرحياته : كان المشروع الحضارى المصرى ، العربى ، الوطنى القومى يتبلور بسرعة ، مستفيدا بخبرات سقوط المشروعات السابقة (مشروعات أول القرن التاسع عشر ، ثم نصفه الثانى ، ثم أوائل القرن العشرين) ومستجيبا لتأثير تجارب الثلاثينات والاربعينات وثمار النهضة الثانية التى بدأها الامام محمد عبده ولطفى السيد وتلامذتهما . ولكن تجارب العقدين الاخيرين قبل انتصاف القرن كان لها تأثيرها الخاص : (على المستوى السياسى كانت هناك تجارب : المقاومة ضد دكتاتورية صدقى وصعود المد الديموقراطى الذى انتهى بخيبة معاهدة ٣٦ ؛ التحرر الداخلى النسبى والغليان الاجتماعى المصاحب للحرب العالمية الثانية ؛ اتساع وتعمق الصراعات السياسية والطبقية ؛ هزيمة ١٩٤٨ ؛ تصاعد النضالات الوطنية والديموقراطية ؛ تفسخ النظام القديم مع الغاء معاهدة ٣٦ والكفاح المسلح وانتشار الاضرابات والاعتصامات ؛ حريق القاهرة والانهيار النهائى للنظام . وعلى المستوى الثقافى كانت هناك تجارب : ظهور الصحافة الجماهيرية بتوجهاتها الثقافية العقلانية عموما ؛ تأسيس الاذاعة المصرية وتأثيرها الواسع ، تطور السينما

المصرية ـ وتأثيرها مع الصحافة والاذاعة فى توحيد المشاعر والمثل العليا وأنماط السلوك ؛ تأسيس المسرح القومى وتبنيه للمؤلفين القوميين ؛ جمعيات التعليم وتوسع التعليم الحكومى ؛ تكوين حلقات المثقفين فى شكل جمعيات للنشر ، أو حول مجالات ومنابر ثقافية وسياسية كان لها تأثيرها المعرق والفكرى الواسع فى أوساط المثقفين ، ثم ارتباط كل هذه العناصر الثقافية بمقابلاتها السياسية وبحركة الصراع السياسى الاجتماعى بوجه عام) .

ما يهمنا هنا ، هو أن تجارب الثلاثينات والاربعينات ، قد أدت إلى تطوير كبير للفكر العقلانى ، الليبرالى والاشتراكى والقومى ، كما أدت إلى شيوع الاحساس بأن « الشعب » أو القوى الشعبية ينبغى أن تتحمل مسئولية صياغة وانجاز المشروع الحضارى الذى كان الاستقلال الوطنى والديموقراطية والعدل هى الشعارات أو المعانى الذى تلخص هدفه ومسعاه . كان جوهر الثقافة القومية فى تيارها الجديد ـ يتخلص بسرعة من تأثير تراثه « الشمولى » القديم ، ويواجه « الشموليات » الجديدة : السلفية اليمنية ، والتقدمية الواردة اليسارية مواجهات مثمرة ونافعة للجوهر الجديد ، وللأجنحة الفرعية الثابتة فى كل اتجاه ، كان جوهر الثقافة القومية ـ يتجه بسرعة نحو « الديموقراطية » بمدلولها الفلسفى والاجتماعى العميق ، أى نحو ترسيخ قيم المسئولية الفردية ، وقيام مجتمع المواطنين الاحرار ، الانداد ، الاكفاء ؛ مجتمع الركون إلى المعرفة والعلم والعمل لا الاتكال على العائلة أو على الدولة ، وكان الشعب يسعى إلى صنع مؤسساته الجديدة فى هذا الاتجاه : محتويا تناقضاته ، مكتشفا حلولها ، وآفاقها المقبلة .

فى هذا المناخ ، كانت الثقافة المصرية ـ اذن ـ تتحول إلى ثقافة قومية ، ليس من حيث انتمائها والتزامها فحسب ، وإنما من حيث وظيفتها . كانت هذه الثقافة أو جوهرها العارم الحيوية الحديث الرائد قد شرعت توظف نفسها فى عملها الحقيقى وهو معرفة نسيج البنية الحقيقية لمصر : تاريخيا وآنيا ، وفى جوانبها جميعا الايديولوجية والسياسية والاقتصادية والنفسية ، أو السلوكية . عرفت الثقافة المصرية أنها لكى تكتمل كثقافة وطنية (قومية) فانها ملتزمة بأن تكون « العلم » بالوطن أى بالمجتمع ؛ تعكس حقيقته فى العلوم الطبيعية ، والانسانية ، وتعكسها أيضا فى الفن وتنتقدها وتسعى لتغييرها إلى الأفضل .

وفى المسرح ، كان نعمان عاشور من رواد مرحلة انكباب الفن المسرحى على البنية الاجتماعية المصرية ، مجسدة فى اناسها ـ الذين يصبحون فى المسرحيات شخصيات فنية درامية واقعية ، ثم مجسدة فى علاقات هؤلاء الناس ـ التى تصبح فى المسرحيات هى الحبكات الدرامية حيث تتساوى فى المسرح علاقات البشر الحقيقيين خارج منصة العرض المسرحى ؛ ثم مجسدة فى اهتمامات هؤلاء الناس ومعاناتهم وأحلامهم التى تصبح فى الدراما هى الأبعاد النفسية والفكرية للشخصيات الفنية الدرامية ، مشتبكين فى علاقاتهم التى تجمعها وتحلوها الحبكة .

كان نعمان عاشور ، هو أول « موهبة » فردية من جيله ، تستوعب منجزات الثقافة المصرية ، التى رضعها من أعمال توفيق الحكيم ونجيب الريحانى وصبحى وحيدة ويوسف مراد ، ورمسيس يونان وسيزانبراوى وفوزى جرجس وشهدى عطية وعبد الرحمن الرافعى وطه حسين وابراهيم المازنى وفكرى أباظه ونجيب محفوظ ويحيى حقى وبيرم التونسى ، وعشرات غيرهم فى مجالات الأدب الدرامى والروائى ، وفنون الرسم والتمثيل والتشخيص ، وعلوم النقد والتحليل النفسى والتاريخ الاجتماعى والثقافى والسياسى والاقتصاد والأسلوب واللغة والاستخدام الأدبى للعامية المصرية . . الخ . . الخ . .

وذلك ، لكى يواصل ما كان قد بدأه محمد تيمور ، ومحمود تيمور ، ورسخه توفيق الحكيم فى الأعمال الأحدى والعشرين التى ضمها مجلد : مسرح المجتمع ، وفى الكثير من الأعمال التى ضمها المجلد الآخر : المسرح المنوع .

ثقافيا ، كان نعمان عاشور ابن هذه الثقافة الجديدة ، التى اكتشفت وظيفتها الحقيقية ، بوصفها العلم بمجتمعها ، والتعبير عنه وأداته الرئيسية للتطور ، حتى تصبح ثقافة قومية حقا ووطنية حقا .

وفنيا ، كان نعمان عاشور ـ مع انتصاف القرن ـ هو الابن البكر لما أنجزه التيموران ، وبيرم والمازنى وحقى ومحفوظ والحكيم .

ولكنه مسرحيا ، كان الابن الأكبر لمرحلة الحكيم « الواقعية الاخلاقية » التى نضجت فى الأربعينات ، وتوازت مع واقعية نعمان الفكرية فى الخمسينات ، ويمكن القول بأن نعمان عاشور استفاد ـ مسرحيا ـ من نجيب الريحانى ومسرحه ، بقدر ما استفاد من الحكيم : كان « التشخيص » التلقائى ، الواقعى الكاريكاتيرى الذى اشتهرت به فرقة الريحانى فى مسرحيات بديع خيرى والريحانى المشهورة التى شاهدها نعمان كلها (على حد قوله فى صباه وشبابه الأول) لشخصيات « مصرية » من طبقات مختلفة ، مفيدا لنعمان فى تعلمه كيفية

صياغة الشخصية الفنية بالحوار ، بقدر ما كان مفيدا له فى تعلم صنع حبكة درامية تعتمد على تصادم وتجادل شخصيات ـ مصرية الطابع ـ ينبع تصادمها من تعارض أصولها الطبقية والثقافية وأخلاقياتها ، بقدر ما ينبع من تعارض طبائعها الذهنية والنفسية . وحينما شرع الحكيم يكتب مسرحيات « المجتمع » لكى ينتقد التفسخ الخلقى لفئات ـ وشخصيات المجتمع المصرى ، أضاف توفيق الحكيم خط الواقعية الخلقية « الانتقادية » الأدبى الواعى ، الذى يهدف إلى إشاعة « قيم خلقية » بعينها ، وكشف وتمزيق قيم متفسخة أخرى . ولا شك أن نعمان والحكيم قد ـ شاهدا وقرءا ـ بعناية ـ مسرحيات محمد تيمور ثم مسرحيات شقيقه محمود التى كانت قد بدأت منذ نهاية العشرينات وحتى الاربعينات ـ فى اكتشاف وخلق « شخصيات مصرية الطابع » ، ونقدها أيضا على أساس أخلاقى . ولا شك ـ فى تصورى ـ أن منجزات الأدب القصصى المصرى ، سواء فى خلق الاحساس بواقعية البيئة ، أو واقعية الشخصية ـ بسماتها النفسية والسلوكية أو بسمات « حوارها » العامى المرصع بكل « لوازم » اللهجة العامية المصرية (القاهرية أساسا) لاشك أن منجزات هذا الادب القصصى المصرى قد تركت على نعمان بصمات لا تخفى .

وعلى هذا الاساس الثقافى « التحررى » والتعددى العريض والكثير المنجزات ، فكريا وفنيا ، شرع نعمان يكتب مسرحياته ، بعد أن زودته الثقافة الجديدة بهذا الوعى النقدى والاجتماعى ، فأنتج مسرحيات « الشخصيات » أو الارادات أو الدوافع الشخصية المتصارعة ، التى كانت أولى علامات الواقعية الاجتماعية النقدية فى الدراما المصرية .

• • •

ولكن أعمال نعمان المسرحية ، يمكن تقسيمها ـ تقسيما عاما ـ إلى مجموعتين رئيسيتين ، وواحدة فرعية : فقد كتب خمسة عشر مسرحية ، بينها سبع مسرحيات ، يمكن وصفها بأنها مسرحيات النقد الاجتماعى - الواقعية :

المغماطيس ، الناس اللى تحت ، الناس اللى فوق ، عيلة الدوغرى ، بلاد بره ، برج المدابغ ، إثر حادث أليم (وعرضت باسم : مولد وصاحبه غايب) .

ويمكن أن تلحق بهذه المجموعة الرئيسية الأولى ، المجموعة الفرعية ، التى تضم مسرحيتين : سينما أونطه ، جنس الحريم ، فهما من مسرحيات النقد الاجتماعى الواقعى أيضا ، ولكن تركزت حبكة كل منهما على موضوع جزئى ، ولم تهدفا إلى تناول شامل للحركة الاجتماعية الرئيسية شأن المسرحيات السبعة السابقة .

وكتب ست مسرحيات ، يمكن وصفها بأنها مسرحيات التبشير بالقيم الاساسية التى قامت عليها الثقافة المصرية الجديدة : ثقافة النهضة والعقلانية التى بلغت ذروتها فى الخمسينات : قيم الحرية ، والعدل ، والعلم ، والتكافل الاجتماعى ، والتواصل التقدمى بين الأجيال . . الخ . .

إنها مسرحيات : الجيل الطالع ، ٣ ليال ، بشير التقدم ، لعبة الزمن ، حملة تموت ولا شعب يموت .

وقد نشر أيضا صياغة خاصة ، درامية حوارية ، لبعض أجزاء كتاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ : عجائب الآثار (ومن هذه الصياغة خرجت مسرحية : حملة تفوت) .

كما أن مسرحية : عطوة أفندى ، كانت إعادة صياغة لمسرحيته الأولى : المغماطيس .

• • •

واذا كان لكاتب درامى عربى أن يتحدث عن « عقيدته » الدرامية بعد توفيق الحكيم فلا شك أن نعمان عاشور سيكون هو أول المرشحين لمثل هذا الحديث ، ليس فقط لأن المسرح كان ـ كما قال ـ : « حياته » ، وإنما أيضا لأن مسمياته المسرحية ، تكون ما يكاد يكون « منظورا » فنيا واحدا ، متناميا ، تتجلى من نافذته مساحة أوسع مئات الاضعاف من مساحة المنظور نفسه .

وقد كتب نعمان كثيرا عن « عقيدته » الدرامية ، وعن « تربيته » المسرحية ، كما كتب عنه الكثيرون ، ولكن من بين كل ما وصلنا من كتاباته وكتابات الآخرين عنه ، لم نجد أكثر وضوحا من النص التالى ، فى حوار قصير أجرته معه السيدة بركسام رمضان ونشر فى جريدة الاخبار (١٩٨٦/١/٢٩) وكان ذلك بعد أن كتب « المسرح حياتى » و « المسرح السياسى » بنحو عشر سنوات ، يقول نعمان :

« أعيش المسرحية عدة شهور قبل أن أشرع فى كتابتها ، بمعايشتى للمرحلة التى أتصور أن أحداثها ستقع فيها ، بمعنى أننى أخرج من معاركة الواقع فى مرحلة معينة بصورة كلية شاملة غير أننى لاأقدم على الكتابة ، الا إذا تكاملت عندى فى داخل هذه الصورة مجموعة الشخصيات التى ستلعب أدوارها . ذلك أن الشخصيات هى الاساس فى مكونات مسرحى ، فاذا تكاملت هذه الشخصيات أدفع بها لكى تنطق على الورق . فالاصل عندى هو وجود الشخصية المسرحية التى أتركها تسيطر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على قلمى ، ومن ثم تندفع لتخلق قصتها بنفسها وتبنى أحداث النص بتفاعلها مع بقية الشخصيات الاخرى ؛ ذلك لأنها تصدر من داخل لتدخل فى اطار النص ، وهو اطار غير مرسوم مسبقا من جانبى لأن الشخصية نفسها هى التى تبنى أحداثه وتنسج بأفعالها وتصرفاتها ومنطقها تفاعلها مع بقية الشخصيات ، ولذلك لا يوجد فى مسرحياتى شخصية يمكن أن يقال أنها تعبر عنى أو عن أفكارى الخاصة . . . أنها كلها شخصيات موضوعية ، فاذا انطلقت على الورق ، خرجت عن طاعتى لتخضع للجدران الدرامية الخالصة التى تقوم على خلق الحدث والانصهار به ، ثم تطويره ليفضى إلى الحدث الذى يليه حتى يتكامل العمل فى النهاية . وأنا أعتمد فى كل ذلك على موهبتى الدرامية وهى موهبة لا تحفل بالصنعة بقدر ما تحتفى بالصدق الموضوعى . . .

« والمسرح فى النهاية يقوم على أساس رسم الشخصيات الدرامية المستلهمة من الواقع الحى ، وذلك هو المحك الاساسى للواقعية التى لاتلزمنى بأن أخضع لدواعى الصنعة الدرامية بقدر ما أخضع للصدق الموضوعى فى رسم الشخصيات وخلق الاحداث التى تكون البناء الدرامى ، وتنتهى به دائما إلى خاتمة مفتوحة كما هو الحال فى كل مسرحياتى . .

• • •

- إنه يعارك الواقع فى مرحلة معينة ، فيخرج بصورة كلية شاملة عن : « مرحلة الواقع » .
- بعدها تتكامل الشخصيات ، التى هى أساس المسرحية .
- أما الحبكة ، والقصة وتفاعلاتها ونموها إلى النهاية المفتوحة ، فانها تخلق بالكتابة .
- النموذجية التكنيكية (الصنعة الدرامية) هامشية بالنسبة للصدق الموضوعى : أى الصدق فى نقل الصورة الكلية الشاملة عن المرحلة ، مجسدة فى الشخصيات المتجادلة المعبرة عن تلك « الصورة » أو الدلالة العامة التى استقاها من « معاركة » المرحلة التاريخية (الآنية أو الماضية) والتى يريد اصطيادها فى شبكة البناء الدرامى .

• • •

وقد يختلف كثيرون مع نعمان فى مغزى « الصورة الكلية الشاملة » أو الدلالة العامة التى استقاها من معاركاته الطويلة مع مراحل تاريخ مصر الحديث ؛ تلك المعاركات التى وقعت فى ساحات من الزمن متباعدة صعودا أو هبوطا على جبل ذلك التاريخ الحديث من سفحه عند عصر الطهطاوى أو عصر عمر مكرم (بشير التقدم ، حملة نفوت) إلى ذروته عند عصر الطفيليين الجدد منتهكى التقدم الاجتماعى وعصر المثقف المتردد بين ايمان حلمه واغراء ثروته الموروثة المنهوبة (اثر حادث أليم) .

قد يختلف كثيرون مع نعمان فى مغزى تلك الدلالات العامة المستقاة من معاركاته الطويلة ولكن قليلين هم الذين يمكن أن يعجزوا عن تذوق جمال الصدق الموضوعى ، والغنى أيضا الذى حققته شخصياته ، وحبكاته سويا .

وقد يستفيد ـ أو لا يستفيد ـ عالم الاجتماع الادبى من تحليل المضمون الاجتماعى لمسرحيات نعمان ، أو عالم الاجتماع الثقافى من تحليل مضمونها الثقافى واللغوى . . ولكن من حق النقد الدرامى ـ بكل مناهجه ـ ومن واجبه ـ أن يكتشف القيم الهامة التى صاغتها وتجسدها نتائج معاركات نعمان مع تاريخ مجتمعه : النتائج التى هى مسرحياته نفسها . فربما كان ما اعتبره نعمان نفسه هامشيا فى عمله هو المفتاح الوحيد لفهم وتقدير تصوراته الكلية عن مراحل الصعود والهبوط ـ شكليا ودلاليا ـ التى عاشها تاريخ مجتمعه وعايشها نعمان فى صدق نادر ، ورغبة عارمة فى الفهم ، ومشاركة الاخرين فيما أدركه بدعوتهم إلى حديقة ابداعه المثمرة والكثيرة العطاء .

رحل نعمان وسحب وراءه باب عصر كامل فأوصده ، وترك مفاتيح كثيرة لابد من تجربتها كلها ليفتح الباب الذى فتحه هو أول مرة ، الباب الذى أوصد ـ أيضا من زمان ، وربما يكون هو الباب المفضى إلى الطريق الصحيح .

القاهرة : سامى خشبة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

قصيدتان
• الزهرة
• الهوية

بدر توفيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ ـ الزهرة

الزهرة اليانعة اليافعة الغضّه
يميل غصنها الرقيقُ
في حوارٍ دامع مع النسيمْ
يعانق الفجر قوامها
ويجمع الندى في صدرها الوسيمْ
ينكشف اللون الخبيءُ مرّةً
ومرّةً يلوذ بالأحلامْ
خلف رداء أزرقٍ مفتّح الأكمامْ
متجذبا للنورِ
في الضوء الذي يخترق الأغصانْ

الضوء يهوى في بحيرة الظلام والشجونْ
يرحل في قبّعة الزهرةِ
يخفق في رموشها الطوالْ
حتى إذا خدّره التجوالْ :
انداح دفقةً فدفقةً فدفقهْ
كمزنةٍ تمنح فيض الصُلب والترائبْ
تشعّ في أوراقها الألوان والأحزان والشوائبْ
وتنسم المسام في تربتها
تبتسم النجوم
في هدأة الليل ، وقد عمّ السكونْ
يستبشر القلب الذي أقعده الجنونْ
مستشعرا بعض النجاةِ
من شرور الآدميين !

٢ ـ الهوية

غريبة من صلب هذا البلدْ
تحمل جوع القلب والسهاد والكمَدْ
فاجأها المخاض في الصحراء
وليس عندها أبٌ ولا ولد !

الصورة الدالّة في الهويّه
غابت إلى الأبد
مثل القصائد التي صوّرت الخيمة والوتد
وصورت خلفها المحراث والمدفع

والزارع والفارس والحكمة والمدد
وزرعت البسمة فى تعطّل الكبد

اكتمل العدد
ما عاد فى الموت مكان لأحد
صافح بدرُ الليل أفواجَ الزَّبَد
ومال تحت الريح
تكاثرَ الصُّراخ واستبدَّ بالمدائن الهدد

الماء فيّاض من النيل ومن نهر الفرات
الماء فى الجدار ، فى الصخرة ، فى الفلاة
لكن ماء الوجه غاض فى العيون
وجف فى السُّمات
التفَّ حول الجيد حبْلٌ من مَسَدْ
ليس يقادر عليه من تولى وسجد .
من يُنقذ القلوب من مواجد العطش ،
ومن تفحم الجسد !

القاهرة : بدر توفيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تهجّدا المريد الذى بُرِىَ وَجَدا

محمد أبو دومه

● هل كل من تحت أضلعه مُضْغةً . . صَلُحت ؟
لا . . ،
ولا كل من شرّع السيف جال . .
للمحنة أول . . ما كلفوا
والتجاول فى الحرب مُحتكمٌ للفراسة
والموت عند احتدامها
بدءخطو المحبّ إلى اللحظة المُشتهاه ؛
. . أول فيض الوصال . . .)
فاجتهدوا أن تموتوا . . !!
واحذروا أن تموتوا . . !!
: :
الثبوت على ضجر الدرب ،
ياناهِجى نهجَنا للفناء الأليفْ
يثْلم السيفُ إن سَلَّهُ مُدَّعٍ بالمحبه ،
مثلما يُبطل الحب عَزْمٌ ،
توسَّدَ نوم السيوف
إن من حادَ عنْكَبَ فيه التخوّف ،
غادره لوْن جِلْدهْ . .
فادخلوا وقتكمْ . . يدخل الوقت فيكم
شرُكم من ثوى فى ثياب العزوفْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آه . . ،
ليت كل الذين أطلّ عليهم . . جلالك ـ ياربة النهر ـ
هاموا ،

لبُدِّل بعضٌ ببعض . .
لكنا . . هو العشق . . !!
نفقه أصداء صمتك من خشخشات السكوت . .
نعرف كيف نفكّ رموز اصطبارك . . ،
نلمس داءك قبل اشتعال الوجَعْ
نرْقىَ لفهم دموعك ،
إنْ فرحة أو شجن
نُدرك إن حُلَّ شعرك ،
كانت . . مِحَنْ
إن مال رأسك ،
عَمَّ حداد البيوت
(تسقط الشمس . . لو يجمح المُهْرُ بكْ)
لكنما النهر . . فيه . . وفيه . . وفيه
فاغفرى للذى ضلَّ سهوا
وامنحى للذى شكَّ أمْنا
ولمن اخلص الودّ ،
سيفاً بوِاخيه ما زال لكْ . . !!
والذى خان . . لا تقتليهْ
أنتِ مُنَاحة . . ،
والذى اعتاد منحاً يعفّ
أنتِ وهَابة للتطُّهر ،
خلِّيهْ
كى . . لا يدنّس كفُّك مسُّ الخيانه
منتبذاً سوف يُقبر باللعنْ . . !!
فكفَى أنه خان
باع أجل عِشرته المستضاء ،
بعاجِله الممتهن

هكذا نقش المغرمون على بيرق الوجد ،
أسرارهم واختفوا . . . مثلما ،
يختفى الموج بين غضون الشواطئ ،
حتى يفُيق السهاه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يلزم كلُّ مُريدٍ حدودَ اقترابهْ
فاتقوا العشق إن لم تكونوا له الأهلَ ،
أو .. هِبْتموا مُنتهاه . .

(مارقٌ من تحلَّى
رابحٌ مَن هَلَكْ)

محنة العاشقين المحبُة . . ياربَّة النهر
وأنا واحد من جموع أظُلهم فيء لحظك
واحد لست أوحد . .
مذ مُنحت بعينيك مرفأ
أصبحت أبُصر بكْ . .
أمسيت بي تبصرينْ . .
تكشّف خَلْف ذبول ابتساماتنا سر حزنٍ مُحبّأ
ولأني رأيتك تُمتَهتينَ ارتجفتْ
ولأني رأيتك تزوين . . صحتْ
ولأني رأيتك منْهَشَةً للمرايين أشْرعتُ سيفي
أهدروا بالمنابر ماء عروقي
أبعدوا مَن تَتيّم عن وجهك النور والقصد
. . . عن ثراك المسّك
عن نهرك الدمع
كتبوا في صحيفة جرمي ،
: أنت متّهم باقتراف المحُبة !!
أنت صبات

ليتهم فطنوا . . أنني حيثما رُحت ،
وجهك بابي
عطر ثراك يُعبّق ريح التغرُّب ،
رجع أنينك يجأر تحت الضلوع وبين المسامْ
نهرك أسبحه كل ليله
أدهن جرح الزمان العليل برغوته المُبرْئه
أجلس بين ذراعَيْ أبي الهول ..،
أرقب أبواب مجدك . . أعجبُ..،
« ممن عن الضيم نامْ »
حيث أكون تكونين
يكون امتشاق الحسام . . ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آه يانبضة الروح
الشذى غاب عنه الشذى . . !!
داء الفؤاد تفشّى . . وحبُّك عاف السفر
ـ قيل لى ياغريب برتْكَ المنافى ترفقْ
لم يعد تحت جلدك غير قوام مهدَّم
طأطئ الرأس . . هوْجُ الرياح تمر
طأطئ الرأس . . ياواسع الجرح
تسْلَمْ . .
ـ قلت . . كيفَ ؟ . . . لا . .
ـ قيل . . غيرك قال نعم . . !!
ـ قلت . . ،
كفَّ بماءْ . . ،
لا ككفِّ بَدَمْ
ـ قيل أوشكت . . !!
ـ قلت أناشدكم أمهلونى . . أسرُّ إليها ثمالة قلب المتَّيمْ
إننى واحد من جموع أظلَّهُمُ فَيْءُ لحظك
منك طُردتُ بجرم المحبّة . . فيك فنيت لفرط المحبّة ،
عِفْتُ مادون وجهك . .
فاقبلينى . . إذا جئت . . ربّة النهر
دثّرينى بأرضك . .
فتّى هفتى فى حنايا ثراكْ
(سأشرق . . فى كل نَبْتِكْ)
آه . . ياربه النهر . . مُدّى . . ومُدّى . .
مُدّى . . لعشاقك الواهمين جسور الأمان ،
لكيما يظلوا بقبرك . .
(إننى الآن آت)
هبينى . . قبْلتكِ المشتهاه
إنها فيض فيض الوصال

●●

ـ قيل لى الآن أنت انتهيت
ـ قلت ذاك ابتداء النزال
(هل كل من تحت أضلعه مُضغة صلحت ؟
لا . . . ،
ولا كل من شرَّع السيف جال !!
ولا كل من شرَّع السيف جال !!)

القاهرة : محمد أبو دومه

علاقة

محمد سليمان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« نورا » ترمي نجمتَها فى الركْنِ ،
وتُمسِك كُرةَ الأرضِ
تُلوِّن شجراً للعصفورِ
تمدّ يديها للريح المصْلوبةِ فى الشُّباكِ ،
تُفتّشها . . .
تسألها عن خرزات الثلج ،
ورائحةِ الغاباتِ
أراها قُربَ البابِ
تُثبّتُ فى الفستان الوردةَ ،
تحكى عن ذكَر النحلِ المستغرق فى غَفْوتِهِ
يمنح أطفالا للملكةِ ثم يذوبُ
وتقعد فى الشُّباك تفُك ضفيرتَها
تُمسك أعواماً سابحةً فى الأفق ،
وشَعرا مُبيضًّا فى المرآةِ ،
وتوقظ ناراً تحت المقعدِ
من يعرف نورا . ؟
أنت الرامحُ خلف غيوم العطرِ . ؟
أم الغجرىُّ الراقصُ فى الصحراء ،
أم العصفورُ على حَجَراتِ الشرفةِ يبكى . .
كى يتلوّن خشبُ الباب ،
فيطفو زغبٌ يكسوهُ ؟
أراها بين شموس الماء تُعمِّد طفلاً
تقرأ سُورتَها للطير
تُخبئ فى زاويةِ المَفْرَش وجعاً
وتنادى . . حين يُدحرِجُ ليلُ الثلج مواسمَهُ
تتذكر سفنَ النارِ
دماً مسكوناً بعصافير الدمعِ
وربحاً هامدةً

كُنا متروكين . . . ،
أنا فى الغيم أثرثر عن صحرائى
أجعل نفسى ملِكاً
حين يُلَوِّحُ من عينىَّ السُّكْرُ
فأنسف قلب الظلمةِ
أهتف طُوبى للفقراءِ ،
وطوبى للبسطاءِ
وأرقص خلف زجاج المقهى
. . وهى تثرثر عن نجمتها
تَتَلوّى ضحِكا حين ترانى فى الخِرَق الملكيّةِ ،
أمسكُ حبلَ الكونِ ،

وكنا مُشْتاقين إلى زوبعةٍ
من يعرفِ نورا . . ؟
هذا المتلَفْلفُ بعباءتِه ؟
أم أنت النائمْ فى ورق الحيطانِ ،
أراها . . .

تحفر فى صحراء الغرفه
تضحك حين أثرثر عن أقمار الزيت ،
وحين أهُزّ جذوعاً مضغتها الريحُ
وتضحك . . .
حين أشد البحرَ إلى نافذتى .

القاهرة : محمد سليمان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكنهم قتلوني

فوزي خضر

لم أمُتْ . . لكنهمْ
قتلوني .
فاسكبيني قصةً مبتورةً في كأسكِ الأولى ، ظميئاً منذ ثدي الأمِّ ،
منفياً ، جرّعْتُ الدربَ قفزاً ، خلفيَ السوطُ ، احتملتُ السقطةَ
الأولى ، حصادَ النارِ ، أزهارَ الفجيعه
حاملاً جمجمتي كأساً بها البلدانُ والأوطانُ ، أستفتي عيوني
والدجى يرجمني ، أعدو ، أثيرُ الأرضَ والأشجارَ ، تعدو خلفيَ الشمسُ
الذبيحة
فدعيني أسند الخدَّ على نهدكِ في هذا المساء
لم أمُتْ . . . لكنهم
قتلوني .
كنتُ أشتدُّ على نصلِ الليالي السُّودِ ، يدعوني بكاءُ العدلِ ،
تسخو بي على الأزمانِ كفُّ الفجر ، قبلَ الآن ما كنتُ الشظايا واحتراقَ
الفحمِ ، ما كنتُ انقطاعَ الحبلِ ، كنتُ العشقَ والصبحَ المُعافى . . واختراق
النارِ والريحِ ، الجبالِ ، الموجِ ، كنتُ الماءَ كأساً في يد الأطفالِ ، دمعاً في
عيونِ الحزنِ رِياً ، فيضآناً . . .
من تُرَى يسكبني الآن في كأسكِ قطره ؟
من تُرَى يشهدُ أني . .
لم أمت . . . لكنهم
قتلوني .

كُنت ظمآنَ لميلادى ،
قوياً كانفجارِ البحرِ ،
معشوقاً عميقاً
أرتدى غَضْبَةَ ثارٍ ، أحتوى جيشاً من السلوى ، قرىً تمتدُّ
فى زندىَّ عيداناً ، نبوءات حصادٍ ، صرخةً مطْلَقَة عبر شرايينى
تداوينى . . أهبُّ الخطوةَ الأولى ، سماءً من مواعيدَ لأعيادٍ ستأتى
فجأةً . . انقضَّ سيفاً . . أتداوى صائماً . . لكننى أسرِى سراجاً عاشقاً ،
أعلو وأهوى فى محيطِ الدندنه
دِنْ . . دِدِنْ . . دِنْ
دِنْ . . دِدِنْ

وأغنّى ، صاعداً كالريح ، نشواناً ، شهيًّا ، طازَجاً ، عيداً جديداً . .
هابطاً كالماءِ فى الشلالِ ، قَفْزاً : أُبْدِلُ الأغصانَ بالأغصانِ عصفوراً
عريساً ، أمنحُ الكأسَ صحَابَ الليلِ . . والأوتارَ أعطيها انتباهَ القلب ،
أنشقُّ رغيفاً طيّباً ، ألتمُّ حرفاً داعياً حرفاً لكى يولدَ عيدُ الكلمة
ثم يُعْثرُ . .

وفتحتُ عيونى :
لم أجد منّى الذى كُنت عَهِدْتُ
لم أمت . . . لكنهم
قتلونى . .
فامنحينى صدرَكِ المرتجَّ . . .
إن الموجَ عاتٍ . .
والأغانى ليس تُجْدِى فى انتحارِ السنبلة .

ساعةٌ : والشمسُ تنشقُّ إلى نصفينْ فى رأسى ، وتَحْنُّ الأرضُ :
(يغدو العشبُ ناقاتٍ . . وتعدو فى الفضا الأشجارُ ، تَرْمى بجنيها
فى الصحارى . . يتمطّى فى العيونِ الدربُ ، يلتفُّ على نحرِى . . يغيضُ
الثدىُ بئرا)
أتَشافَى باشتعالِ العقلِ أزهاراً من النيرانِ ، تنشقُّ التواريخُ
مواعيدَ لرأسٍ . . (كلما نامت) . . يجىءْ
فاصهرينى باحتراقِ الصمتِ فى العمرِ الصدىءْ
إبعثينى زهرةً للماءِ ، حرفاً فى قصيدة
عانقينى فى شتاءِ الحُلْم . . وامتدّى فصولَ الماء : كُونى قطرةَ
السلوى . . وكأسَ العشقِ . . والنهرَ الذى ليس يجفْ

يابسّ زهرُ الحقيقة . .
فى عيونِ الصمتِ ، لا تحترقى أنتِ ، تعالىْ دفقة ، لا تحترقى
لم أُخنْ خطوِى . . وعشقى
فدعينى أغسل النهدين من ماءِ عيونى
لم أمت . . . لكنهمْ
قتلونى .

الاسكندرية : فوزى محمد خضر

ص

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نجوم الكتابة

بدوى راضى

(١)

مكاتب . .

. . والنجومُ رحيلٌ إلى النُّقطِ . .

. . شرخٌ بعرض اغتصاب الأبوّة ـ فى وَضَحِ الحب والخوفِ ـ

. . سفحٌ لأطلال عرشِ التوازنِ

هل يرحل القلبُ والليلُ يوشكْ . .

يا أيها النيل رفقا بطميكْ .

صلاتى على ضفتيك عيون من الحب فاضتْ

فَرَفَّ على الروح طيرُ التواصلِ . .

. . كادت تحلقّ أفراخه فى السماء التى أُشربت عشقها

. . تصون النخيل الذى راهنت بالحياة على رغبة البعث فيهِ

تَهَادَتْهُ باتساع الرمال ، وأوصت به الغيمَ . .

داعبها الحلمُ ـ فأهدت له بوادرَ فيضكِ . .

شرب البحر حُلمَهَا ، نضح الملحَ ، دعاهَا . .

فتأبّت ونظّرتك وعادتْ . .

. . تتمناك عشاً بحجم العصافيرِ

حين تنام تسبّح باسمِكْ . .

(٢)

مكاتَبٌ . . والنجومُ حصارٌ من الزُّيْفِ . .
وجهٌ تدحرج فوق الزجاج الذى أتخمته صُكوكُ الولاياتِ
عينٌ جَثَتْ فى انعطاف النعال ، وهادنت السُّارقى الكحل مِ العينْ
كهلٌ يعاقر فى الكأس فضلَ النفايات . . يسكرُ . .
يُقْرَع نخبُ ملوك الإتاوات . . يشعرُ بالنِّير مازالَ
ومازال نجم الكتابة صعباً . . فيهذى . .
. . عن العتق ، ، عن ثورةٍ فى ضمير الرقيقْ
وعمَّن يُؤذِّن للفجر ، يستيقظُ النائمون على الضَّيْمِ
عمَّن يَؤمّ المصلينَ
عن فارسٍ يمتطى حزنَه السرمدىَّ . .
. . يُصحِّح بالسيف فِقهَ القبائلْ
يقود خُطَى الفاتحين ــ الرجاءَ . .
. . ويستلهم الفاتحين الأوائلْ
وحين يُجَرِّمُهُ الصدأُ العَقَرِىُّ . . وَتُغْتَالُ رُؤْيَاه بالقيدِ
يصحو . .
يُفسِّر أوجاعه بالتصالُحِ بين الفواصلْ . .
تُرَى يستبيحكَ فوق فراش الغوايات
. . والمنع يَهْمِزُ شَوْقَ الخيولِ . .
. . وما من رحيلٍ عن الحب . .
يا أيُّها النيل رفقاً بصَبِّكَ . .

القاهرة : بدوى السعيد راضى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

قتيل.. وأثناء..
وبعد الاستسلام إلى أوركسترا الجراحين

فؤاد بدوى

لا تسألنى مَنْ ترسم دقّاتِ القلب المستعجل عن عمرى
لكنْ تُثبت . فى مكتوب للجراحين المنتظرين ـ بأن القلب المجهد
(إحباطات ذاتية ـ أحزان أُسْرية ـ ميزان العدل المائل ـ قلب فلسطين المغتال ـ
الأمل المتوحش فى لبنان ـ صدام وآيات الله ـ الجوع بعالمنا .
الجند المسكوفيون بأفغانستان .. وشوائب رومانتيكية)
يحتمل هموم التخدير ..

ـ ٢ ـ

تتساءل حسناءُ واقفة بالباب العازل عن كثبى
يُفشى مَنْ يصحبنى (عُريانَ القدمين) إلى الجرّاحين بِسرّى .

ـ ٣ ـ

أخرُجُ من صخب العالم ، أدخل فى كدَرِ العالمْ
تستقبلنى نظراتٌ عارفة أمرى
تستقبلنى نظرات استفسارْ
تستقبلنى المائدةُ الممدودة .. تسمع أنات الأبدان وهلوسة المخدورين
يسألنى أستاذ التخدير ـ بخبث ـ عن عملى
أعلن أنى أحترف الحزن على هذا الكون
يتاكد من لَوْثة عقلى
أبصر أقنعةً زرقاءَ ـ ونظّاراتٍ .. سقفا أبيضْ

ـ ٤ ـ

هوْناً هونا تنسحب رسومُ الأشياءْ
يتقهقر فى سمعى إيقاع اليوم
هونا هونا أسبح فى ذرات فضاء
هونا هونا أدخل فى جُبِّ النوم
يبدأ سَرَيان شريط الحُلْم
الدَّمْ
تخرج من صدرى نافورة أحزانْ
تنبثق . . تلوِّث كل الأركان
تصبغ بدنى
جلبابى كان بلون الفُلّ
مصبوغا باللون الأحمر والضِّيق
أغرق . . أطفو . . أغرق . . وأفيق

ـ ٦ ـ

من أين تجىء سهام البرد الثلجىّ إلى هذا الصندوق ؟
من أى كهوف الرعب تهب التيارات ؟
من يحمينى من برد الوحدة والضوضاء ؟
من يهدى حلقى قطرة ماء واحدة . . قطرة ماء ؟

ـ ٧ ـ

فى الدار أرى الأشياء المنتزعة من بدنى
هذا كيسٌ منزوع من يدك اليسرى
هذا كيس منزوع من صدرك
ألقى بالأشياء المنزوعة فى صندوق قمامة

ـ ٨ ـ

فى الليل يُسِرّ القلب المجهد : هذا قدرى
وأردّ على قلبى : . هذا قدرك
فتكتُمْ أمرك !

القاهرة : فؤاد بدوى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثلاثية العاشق

عبد المنعم رمضان

الحالات

١ ـ

أيهذا البلدُ الشاسعُ
مثل الأحجيهْ
ألقى فى يمِّ نفسى
واستردُّ الأغنيهْ
هكذا كنتُ أبوحُ الليلَ
أعطى غيبتى صوتاً جديداً
وأصلّى للوطاويط
التى تصدحُ فى رأسى
وأعلو فوق هاماتِ طيورى
هكذا كنتُ أمشّى النَّفَسَ القابعَ
فى صدرى
وأعطيه مداراً
من رياحين فتورى
وأمشّى رغبتى فى أنْ أكونَ الملكَ المفْرَدَ
أعلو
حيث يعلو العصبةُ الفُتّاكُ
أدنو
حيث يدنو الطيّبونْ
هكذا كنتُ أخونْ
وإذا جاءت غيومُ الشوقِ
بالومضةِ
أمشى
خالعاً خطوى على الأشياءِ
نعلٍ طيّعٍ
والأغنيات الهوجُ تمشى
مثلما تمشى الظنونْ
كان فَرْجُ البابِ
لا يسمح للنورِ بأن يأنسَ
للأشياءِ
أن يعطيها قِسْماً من الألفةِ
أن يضفى عليها ألقَ المعرفةِ الأولى
وهذا البلدُ الشاسعُ
مثل الأحجيهْ
يكتفى مثل بماءِ الأغنيهْ

٢ ـ

وهاأنذا
وكنتُ ابتعتُ أياماً بأيامٍ
رهنتُ الليلَ للمصباحِ
والعتمةِ

والحجُراتِ
كانت حجّتى أن آكلَ الموت
وأن أستأنفَ الإبلاغَ عن جسدى
بأنى هالكٌ بالغيمِ
أنى حجرٌ ملقىً
وإنْ حرّرتُ أعضائى
سيسّاقطن فى جُبّ
ولن يبتاعنى أحدٌ
رهنتُ بقيّة الأفلاكِ
كانت خطوتى تعلو على جسدى
وكنتُ أشبُ
كى أشهدَ هذا الأفقَ
هذا البلدَ الشاسعَ
ألقى مثلَه فى اليمّ
كنتُ أحاولُ الإنشادَ

من زمنٍ
ساعثرُ فى سهولِ دمى
على فرعٍ يرفرفُ فوقه غصنانِ
أجلسُ تحتَه وحدى
لعلّ ذاتَ حلم أبتغى أحداً
يميلُ إلىّ
يحملُنى
ويرفعُنى إلى غصنٍ
ويأنسُ لى
ويجعلُ خاتمى حبلين فى صوتى
وفيضاً من غناءٍ ساذجٍ
يمشى على الجدرانِ
يهدمُها
ويهدأ بعد أن يختطُّ فى صدرى
خيوطَ السر

الأغانى الساذجة

١ ــ

لو أنّها الفاكهةُ
التى تنامُ خلفَ الفمْ
لو أنّه اللّوتسُ
لجئتُ خاشعاً أحملُ كلَّ الكعكْ
وأحملُ الطيورَ
أحملُ الأسماكْ
وأختفى وراءَ ثوبِكِ الكتّانْ
وأطردُ الأوزَّ فى محبةٍ
وأطردُ الغيومْ
لكى يكونَ كلُّ جسدى
وراءَ كلِّ جسدِكْ
وكى تكونَ الأرضُ مثلَ بيضةِ الحمامْ
تنامُ فوقها
وفى الصباحِ
نغتسلْ

٢ ــ

متى تكلّمينى
متى تصفّفين شعرَكِ الأسودَ لى
متى يكون ليلُنا
حرّاً كغوصِ النهرِ
متى يزفّنى تفاحُكِ الناضجُ
كى أطفو على الفراشْ
وأنتِ مثل الخرزِ الملوّنِ الجميلْ
تزيّنين عرقى
وتفرحين بالمنجلِ
والمذراةِ
تفرحين بى

٣ ــ

أظنُّه الكاهنَ من بريدنا
أخشى وفاءَ النهرْ
يقولُ لى الكاهنُ : خذْ ذراعَها
وحوطَ الكتفْ
لكننى أخشى انسيابَ الرّدفْ !
يقولُ لى الكاهنُ :
هل تضمُّها إليكْ ؟
لكننى أخشى حرارةَ السرورْ !
يقولُ لى الكاهنُ

بُحْ بما ترى
فأعشق الكلامْ !

ـ ٤

لعلّه النخيلْ
لعلّه القِطافْ
لعلّها رائحةُ الأطرافْ
لعلّه هبوطُ العُنقِ الطويلْ
في حِجْرِ عاشقِكْ

ـ ٥

أوقفْ علىّ الماءْ
أوقفْ عليها دهشةَ الحِنّاءْ
أوقفْ عليها الكُحلْ
وافتحْ لها الفضاءْ
لكي يصيرَ غيمةً
تمطرُ
حيثُ أنتظر

ـ ٦

ومن أنا ؟
وما الذى أعملُه ؟
الحارسُ الليلىُّ تحت شُرْفَتِكْ
يكفى سعادتى أن تغضبى علىّ
وتدخلى
بصوتِكِ الضعيف أذنْ

ـ ٧

كِدْنا نغيبُ تحتَ هذِهِ السُّحبْ
كدنا نلفُّ إصبعاً بإصبعْ
كدنا نُديرُ حولَ بعضنا
تمائمَ البهاء والفتورْ
ونستحى من أنْ يكونَ الحرَسُ الواقفُ حولنا
عائلةً من القَصَبْ
وكومةً من السرورْ

ـ ٨

النيلُ بيتُ الربِّ
والتمساحُ
باسطٌ رجليه بالوصيدْ
وأنت تفردين جسمَكِ الأبيض عند الشط
هل أجسُرُ الآن على الإفلاتِ من عينيكِ
هل أخونُ رغبةَ الجلوسِ جانبك
الماءُ ـ مرّةً واحدةً ـ يصيرُ كالأفراسْ
أعبرُ هادئاً
ويلبسُ التمساحُ ـ مرةً واحدةً ـ خواتمَ النعاسْ
أعبرُ هادئاً .
حتى إذا أسندتُ رجلىَّ على الترابْ
وجدتُ شعرك النائم والغريب
علامةً
لا تشبه الوحشةَ والإيناسْ
وتشبهُ الأخدودْ

ـ ٩

وربّما نكونُ لوزتين
وربّما لا نعرفُ الإنضاجْ
لكننا نفرشُ فوق اليأسْ
غمامةً
تكفى لكى نمرّ
ونبدأ الهياجْ

ـ ١٠

كان اسمُ ساقيكِ الغزالتين
كان اسمُ حوضكِ الظلامْ
كان اسمُ ثدييكِ ارتعاشةُ اليمامْ
كان اسمُ فمكِ الفضاءْ
كان اسمُ جسمى
خيمةَ الصحراءْ

ـ ١١

خذى من الحقولِ
ثوبَكِ الكتّانْ
خذى من العناقِ
ثوبكِ الحريرْ
ولا تبوحى باسمِهِ
لأنه يشفُّ بالكتمانْ
وربما يطيرْ
يغطسُ فى رائحةِ الألوانْ
أمشيرُ لونُ الفمْ
طوبةُ لونُ الجسدِ المصهورْ
هاتورُ لونُ الشفةِ السفلى
ولونُ الطمى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كيهكُ لونُ العاشقِ الواقفِ عند السورْ
يخطفُ ريشتين
من حديقة السماءْ
ويرسمُ الأعضاءْ

العاشق

« مقطع نثرى »

ربما كان لنا جدٌّ واحدٌ ، ولداه افترعا فرعين فى جوفِ النيلِ ، واشتُقَّ اسمى من اسمك ، واشتُقَّ اسمُكِ من اسمى ، وتلازمَ صوتانا ، حتى أوشكتُ أراكِ تلبسين ثوبكِ الكتّان فى أحيال صوتى ، وتخلعين جوربَكِ فى الحوضِ ، حتى أوشكتُ أهشُكِ مثل أختى ، وأضمُّكِ مثل كتابِ الحكمة .

ربما كانت لنا خيمةٌ واحدةٌ ، قرأ فيها أسلافُنا البرديات ، واقتسموا مثل الخبزِ مفردات اللغةِ القبطيةِ ثم صاروا يحفظون ابن عروس ، وينهجون نَهْجَ البردةِ ويغنّون مواويلَ الليل ومواويلَ العين ، وأنا ألبسُ الجلبات حينَ أكون وحيداً ، وأنت لا تلبسين سوى جلدكِ الأبيض الناعمِ والمحبوكِ على كتفيكِ وفخديكِ ومركز جسمكِ ، تقشّرين الليلَ بأظافركِ فيغدو الليلُ حليفاً ، ولا ترتاحين إلا على كرسىٍّ من الخوصِ ، وتحت رجليكِ حصيرٌ ، وفوق رأسك مصباحٌ يشبهُ أكرةَ البابِ لا يضىء إلا للداخلين .

ربما كانت لنا عائلةٌ واحدةٌ ، ليس بينها المشّاءون وليست بينها شجرةُ التوتِ ومستعمراتُ الوردِ والريح ، عائلةٌ من سلاسلِ أوديةٍ ومنازل طينٍ ، حيث العلّيقُ يرتجفُ وأخشابُ السقفِ تمنعُ النجومَ عن المثولِ بين أيدينا ، وعندما تتعبُ تنامُ خلف جذعِ نخلةٍ ، وتهربُ وراء القطعانِ فى الصباحِ ، حاملةً أشهى المأكولات : التمرَ وعصيدةَ الحلمِ ، وفى الصباحِ أيضاً ، ترفعين عن عينيكِ وسخَ النعاسِ ، وتنظرين حواليك ، يكون الناسُ جميعاً مشغولين بأعمالِ الناسِ جميعاً ، وأكونُ أنا كاللصِّ أخمّنُ كيفَ أقيسُ شعركِ ، بذراعى ، أم بالمسافة بين عنقى وعضوى ، أم بحبلٍ أستعيرُه ثمّ أجلدُكِ ، وأصرخ فى المحين : امرأةٌ جميلةٌ تساوى الشجر كلّه ، امرأةٌ جميلةٌ تجمعُ حول أصابعها الفهمَ وسوءَ الفهمِ ، امرأة جميلة تعنى أننا لا نسير فى الاتجاهِ الخاطىء ، ولا نسيرُ فى الاتجاه الصحيحِ ، نمشى وفق إرادةِ المشى ونعتل صخرةً ، إما أن تقلعنا الريحُ ، وإما أن نزرعنا ، ونحمل عنّا حبوبَ اللقاحِ ، فتصبح أنا شيدَ خرافيةً ، ونصبح نحن كائنين اثنين ، كائناً واحداً ، كلّ الكائنات على الأرضِ ، نصبحُ حقلاً للأمشاجِ . ولا تغوينا غير لحظة العشق ، حين تصير البلادُ آمنةً ، والحرّاس نائمين ، وشجرة وحيدةٌ تقف بيننا هى شجرة النسلِ ، نحضنها فتعوى ، ونتركها فتعوى ، امرأةٌ جميلةٌ تعنى ساعدين صغيرين ، وفماً صغيراً ، وعينين تشبهان البلدانَ الخفيّةَ ، وقميصاً من التيلِ يقبعُ كالجندىّ إلا حين يبتلّ فهو يحلمُ ، أين المصابيحُ ، أين الحقولُ البعيدةُ ؟ لا أحدَ يسألنى : مالعمل ؟ سأخلع جلدى وأكوّمُه فى الركنِ الشائعِ من أنفاسى ، مع الأيام الطويلةِ كالفطرياتِ والطحالبِ ، ومع غاباتِ التفتا والدانتلا ، وسلالِ الحناءِ وورق البردى ، ثم أخرجُ للناسِ مرّحاً كالفرحين ، وفى الطريقِ إلى الجسرِ أرتّلُ البردياتِ واللغةَ القبطية وابن عروسٍ وأخضعُ جسمى للخلودِ والتهلكةِ ، أنا القاتلُ الجبانُ .

ربما كانت لنا طريقٌ واحدةٌ ، تهشّمُ الظلَّ حين ينفردُ بنفسِه ، وتبنى على القارعة

أعشاشاً ، تحبسُ فيها العادىُّ والسارجَ ، أما المارقُ فيلتفُّ حول أرجلنا ، يعْلَقُ في الشوكِ والحجارةِ ، عَكِراً مثلَ مياهِ البحيرات ، ضعيفاً مثل حبِّ التوتِ ، والفتياتُ الأخرياتُ لا يملأن جرّةً واحدةً ، ولا يغسلن أطرافهنَّ ، عند مرورِك مصادفةً يكتفين بالنظرِ وإشباعِ العين ، الثديان ليسا رجراجين لكنهما هكذا ، امرأةٌ جميلةٌ تعنى أنني أزمعتُ لو أسيّجُ البيتَ بورقِ الصفصافِ ، وأقتصُّ لذقٍ مثل حاقدٍ ، وأزمعتُ لو أقشرُ الوردةَ والموتَ الذى يكون مثل النطفةِ ، وأزمعتُ لو أهيّجُ الملاكَ الفاسدَ الوديعَ ، أمشى خلفَه فى الغابةِ ، وعلى أكتافِ الرجالِ البالغين ، أنصّبُ نفسى ملكاً ، وحين ترينى ، أزيّن رأسَكِ بخصلةٍ من شعرِ أمي وأهتفُ فى المحيين هذى رأسُ الملكةِ ، وأزيّنُ جسمكِ بالمناخِ الرقيق ورذاذِ فمى وأهتفُ فى المحيين هذا جسمُ الملكةِ ، وأزيّن قدميك بالبخور والترابِ والطين والأعشابِ الطريّةِ وأهتفُ فى المحيين هذى قدمُ الملكةِ ثم أنصرفُ إلى عرشى حيث أكون وحيداً .

القاهرة : عبد المنعم رمضان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذات نهار أمشيرى

أحمد محمود مبارك

رأيتُهُ . ،
والغيمُ يخنق النهارْ
يرنو من الزجاجْ
مَحَصَّناً بالدارْ
كفّاه فوق مقبض الرتاجْ
وصدرهُ الذى بانت عليه بصمةُ الزمنْ
وضيَّقَتْ فيهِ منافذَ الشهيقِ والزفيرْ
يهربُ من أمشيرْ
وراءَ معطفٍ ثقيلْ
إذ الغبارْ
قد لوّن الهواءَ والبيوتَ والشجرْ
بصفرةِ السُّقامِ والضجرْ
ولم تزل تلك الرياحُ الهائجهْ
تُفَزِّعُ النوافذَ المثلّجهْ
بالعصفِ والعويلْ

عيناه راحتا ــ برغم طائر الوهَنْ
ذاك الذى منذ سنين فيهما اسْتَقَرْ
تغالبان سطوةَ الغَبَشْ
ووجههُ الذى انكمشْ
وجفٌ فى عروقهِ الرحيقْ
ــ يجول فى الطريقْ
فقلتُ :
إنه السأمْ
قد بثّهُ السريرْ
فَمَلّ ــ مثلى ــ من فراشهِ الضريرْ
وعدتُ كى أُحايلَ القلمْ
لعلّهُ يبثُّ فى خَواءِ أسطرِ الورقْ
ما دَوَّنَتْهُ فى مشاعرى الرياحُ والغبارُ والمطرْ
وانهالتِ الحروفُ والصورْ
وفجأةً . ،
سمعتُ صوتاً ينطلقْ
فقمتُ كى أستطلعَ الخبرْ
لطفك يا إلهْ
صوتٌ يصيحُ ينشد النجاهْ
تَجَمَّدَتْ مفاصلى . ،
ورغم ذاكْ
جاهدتُ كى أواربَ الشبّاكْ ؛
صرختُ من خلف حصونى ؛
بعيونى الحائرهْ

إذ لاح لى ؛
فى شرفةٍ مجاورهْ
فتىً يتابع الصياحَ مُمْسِكاً بِكَتْفَ فتاهْ
وعندما واجهنى بنظرةٍ مُسْتَهْتِرَهْ
أسرعتُ كى أديرَ قرصَ هاتفى ؛
وأبلغَ الإنقاذَ عن سقوطِ طابقٍ ؛
وعدتُ للطريقِ والنوافذ المحيطهْ
أطمئن النساء : ــ
لا تفزعنَ . إننى اتَّصَلْتُ . .
لا شىءَ غير جانبٍ هوى . . « بسيطهْ » !
وحينما أردتُ أن أطمئنَ العجوزَ ؛
لم أجِدْهُ واقفاً بشرفتِهْ
فقلتُ : ــ
إنه الوجَلْ
أعادهُ لحجرتِهْ
هنيهة وشقَّ سِترَ اليأسِ بارقُ الأملْ
لما بدا مَنْ هَبَّ لا يخشى الخطرْ
وغاص فى الأنقاض والزجاج والحجرْ
دققتُ كى أرى ملامحَ البطلْ
فباغتتنى سحنةُ العجوزِ وهْو يرفع الركامْ
ثم يقومُ حاملاً غلامْ
وصدرُهُ النحيفْ
ضمادةٌ فوقَ الجراحِ والتوَيْفْ
حينئذٍ ؛
شعرتُ بالخجلْ
يلفُنى ؛
وراح يدفع الأصابعَ البليدهْ
لكى تُمزِّق القصيدهْ

الاسكندرية : أحمد محمود مبارك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تداخلات تحت جناح الوَردة

سامى عبد القوى على

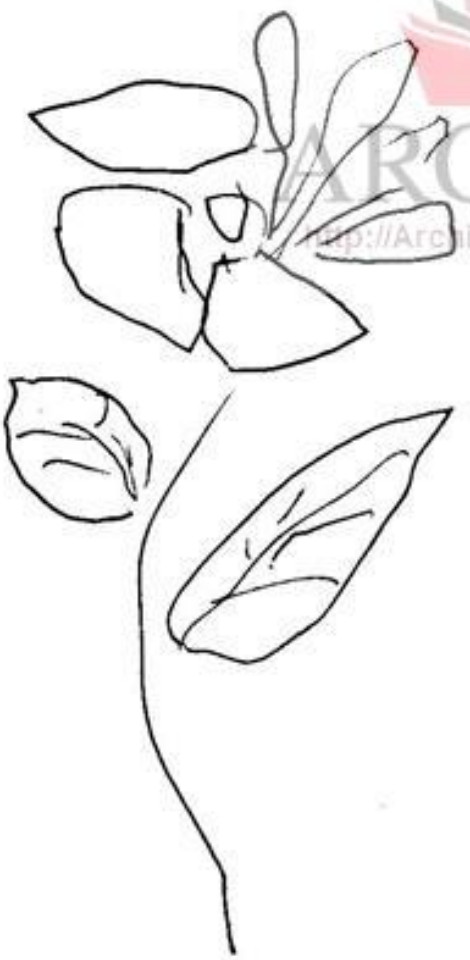

١ -

لا تبتعدى .
فالحلمُ امتدَّ على عينيكِ ، تشكّلْ
وأعاد تقاطيعَ الشجر على وجهكِ ،
وانطلق العُرسْ .
ياسيّدة اللؤلؤ ، والأرض المنقوشة خرزا
الشمس انقسمت فوق الأرضْ
وانفتحت غابات التاريخْ ،
واصطفت أشجار الياقوت على بواباتك شارةْ
والزمن ارتدَّ على النهرِ ،
الصوت انعتقَ ، ودخلَ الجنّةَ ،
وصلَّى في العينينْ .
وأنا مازِلْتُ الطالع من بين عروقكِ ،
نجماً لا يأكله الليلْ .
البحرُ تداخَل فىّ ،
الجُزر امتدّتْ ،
وانتحرت عند جناحيك الوردةْ .
آهٍ
لو أن الأرض امتدت ، والزمنَ تراجعْ
تدخلنى الرغبةُ ، والأغنيةُ ، فأنزفُ شعراً

اتهجّاكِ طيوراً تخرج من عينيكِ وتغسل وجه النهرْ .
فاللحظَةُ تنسج زمناً للغرباءْ .
حيث تكون النارُ علامةْ ،
والخطوةُ أرضاً لا تأكلها أيُّ مسافةْ ،
تتحاور كلُ بلادِ الحزنِ ،
وتفتح باباً لفراشاتِ مساءْ .

- ٢

الجرحُ خريطة هذا القلبْ .
والوردة لم تفصح عن موطنها بعدْ .
والجوعُ عيونٌ حبلَى برغيف الشمسْ
من يقرأ فى الليلِ تواريخَ الأشجارْ !!
أدخل فى ظل الماءِ وأوقظْ هذا المرجانَ النائمَ ،
والبحرُ يحاصر أوردتى .
ينفتحُ الشارع فى قلبى
تخرج منى كل خلايا التلقيح وتصنع زهرةْ .
وعصافيرِ الماء تسافر فى البرق كشحنةْ
تصنع بيتاً للشمسِ ،
ونافورةِ عشقٍ تتدلىُ من زمنٍ لا تعرفه الساعاتْ
أغلقتُ الجسدَ على أهدابكِ قوساً من ألوان قزحْ
ودخلتُ حقول اللؤلؤ أختبىء بوجهكِ ،
حين الأرحامُ انتفختْ بالريحِ ،
وصارت حبلى بالموتْ .

- ٣

الفقر امرأةٌ يدخلها الفقراءُ بلا أغطيةٍ أو خبزْ .
والليلُ رمادٌ فوق ملامحنا
لا تطفئ وجهكَ حين تغيب الشمسُ ،
وحين تصير الدائرة زوايا ،
لا تدخلْ زاويةً ،
وادخلْ فى الجرحْ .
من يعبر بالمركز يلقَ الضوءَ ،
ويدخل فى دائرة الأشجارْ ،
هذا وجه يسكن فيه الشوقُ ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتكتمل الوردةِ فيه ،
وتصبح أزمنةً لا يدخلها إلا العشقُ ،
ويخرج منها الأبدُ عناقيدَ عنبْ ،
تنفرط على عينيكِ سنابل قمح .
ماذا يعطينا الماء إذا صار جليداً تحرثه الغربةْ ؟
لا تفتحْ وجهكَ مثل زجاجهْ
وافتح في الزمن طريقاً للزهرهْ ،
فالثمرةُ ثمره ،
والحلم بنفسجةُ العالم ،
حين يضاجعَ لغةَ الجرحْ .

٤ -

ياوطنَ الرملْ ،
ها نحن نجيء ونفتح بوابات العشق الخضراءْ .
ياوطناً ما عاد رغيفاً يأكله الفقراءُ ،
وما عاد لمريم جِذْعاً .
فالأرض تخلت عن زيتها كي تلد الثورةَ بكرا ،
تخرجُ منكَ وتدخل فيكِ ،
فتكتمل على أذرعة الأشجارْ .
يتساقط من جمجمتي الشعر ،
فأنزع قشرةَ هذا الزمنِ ، واحتضنِ الأرضَ وسادهْ .
أنتَ الطلقةُ تنبت ناراً ،
والنار تطالع كل الأشياءْ ،
فاخلع نعليكَ وسافرْ في الجرحْ .
من مات على عشب الكلمة ينبت نخلاً
يخضرُّ ويُسقطُ رُطباً
في زمنٍ تطفو فيه الأحجارُ ،
ويستشهد فوق الأحزان القمحْ .

٥ -

يدخلني الجرحُ ،
فأدخل تحت الجرح وأنزفْ .
مَنْ يستشهد في غابات المجدْ ،
ومَن يفتح في النار مدينهْ ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى زمنِ الملح وعشب الحنطةِ .
من ينقش فى القلب سحابهْ
واليابس لم يخضرّ بقلب الفقراءْ !!

ياسفنَ الجوعِ ، النهرُ امتدّ ،
الصوتُ انعتقْ
وصلْ . . .
وأنا مازلت الطالعَ ، . .
أسقطُ من فوق شظايا البللّورِ ،
فأنجرحُ ،
وأصنع من جرحى ماءً للنيلِ ،
وأناشيداً للبحرِ ،
وحقلاً للحنّاءْ .

٦ -

وطنى
كالعرس الطالع من وجه الأرضْ
يتزخرفُ ،
وترابُ الليل على عينيه .
ومدارات الحزن فصولٌ وخليجٌ وتواريخْ
ياوطناً
فيه الموجُ انغرس على الشاطئْ
لم يقبل ظاهرة المد أو الجزرْ .

السويس : سامى عبد القوى على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

بطاقة إلى وجهٍ أعرفه جيّدًا

على محمود عبيد

عَرفْتُكَ فى انهمارِ الضَّوْءِ شلالاً تدفق فى أديم
الْعُمْرِ . . شَقَّ لَفَائِفَ الْكَتَانِ مُخْتَرِزاً جِرَابَ الْخُبْزَةِ المعْنَى
مُعَنًّى عِشْتَ

لى وَجْهاً صَحَا مِنْ حُلْمِهِ الرِّيفِىِّ مُغْتَالاً بِرُمْحِ خَمَائِرِ
الأَسْفَلْتِ فانكفأت شَقَاوَةُ شَقْشَقَاتِ الطفل ،
فانْقَطَعَا .

مُعَنًّى عِشْتَ لِى صَمْتاً تَحَدَّى صَفْعَةَ الإشْفَاقِ ، شَفَّ
الوَجْدُ ضوءَ مَدْخَلَ المِينَاءِ لِلسُّفُنِ الَّتِى تَرْسُو ،
وتُقْلِعُ فى انْحِسارِ المَدِّ نَطْوَافاً إلى أَعْلاَ . . فَأَزْعَقُ
من عُرُوقِ الصَّدْغِ أَنْ رُدُّوا عَلَى مَنْ جَاءَ مَوْشُوماً
بِن الصَّدْغَيْنِ . شُدَّ فَمِى لِثَدْىِ الأَرْضِ مِدَاحاً تَجَذَّرَ
فِى سَرِيرِ الْوَجْدِ ، ضَخَّ دَمِى ، تَمَطَّى فِى ضُلُوعِ الْكَوْنِ . .
فَاضْ .

فَامْتَلأَتْ جِرَارُ الْعُمْرِ بِاللَّقْيَا
فَنَحْيَا رَوْعَةَ الإشْرَاقِ . . .
عَرِفْتُكَ فى انْكِسَارِ الضَّوْءِ مَصْلُوباً عَلَى الأَحْدَاقِ ،
تُوَائِم بين جِرْزَىْ أَنْتْ ،
فَأَنْتَ تَوَدُّ لَوْتَرْقَى الْبِحَارَ النَّارَ جَوّاباً فِجَاجَ الأَرْضِ
تُلْهِبُ مَاءَهَا الذَّهَبِىْ ،
وَبَيْنَ تَوَدُّ لَوْ عَوْدَتْ مِنْ تَسْفَارِكَ الْمَحْظُورِ

إلاَّ الْقَيْدَ وَالْخِصْيَانَ ، وَالنِّسْرَ الَّذِى أَحْنَى فَقَارَ الظَّهْرِ . .
أَدْمَى الْكَبْدَ وَالْأَرْحَامْ

وَبَيْنَ تَطَهُّرِ الإِحْرَامِ مُؤْتَزِراً بِشَالِ جُنُونِ
الْفِطْرِىِّ مَوْلُوداً تَوَاثَبَ فِى انْفِتَاحِ الْبَحْرِ ، وَالزُّرْقَهْ
تَوَاصَلَ فِى انْدِفَاعِ الْوَجْدِ فَوْقَ الشَّاطِئِ الْعَفْوِىِّ حَتَّى كُلَّ
ـ وَلَيْسَ بِكُلٍّ ـ فَاسْتَلْقَى

أَنِيمَ لِمَسْهَسَاتِ الرِّيحِ ـ طَعْمِ مَذَاقِهَا الْمِلْحِىِّ ـ مِنْهُ تَبَلْوُرُ
الْحِكْمَهْ ـ تَخَطَّى الْبَابَ لِلأَعْرَافِ ، بَكَّ النُّورَ . . فَاضْ . .
فَامْتَلأَتْ جِرَارُ الْعُمْرِ بِالسُّقْيَا الإِلَهِيَّهْ
عَرِفْتُكَ فِى انْحِسَارِ الضَّوْءِ نَرْجِسَةً أُحَادِيَّهْ
تَغُوصُ بِغَبْشَةِ الصَّلْصَالِ ، تُشْعِلُ عُشْبَةَ الْبَارُودِ
تَنْسِفُ صَخْرَةَ الْمَرْسَى . . .
تَتُوهُ بِطِينِكَ اللَّجِّىِّ مُنْطَفِئاً
فَلَمْ تَلْقَ . الْعَطَاءَ الْعِيدَ ، والأَطْفَال

طنطا : على محمود عبيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قراءة صوفية

إبراهيم داود

إن الخوارجَ رابضونَ على الحدودِ
وأنت وحدكَ . . . . .
والنهارُ على امتدادِ النهرِ بَدءُ للوجودِ
تجودُ وحدكَ بالأنينِ
ولا تبينُ من الملامحِ غيرُ رايات النواجذ
لا حواجزَ بين صوتك والقلوبِ
تذوبُ أسرابُ النوارسِ تشتهي وطناً بكفِّكَ
لا تشقّقه البنوكُ
ولا الملوكُ ولا الغوانى
والموالى يمضغون الصمتَ
والحزنَ المورَّث . . والحنينُ إليك يبدأُ
حين تنفضُ القطاراتُ التى تأتى كثيراً
تستبيحُ ملامحَ البسطاءِ
لا وسطاءَ بين الله والفقراءِ
داءٌ ما نسميه الترقّبَ
كيف نكتبُ ؟

والمسافةُ بيننا رملٌ وذاكرةٌ وخارطةٌ مع التاريخِ ضاعتْ
أو تداعتْ أغنياتٍ من زمان العشقِ
رزقٌ ما نسمّيه البكاءَ
متى تمنّى القلبُ هدأته

وجِدُّته انتشارُ الطمى أفراحاً بأوردةِ البلادِ
ولا حدادَ على البنفسج بعد صمتكَ
كيف تتركُ عاشقيك على المقاهى
يتّقون اللهَ والشُّرْطىَّ واليومَ المؤجّلَ
هل تعجّلُ ؟
كى نُصلّى الفجرَ فينا
قبل أن يأتى الخوارجُ عشقَنا
ويمزّقون البوْحَ والفرحَ المرابضَ للوقائعْ !!

القاهرة : إبراهيم داود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أبدًا إلى الوَرْد ارتحالك

صلاح اللفاني

«إلى صلاح جاهين»

١

هذا قرارك كُلُّهُ
فمن الذى أعطى قرارك شكل أحزانى
ومن أعطاه طعم الذكريات المالحة ؟
ومن الذى أبقاك وسط حصار قلبى
مثل فُلْكٍ جانحة !
ومن الذى أعطى المدينة موجة
لتنام تحت الماء أعواما طويلةْ
ومن الذى سرق المغنى وسط حراس القبيلةْ
ومن الذى ألقى النشيد إلى الطيور الجارحة ؟

٢

هذا قرارك كُلُّهُ
عاد التراب إلى الترابْ
حُرًا ، نظيفا من بقايا الروحِ ، من قصص العذابْ
فابدأْ إلى الورد ارتحالك والشجرْ
وارحل إلى طين الإناء ، إلى بدايات المطر
ارحل إلى سَعَف النخيل ، ووسط ذرّات الضبابْ
عاد التراب إلى الترابْ !
ارحلْ إلى شمس الصباح ، إلى النجوم الزاهرة

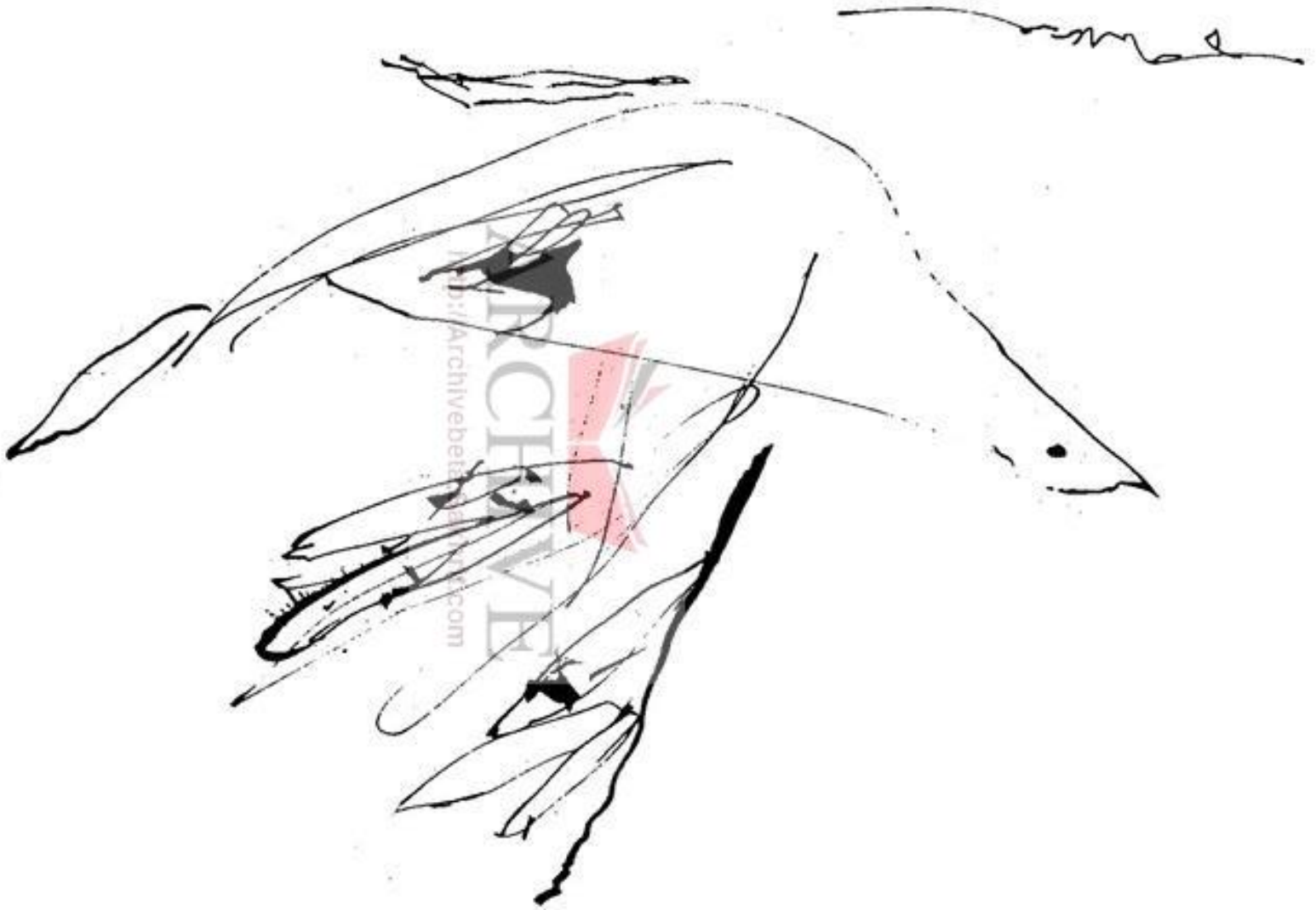

ارحل إلى ماءٍ تجمّد فى بحار الذاكرة
ارحل إلى عتبات بيت فى حوارى القاهرة
ارحل إلى دمع توقف فى عيون ساهرة
واجمع من الطرقات صوتك ، وابتسم من غير نابْ
عاد التراب إلى التراب !

ارحل من الأشجان ، من حزن حبيسْ
ارحل من الأحَد ، الثلاثاء ، الخميس
ارحل من الكون الجهير إلى خطا كونٍ هَميس
وافتح على الأحباب بابا بعد باب
عاد التراب إلى التراب !

٣

ماذا تقول النار للعُنُق المغطّى بالزُّغَبْ ؟
إن الحياة لمن غلب !
ولمن سلب
ولمن أقام عدالة السيف الموشّى بالذهب
فمَن الذى سيقيم عدل الضائعين
ومن الذى يستأنس الثعبان يستصفى اللهب ؟
ها أنت أطلقت الحمَام إلى غلال الزارعين
عاد الحمامْ
من غير حبْ
والليل يكتب قصة أخرى ،
ويبدأ غصة أخرى ،
ويصنع لاحتدام الحلم . .
ساقا من خشب .

٤

سقط الشراع على المدى ،
والموج غالبْ
يا من أتيت من الحرير ، وضعت فى حرب الكواكبْ
وتركت آنية الزهور ، وغبت فى بيت العناكبْ
لا شىء يأخذ منك صيحة نجمة أو عُمْر غيمةْ
لا شىء يأخذ منك قبضة وردةٍ
أو جَمْر كِلْمة
لا ريح تأخذ منك قلعاً للمراكبْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خمسين عاماً . . أو يزيدْ
فتشتَ عن ريحانةٍ ، فى حدِّ سيفٍ من حديدْ
وكتبتَ أغنية لأمٍّ من جليد
الشعر شاب ولم يذب ذاك الجليد
والعمر ضاع ،
وعطرك الهمجيُّ لم ينفذ
من الحدِّ الحديد .

دمنهور : صلاح اللقانى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شاعرتان صينيتان

زهنج لانج حوار مَع البحر

شوتنج بدون عنوان

ترجمة: ربيع مفتاح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زهنج لانج : بدأت أول إسهاماتها الشعرية فى ١٩٥٠ ، وقد ولدت فى «بانج ين» ١٩٣١ ، وانضمت إلى حزب العصابات لتحرير الصين ١٩٤٩ ، وكان لها إسهامات مثمرة فى «الرابطة الثقافية للعمل» واتهمت بانتسابها إلى اليمين ١٩٥٨ ، وأرسلت إلى احدى المناطق النائية . وفى ١٩٧٩ التحقت بمدرسة تابعة للمصنع الذى عملت به ، وهى الآن تعمل باتحاد الآداب والفنون بالصين ، وكان لمعاناتها فى تلك السنوات أثر عظيم على شعرها ، ويتجلى ذلك فى العمق الذى تتسم به قصائدها رغم بساطتها . . .

شوتنج : - ولدت فى «كوانزهو» بالصين ١٩٥٢ ، وتلقت فى طفولتها من جدتها لأبيها الكثير من القصائد الكلاسيكية . أما جدتها لأمها فكانت تروى لها القصص الكلاسيكية ، وقد بدأت الثورة الثقافية بالصين إبان مرحلة الدراسة المتوسطة لها ، وتقول الشاعرة فى مذكراتها الشخصية إنه «عندما تتأزم الأمور ويحدث الاختلاط ، أهرع إلى كتبى ، فإنها تلطف حياتى وتخفف الوطأة عن نفسى» ، وقد عملت فترة من الزمن فى المزارع والمصانع ، وقد بدأت تكتب قصائدها ١٩٧١ فى خطابات ومذكرات لأصدقائها ، ولكنها لم تنشر إلاّ فى ١٩٧٩ . وفى ١٩٨٢ أصدرت ديوانها الأول «القارب» وقصائدها تعكس آلام الهزيمة وسعادة اليقظة والنهضة ، كما أنها مهمومة بالوطنية والحب والصداقة ، ويتميز أسلوبها بالدقة والعمق ، ولغتها تتسم بالإيجاز ، ولكنها حافلة بالمعانى . . .

حوار مع البحر
زهنج لانج

أحلقُ عبر الفضَاء الشاسع
للأمواج الضبابيَّة
أركعُ أمام جَلال البحر
وأتساءلُ :
- أيها البحر ، ما هى أثمن نفائسكَ ؟
يجيبُ البحرُ :
- يقول البعضُ : لآلئى
والتى هى ــ فى حقيقتها ــ دموعُ تماسيح !
ويقول البعضُ : لونى
والذى هو ــ فى حقيقته ــ مجدُ السَّماء اللازوردى !

. . . . . .

إن أثمنِ ما أحوزُه
هو قطرةُ ماءٍ تنزلقُ إلى حضنى
من شقوقِ صخرةٍ
بعيدةٍ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدون عنوان
شوتنج

(١)

اندفعتُ من الشُّرفة لأراك
عبرت الطريقَ إليكَ بين الأزهارِ والأشجار . . .
- أنتظرْ !
هل سيترحل بعيداً ؟
واندفعت نحوكَ لاهثةً . . هَمَسْتَ :
- هل أنت خائفةٌ ؟!

. . . . . .

فى هدوءٍ عبثتُ بالأزرار على صدرك وتَمْتمتُ
- نعم ، أنا خائفةٌ
لكنى لن أخبرك لماذا !

(٢)
مشينا على حافةِ النهر الهادى
كان الليلُ جيّاشاً وتلقائياً إلى أقصى حد
ذراعاً فى ذراع تجوَّلْنا على الضفة
مُتمايلينْ هُنا وهناك بين أشجار « الكاسيا » . . .
- هل أنتِ سعيدةٌ ــ سألْتَنِي ؟
. . . . . .
رفعتُ وجهى ، اندفعت النجومُ نحوى
- نعم أنا سعيدةٌ
ولكني لن أخبرك لماذا !

(٣)
ها أنت تنحنى فوق مكتبى
وتقرأُ مقطعاً من قصيدةٍ لى . .
احمرَّ وجهى خجلاً ،
اختطفتُ مخطوطتى . . .
باركتنى بصوتٍ حميمى دافئ ، وهمسْتَ :
- أنتِ مُحبين !
. . . . . .
- أجل أنا أحب
لكنى لن أخبرك مَنْ !

ترجمة : ربيع مفتاح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ديزى الأمير

قصة: الباكية

استيقظت ليلاً على صوت بكاء ، تلفت حولى ، ثم تذكرت أن ليس فى البيت غيرى .

كانت النافذة مفتوحة ، اقتربت منها لعل البكاء يأتى من البيوت المجاورة ، ولكن كان أبعد .

عدت إلى فراشى وأنا أتساءل ، من هذا الباكى فى هذا الليل المعتم ، وما الذى يبكيه ؟

بصعوبة شديدة ، وبعد انتظار ليس بقصير غلبنى النوم .

كان أول ما فكرت فيه صباحاً ، هو البكاء الليلى ، ولكنه كان قد انقطع .

فى الليلة التالية ، كانت الريح عاصفة ، أغلقت النوافذ ، ولكن حرارة الجو أجبرتنى على فتح كل النوافذ ، لا أدرى إن كان ما سمعته نواح بشر أو صوت الريح .

استمرت العاصفة لثلاث ليال متواليات ، والريح تصفر وترتطم بزجاج النوافذ وتبعد عن عينى النوم .

حينما هدأت العاصفة ، استغرقت فى نوم عميق بعد أرق الليالى السابقات .

قبيل الفجر ، استيقظت ، إذ عاد البكاء بصوت أعلى وبجرس أشد حزناً .

لو أعرف الباكى ! لو أدرى لماذا ينوح ! لو أستطيع عمل أى شىء لهذا الحزين !

مددت رأسى من النافذة ، فتأكدت أن البكاء أنثوى الصوت . كيف تبكى هذه الحزينة ولا يسعفها أحد ؟ أتراها تختار الليل للبوح كيلا تراها العيون ؟

هل أسأل الجيران إن كانوا يسمعون الصوت ؟ هل أذيع سر المجهولة بهذا السؤال ؟

مرت ليال والبكاء مستمر ولما صار ندباً وعويلاً ، لم أستطع السكوت ، سألت إحدى جاراتى هل استطاعت النوم فى الليالى الفائتة ؟

أجابتنى : وهل تسمح الريح بنوم عميق ؟

إذن أنا لا أتوهم ، إنها طبيعية وكنت قد ظننت أن الطنين الذى يلازم سمعى ، زاد واشتد بعد أن أكد لى الطبيب أن هذه الحالة هى تعب نفسى حاد يلازم مرهفى الحس الذين لا يبوحون بهمومهم ، وكنت أدرى تماما أننى واحدة من هؤلاء بعد كل الفحوص المخبرية والسريرية والتخطيط والأشعة التى أجريتها

نقلت جارتى استفهامى للآخرين وجاءتنى ردود كهذه ولكن الغريب فى الأمر أن معظم الذى يسمعون الصوت يبدو لهم قهقهات متقطعة تأتى من بعيد البعيد . أصغيت ليلة فسمعت العويل وبعد ليال سمعت النحيب ثم .. ثم سمعت استغاثات .

وكلما أطللت من النافذة لا أرى غير سواد الليل فيزيد السواد إحساسى بعمق الاستغاثات الباكية ، ويقولون بعد كل هذا إنهم يسمعون قهقهات !! وضعت قطناً على أذنى فوصلنى النواح والندب والبكاء والعويل والاستغاثة بصوت منخفض .

قررت أن أخرج صباحاً لأرى نور الشمس ، علّنى أنسى عتمة الليل وبكاءها .

جلت فى الشوارع المكتظة بالناس ، الدموع لا تتساقط ، العيون تلمع بارتياح ، الأطفال يزقزقون فرحاً .

صرت أخشى مجىء الليل ، أخاف البكاء المجهول والندب البعيد . فى إحدى جولاتى النهارية ، خرجت من الشوارع الداخلية إلى ضواحى المدينة ، فرأيت الغابة التى زُرعتْ ، قد امتدت مساحتها حتى كادت الخطة أن تكتمل .

كانت الخطة ، أن تزرع غابة كثيفة حول المدينة ، بعد أن اقترح خبير البيئة على مجلس البلدية ، زرع الأشجار لتخفيف وطأة الحر والجفاف .

يومها ، لم ندر كم سننتظر حتى تكبر الأشجار ويكتمل التفاف الغابة المقترحة ، ولم يخطر ببالنا أن العلم لا ينتظر بل ينفذ .

وكان أن جاءت شاحنات واسعة تحمل أشجاراً عالية متكاملة النمو تحمل معها جذورها المغروسة فى التراب ، لتجلس فى الحفر العميقة الواسعة التى أعدت لسكناها .

أدهشتنا الفكرة فكنا فى أول الأمر نزور المناطق المزروعة حديثاً ونرى أشجار الحور تمتد وتتوزع ملتفة حولنا ثم . . ثم صار أمراً معتاداً أن نرى الشاحنات تحمل الدواء لمدينتنا المريضة بالقيظ والجفاف .

تنقلت فى أنحاء الغابة وقد أذهلنى العلم الذى ينقل الأشجار بمدارها الواسع وعلوها الشاهق وكأنها هنا منذ ولادتها . منظر الغابة الجميل باخضرارها وفيئها أراحنى .

عدت إلى البيت وأنا أفكر بزيارة الغابة مرات أخرى لأريح أعصابى . بالليل وصلنى البكاء والنواح والندب والاستغاثة فزالت راحة النهار .

قررت صباحا أن أعود إلى الغابة فهذا هو العلاج الذى أحتاج،وهكذا صار ذهابى إلى الغابة عادة نهارية وسماع البكاء و . . و . . عادة ليلية .

ولكن هذه الأصوات بدأت تخف وزادت بعداً وكلما ضعف الصوت المرهق زادت زياراتى للغابة التى اكتشفت أنها سبب راحتى .

الغريب أن الآخرين ظلوا يتساءلون عن مصدر القهقهات . التى يسمعون .

كانت أشجار الحور تقف بقوة وصمود فى وجه عواصف الغبار فخفّت وطأته ولطف الجو ومزيد من الأشجار المهاجرة تصل مدينتنا لتستقر فيها . ترتاح وتريح .

فى يوم كنت أتمشى فى الغابة وأرفع رأسى لأرى امتداد الأغصان وكم طالت وارتفعت . وإذا بى أصطدم بجذع . لم يكن الجذع منتصباًكالأشجار الأخرى بل كان مائلا .

بزياراتى التالية ، تقصدت الذهاب إلى تلك الشجرة وإذا بجذعها يزداد انحناءً وتكاد أغصانها تلامس الأرض . صار هاجسى أن أزور الشجرة وأشاهد نموها صغر حجم أوراقها ونحفت أغصانها لم تعد شبه زميلاتها من أشجار الحور .

حدثت الناس عنها فقالوا إنها مريضة وقد تموت ولكنى متأكدة أنها ليست كذلك وإلا فكيف تحافظ على خضرة أوراقها ؟

أخذت الأصدقاء معى ، فقالوا هذه ظاهرة تحتاج خبراء ليفسروها . الخبراء الزراعيون أكدوا أن لأشجار الحورخواص وصفات لم تعد موجودة فى شجرتى و لا يجدون تفسيراً علميا لهذا .

البكاء والنواح والندب والنحيب والاستغاثة ، كل هذا يحتد ولكن بهمس ضعيف متعب .

مرت أيام قبل أن أزور الشجرة وإذا بها تلامس الأرض . انحناؤها ازداد بشدة وكادت تمتد بطولها على التراب .

صغرت أوراقها واصفرت وطالت غصونها بنحافة مريضة .

ثم . . ثم نامت الشجرة ، أوراقها ترتمى حواليها ، الرمال تغطيها ، الريح لا تحركها ، جذعها الأبيض صار أسود . تغيرت كل ملامحها . .

لما رأيت الحشرات تنخر جذعها ، عرفت أنها ماتت .

تذكرت والآن فقط ، أن الإعجاب بالعلم الذى اختلع كل هذه الأشجار ليزرعها عندنا ، كنت أعلق عليه : وإذا لم ترض الأشجار بالهجرة ! فضحك السامعون ظانين أننى أنكت .

قلت للأصدقاء . انتحرت الصفصافة الباكية حينما جئت على الأرض تتوسل إليها ، فلم تجد النهر الذى اعتادت على إروائه لها .

لا أظن أن أحداً فهم معنى كلامى .

ليلتها لم أنم ، مع انى لم أسمع بكاء ولا عويلاً ولا نديباً أو نواحاً أو استغاثات .

ولكن أنا التى بكيت ، دون نواح ولا عويل ولا استغاثة فلم يسمعنى أحد .

بغداد : ديزى الأمير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فؤاد قنديل

قصة

صهيل الماء

كان علىّ أن أعبر النهر الكبير إلى الغرب ، حين بلغت شاطىء النيل ، أغراني النيل والصباح الجميل فتمهلت . . خشيت أن تسرع قدمى كما تفعل كل صباح وتلقى بى إلى الشوارع الصاخبة والزحام المجنون . . استدرت إلى وجه النهر عند منتصف الجسر الضخم ، وتفتح صدرى للفرح الغامض . . توقفت أمام السور المعدنى الغليظ . وصوت يساعدى فوق صلابته الباردة . من أعماق الماء انبعثت تنهيدة . . حومت نظراتى فوق الماء . لطالما تعلقت بهجتى بموكب المياه الذى يمضى فى جلال وثقة . . ظللت أتأمله وأصيخ السمع لعله يبوح . . كان الماء يتقلب فى حضن الموج ويتلوى ويستحم ويتعش . ثم يغيب ويحلم ويغوص ويطلع فى نعومة وكأنه يبحث عن شىء حبيب بلا غضب . . ثم تفور قبلاته ويتألق سادراً فى سبيله بلا مبالاة . . وحيداً فى العالم يمضى . . وكان للماء صهيل وغناء .

تهادى النيل الأسمر بين الضفتين . . جملا بين أشجار باسقة متشحاً بالحنان والكبرياء . . رمتنى النسمات برذاذه المقدس ، أفاقت روحى وأبصرت أكثر .

انتشرت فوق سمائه طيور بيضٌ لها مناقير طويلة ، حومت وانقضت على الماء . التقطت الأسماك المطمئنة . صعدت . دارت هنا وهناك ، نقطا من الضوء المتناثر فى الفضاء الرمادى .

لم تطلع الشمس ، والغمام شرنقة حول الأفق العريض .

عادت الطيور وغمست رؤوسها فى الماء ، وطلعت على المدى تحمل الأسماك . . كانت الدوامات الصغيرة تتلوى وتحتضن بعضها . . وتكاد تنطق . . حاولت الدوامات الصغيرة أن ترسم شكلا ، لكن الملامح لم تتحدد ، وكلما حاولت مع الشكل تبدد .

تنبهت أن فى إلى الجوارى ، يتألق الماء فى وجهه وينتصر . . ذابت روحه فى احتضان الوجد المتدفق تحت الجسر .

من بعيد قدم على عجل زورق كبير ذو محرك . . دمدم وزأر ، دفع الماء أمامه ومضى متغطرسا صوب الجنوب ، تبعه ثان . . دفع الماء أمامه ومضى مسرعا صوب الجنوب ، وتبعه ثالث ورابع بالهدير والجبروت .

استدارت الموجات فى سكون . . تحولت فى إثر الزوارق . . دارت الطيور حول نفسها حائرة .

بلغتنى تمتمات مبهمة ، والماء القاتم وجه يختنق . . تشبثت بالجسر الحديدى . . سمعت الفتى يهتف : النيل يرجع . . النيل يرجع . لوت الزوارق عنق الماء . . النيل يرجع .

تحولت إلى الماء . . صوبت إليه نظرات مدققة ومتحفزة . . سرت فى جسدى قشعريرة .

لمحت بضع دوامات صغيرة تلتف حول بعضها وتتلامس

- ألم تمارس الحب ؟
- حاولت .

أمي . والناس . والدين . وربع قرن في الحي . والممارسات الفردية . تعاطت حبة مستطيلة ملونة مع رشفة من قاع الكأس . تابعتها في هدوء .

طَلَبَت المزيد من قطع البنجر والجرجير .

عيناها مليئتان بالكلام . وإجاباتي مشحونة بأحزان ممتدة . وفي الأعصاب توتر . وفي العظام سوس ينخر ، وحاجتي إليها مليئة بالغيوم .

وهي تقرأ الرغبة في عيوني :

- في قاهرة المعز نجد رجولة أكثر . . ولكن . .
- تنزلق الكلمات إلى داخل .

غادرنا المكان لنكمل الحكاية .

خطواتنا « تناغش » النهر في استحياء . في السماء زهور تتشاءب تستمتع بحبات الترمس المبلل . أتوضأ برائحة الرغبة فتقذف القشر في وجه النجوم . قبلتي امتداد الشاطئين وعمق النهر ، والتوء المبتسم . تضحك ، وكل ما فيها يختلج .

تسبيحاتي اصطدام الموج بجُذُر الشاطيء العطشان . تضحك . ألقي برأسي للسماء . أتمدد ممتشقاً الهواء . صامداً كالأشجار .

تحاول نطق العبارات بلغتي .
تعلن رغبتها أن تزور أمي في البدروم المظلم .
غرقنا في الضحك .
ثم انفردت بالبكاء .

طنطا : صالح الصياد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

رجل مختلف

قالت لى أمى «من يحبه ربه يفرجه على خلقه» . منذ طفولتى لم يفارقنى الحلم بالفرجة على خلقه ، وكلما مرت من عمرى سنة تضاعفت خشيتى من الموت قبل الاستمتاع بهذه الفرجة . أنظر من نافذة بيتنا العتيق المطل على البحر ، متجاوزا بخيالى الأخضر منتهى حد الرؤية حيث يعانق البحر السماء . المعادلة الشرطية صريحة وواضحة : لكى أنعم بالحلم يجب أن أحظى أولا بالمحبة . يظل السؤال على عقلى الصغير فى امتحان ممزوجا بالتحدى . كل عام أواجهه بفكر مختلف وأنظر إليه برؤية مغايرة . «هل يحبك ربك ؟» . . ولا أعرف الإجابة القاطعة . عندما رسبت فى مادة الجغرافيا وجاءت بطاقة الدرجات مزدانة بكعكة حمراء صفعنى أبى على وجهى فعرفت أننى بعيد عن دائرة المحبة . لكننى لم أفقد الحلم ورحت أطارد السواح عند قصر رأس التين محاولا الحديث معهم بالجملة الوحيدة التى أحفظها «جود مورننج» . كانت ابتساماتهم لى تنعش فى قلبى الأمل بتحقيق الحلم . كثيرا ما كنت أختلى بنفسى بعيدا عن إخوتى وأصدقائى على الشاطىء أتفكر فى تلك المخلوقات التى تعيش وراء هذا البحر الواسع . تذكرت قول أبى أن الله أكبر بكثير من كل هذا البحر فهو الذى خلقه . سألته كيف السبيل إلى محبته فعلمنى الصلاة . فرحت كثيرا وأنا أركع خلفه وأسجد ، ولكنى أحببت سيدة جميلة فى عمر أمى أفسدت مخططى لتحقيق الشرط . كنت أحب قبلاتها وأنتشى لطراوة يديها وهى تربت على خدى . ويوما نمت بجوارها فى رحلة طويلة ، فشعرت بارتجافات أصابتنى بغيبوبة ساحرة مازلت أستشعر حلاوتها حتى الآن .

ظل السؤال الشرطى معلقا حتى قامت الثورة وسمحوا لنا بارتياد حدائق القصر الملكى . عشقت هذا المكان عشقى للبحر ، دأومت الانسلاخ من الرفاق والاختفاء بين أشجاره . هناك كتبت أشعارا فى حب فتاة زرقاء العينين تسكن بعيدا عن بيتنا . كان شعرها الأشقر يقربنى من الحلم ، وكانت بشرتها البيضاء تنقلنى من حارة «قراقيش» برأس التين إلى ميادين أوروبا التى يتجمع الحمام حول نافوراتها فى طمأنينة يتلقى الحب من الناس كما أراها فى الصور . عدت إلى الصلاة أمارسها حينا وأنقطع عنها أحيانا . علمنى الرفاق شرب الخمر ومضاجعة النساء والفتيات ونسيت الحلم وضاعت من ذاكرتى المعادلة الشرطية . مات أبى فعدت إلى الصلاة تلقائيا وعشت بين النجوم أعواما فلم أخضع لقانون الجاذبية ولم أهف إلى صدر امرأة ولم يعاودنى الحلم . انهمكت فى صراع الحياة اليومى دون أن يفتر حبى لها . بعزيمة فولاذية رفضت الاستسلام لشكاوى الموظفين المريرة من ارتفاع الأسعار وقلة الأجور . لم أشاركهم أحاديثهم اليومية عن المواد التموينية التى تختفى من الأسواق لتظهر مرة ثانية بأسعار مضاعفة ، فأنا رجل مختلف .

فى معمعة أحداث مؤلمة عاودنى الحلم يوما . لم أكن أتصور أنه مازال قابعا بوجدانى . قذفت بنفسى إلى البحر وكان ثائرا فى جنون ، ولما عبرت المحيطات الخمسة وجدت أنه لا معنى

للاستكانة ولا فائدة من الشكوى فقلت لنفسى «افعل شيئا تقترب به من دائرة المحبة» .

على فراش الموت جلست بجانبه . حلمى مرهون بقلمه . كان واثقا أننى لم أحضر إلى منزله للاطمئنان على صحته . أنا أيضا كنت صريحا منذ البداية فلم أفعل ما يوحى بغير ذلك . جئت فقط للحصول على توقيعه بالموافقة على المهمة . ثلاث دول مرة واحدة . عندما يسعد «الفقى» تأتيه خاتمتان فى ليلة . تحقق شرط المحبة ولم يبق إلا التوقيع . ناولته القلم . أمسكه بيد مرتعشة ونظر إلى نظرة غريبة لم أستطع ترجمتها على الفور . فاحت رائحة الموت بالغرفة فقلت فى سرى «يا مسهل يا رب» . صاح بصوت خفيض منهمك :

- هاتى لى الحلبة يا ميرفت .

وضع القلم إلى جواره مرة أخرى . سقط قلبى بين ضلوعى . لو مات الآن تضيع منى فرصة العمر . ربنا يخليك . أنا فى عرضك لا تمت . فى عرض دينك وقع يا سيادة الوزير .

- يا ابنى . . المفروض أن الوزارة لا تدفع إلا أجر الطائرة .

- هذا صحيح يفندم ، وهو موضح أمام سيادتك بالأوراق .

- أنا لا أفهم شيئا من كل هذه التوقيعات .

الرجل معذور . فاقت نسبة البوليا فى الدم حد الخطر . معجزة أن يعيش حتى الآن . سفر يوم واحد بالنسبة لى إلى ما وراء البحر يعنى إضافة سنة إلى عمرى .

- هاتى النظارة يا ميرفت .

تريد أن تقرأ . معك حق ، ولكنى أخشى أن أموت قبلك . أنا مختلف فى أى شىء إلا الموت .

- دع هذا عنك . اسمح لى أن أقرأ لسيادتك .

- اقرأ .

سمعت شخيره أثناء انهماكى فى القراءة . نام منى . لا حول ولا قوة إلا بالله . أحضروا له الحلبة والنظارة .

طلبوا منى أن أنتظر فى غرفة أخرى حتى يصحو من إغفاءته . مر دهر قبل أن يفيق . شعرت بخجل من نفسى لكنى لم أتراجع . الحلم أو الموت .

أخيرا وقع على الأوراق بكلمة واحدة . «أوافق» . لكنه نظر إلى مرة أخرى نفس النظرة السابقة التى أصابتنى بالرعب . قالت لى عيناه الغائرتان بثقة شاب فى العشرين :

- ستموت قبل أيها النذل .

تجربتى الأولى فوق هذا الكوكب الكوميدى العجيب . أراه كبيرا وأراه صغيرا . لم أنس اضطرابى وانخلاع قلبى من صدرى عندما ارتفعت بى الطائرة عن الأرض . قرأت الفاتحة والصمدية والمعوذتين ونجحت فى إخفاء جبنى الشديد عن جارق الألمانية الحسناء . دام بيننا حديث ضاحك على ارتفاع سبعين ألف قدم من الأرض . من عاداتى الطيبة سرعة تجاوبى مع الواقع . حالاً ما ألفت الوضع . تخيلت أننى أركب عربة على الأرض ، ثم تكفل النبيذ الفرنسى الأحمر بإزالة آثار ما تبقى بنفسى من خوف . انطلقت الطائرة فى اندفاع عجيب . لم يعكر صفوى فى تلك اللحظات سوى نظرة الوزير الذى توفاه الله بعد توقيعه المنحة بعدة أيام . كانت عيناه الزرقاوان تترقبان كل لحظة سعادة تعبر نفسى وترصدان كل خاطرة تبعث فى قلبى البهجة . مازلت أذكر هاتين العينين المنذرتين بالموت حتى هذه اللحظة .

. . . . . .

تناثرت أشلاء الركاب المساكين من حولى ومعها حطام الطائرة المنكوبة . أطلت على العينان الزرقاوان بنظرة شامتة . نظرت إليهما بقوة البقاء فاختفتا إلى الأبد . رغم رقة قلبى المتناهية ورهافة أعصابى الهشة ، إلا أن شعرة من جسدى لم تهتز حول ما حدث . كل شىء محتمل الحدوث فى هذا الكون الفوضوى العظيم . لم يبق على وجه التقريب أثر مادى للطائرة وركابها أجمعين . الزوال يمارس سلطانه المذل . الشىء الوحيد الذى بقى بكامله من بين الأشياء هو أنا . لم أصب إلا بخدش بسيط . سقطت جالسا على مقعدى ثم ارتددت عاليا بفعل الصدمة الميكانيكية ، ولكنى نزلت واقفا بلا صدمة عصبية . الجبال العملاقة والغابات الشاسعة ونهر طويل لست أعرف اسمه وصمت مثير وسحاب كثيف وكائن إنسانى منفرد . حاولت أن أحزن على رفاق الطائرة فلم أستطع . أردت البكاء فلم أتمكن منه . تحيرت فى أمر إنسانيتى وخفت على مصيرها . صرخت بلا انفعال لسبب لا أعرفه ، ثم توقفت عن الصراخ لنفس السبب . رأيت على البعد منى شعلة من النار خافتة . اقتربت منها فى حذر ورهبة وتوجس . قطعة من الطائرة وقد اشتبكت بصدر أنثى . من يحبه ربه يفرجه على خلقه . تفرج يا أستاذ كيفما شئت . المستحيل هو المسافة بينك وبين أولادك وزوجتك وكل من عرفت على الأرض . كل ما مضى من حياتك كان مجرد رؤية هلامية غامضة غائمة لأشباح من الناس والمواقف والمبانى والمناظر والأشياء . لا علاقة بين شىء وآخر . درس فى التذوق الموسيقى . مجنون يقطع أذنه ليهديها إلى حبيبته . امرأة تقتل ابنها لتنام مع سائق تاكسى . مدرس يبيع

الامتحان ويسكر بثمنه . فتاة تحب وتحلم وتتمنى وتأمل وتبتسم . كاتب عالمى يسخر بصدق من المشاعر الوطنية ويحقر من شأنها . شاب يبحث عن شقة ليعيش فيها مع عروسه . قال ان قلبه يذوب فى حبها . أثار حماسه شفقتى فصليت فى ضميرى لأجله .

وصلت إلى حافة النهر وجلست . كان الجو رائعا . من المؤكد أن مياه هذا النهر تصل فى النهاية إلى مدن عامرة بالسكان . بعد الشرب يأتى التبول وبعد الأكل يأتى الإخراج وبعد التصلب يأتى الارتخاء وبعد الحماس مجىء الفتور ولا جديد فى الأمر . المسألة لا تستدعى إمعان الفكر وإجهاد العقل . الحل الحقيقى الأمثل هو صمت الدماغ . رغم ذلك فالتفكير فى قدوم الليل والبحث عن مأوى وطعام وشراب أصبحت أشياء واردة . ألقيت ما بجيبى من عملات بشرية على الأرض . لم تعد الآن محلية أو أجنبية . مجموعة من الحيوانات الثديية المتطورة ــ فى كل مكان ــ تحتكر لنفسها حتى توزيع تلك العملات على الخلق كيفما اتفق ، سواء عن جهل أو غرض . ضاع المعنى . الناس كثيرون جدا . ملايين . الحيوانات أيضا والحشرات لا تعد ولا تحصى . أشباح فى أشباح . لو استطعت الإمساك بالزمن بين يديك فماذا أنت فاعل به ؟ . الشمس والقمر يحسبان والنجم والشجر يسجدان . هل يشغلك الآن اتجاه القبلة ؟ . أنت أكبر كذاب رأيته فى حياتك . كم كنت غبيا تافها مصرا عليها من أجل لا شىء .

حيوان غريب الشكل يمرق فى الجانب المقابل للنهر . قرونه متشابكة تثير الرعب رغم جمالها وجمود مشاعرى . طالما حاربت بعنف وشراسة . كانت أسلحتك أشد فتكا بالآخرين فى ميدان الصراع اليومى . على كل من يمشى على قدمين أن يشهر سلاحه فى طلب المجد والويل لمن لا يجيد الطعن . دعت لى أمى أن تفتح لى طاقة فى ليلة القدر . انتظرتها أعواما عديدة فى طفولتى وصباى ولكنها لم تنفتح . انفتحت لى أشياء أخرى بدلا منها . قالت لى امرأة : أحبك ، وقلت لعشرات غيرها : أحبك . . المنظر الكريه الذى ينتهى إليه كل هذا الحب يؤلمنى كثيرا . لماذا جاء على هذه الصورة ؟ .

مازلت فى عداد الأحياء حتى الآن . لو مر ذو القرون المتشابكة أمامى الآن لقبلته . مغلوب مثلى على أمره . ليس لأحدنا إرادة فى وجوده بالقرب من هذا النهر أو بعيدا عنه . على كل منا أن يأكل ويشرب ويتناكح ويموت . اللعبة غير مسلية . سقط العصفور الصغير بطلقة واحدة . قلت لابنى «حرام» . ضحك منى . بدأت أمشى . سرت البرودة فى جسدى . كلما ازدادت طمأنينتى الواهمة لمصيرى فى هذا المكان ، ازددت غباء وامتنع العقل عنى . أين لى بامرأة فى هذا الحلم السحرى العجيب . ولكن ماذا أفعل بها ؟ . لابد من مأوى وبصفة عاجلة . لا فرجة الآن على خلقه ولا عينين زرقاوين فلماذا لم أمت مع الموتى ؟ . ربما كتب لى الخلود فوق جبل تستند مؤخرتى على قمته . تمثال الحياة . فكرة رومانسية رائعة . آدمى تعس يجلس على صخرة ولا يملك أن يفكر . كنت تافها ينتابه القلق لأسباب غريبة وتشغله قضايا هلامية عديدة . العسر واليسر . الصغار والكبار . المستقبل . الآخرون . الماضى . العمل . المتعة بنوعيها . الشعور الأبدى بالذنب . الشهرة . حظ . مامعنى أن تكون أشهر رجل فى العالم ؟ . كلما ذهبت إلى بلد أشار إليك الناس فى الطريق . هذا هو العبقرى الفذ فلان ابن علان بن ترتان ، بطل العالم فى العلم والفن والرياضة والدين والأدب والعلوم الاجتماعية والفلسفية . ولكن ماذا بعد ؟ . قال شعبان :

- كم هو مؤسف زوال كل هذه النعم فى النهاية .

وقال جوعان :

- سوف أشبع من فاكهة الجنة .

أمام مقبرة أبى تشممت تلك الرائحة التى تنبعث بين بدايات الأشياء ونهاياتها . يا بنت الكلب لا تعرى نفسك . يا مولانا اتق الله ودون بالقصاص . يا اخوانا الحقونا . لا فائدة . بدأت فدوى تصطك قليلا . هل ولدت فى تلك البقعة المقززة من أجل أن يأكلنى اليوم حيوان فى هذا الدغل الموحش ؟ . عجيب أننى لم أفزع منه حتى الآن . سواء أكلنى أو أكلته فكلانا يمثل جزئية متناهية فى الضآلة من كل هذا الاتساع المتجه إلى صاحبه . رغم هذا فقد قتل الرجل زوجته عندما رأى صديقه يتحسس بطنها دون أن تقاومه . أمعائى دائمة التقلص خاصة فى المواقف الحرجة . من المؤكد أن الفدائى الفلسطينى كان مضطرا إلى اتباع هذا الأسلوب البربرى فى القتل والنسف والتدمير وإزهاق الأرواح «البريئة» . قال إن هذه الأرواح ليست بريئة لأنها تعلم بقضيته الخاسرة ظلما وعدوانا ولكنها تمارس السياحة والجنس وبعزفة المال على المتعة وأنا والطوفان من بعدى وهلام الهلام هلام . . أين راح أصدقائى وهل ترى أخطر ببال أحدهم الآن ؟ . وحتى لو خطرت فما العمل وما الفائدة ؟ . لا يختلف الآن أن أتخلى عن احتراسى أو أن أحتفظ به رغم أنه لا توجد صداقة تتسم بالاحتراس والحذر . من المؤكد أننى كنت ساذجا بالفعل حين فكرت فى المال والشهرة والعلم والبنين والبنات والأصدقاء والأحياء وقضاياهم والأموات وتاريخهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعمدت ألا أنظر إلى المضيفة وهى تشرح لنا كيفية استخدام طوق النجاة . ضحكت من هذا العبث وشردت قليلا ، ثم سألت جارق فجأة :

- ماذا تفعلين لو سقطت بنا الطائرة ؟

- من المؤكد أننى سوف أموت رعبا قبل أن يرتطم جسدى بالأرض .

قلت لها بثقة مضحكة .

- أما أنا فقد لا أموت .

انفجرت فى الضحك وأشعت من عينيها سعادة غريبة . بدا لى أنها لم تضحك من قبل بهذا الصدق .

- ألست مخلوقا آدميا مثلنا ؟

- لا ، أنا كائن مختلف .

- ولكنى لا أرى دليلا على هذا الاختلاف .

- ليست الرؤية بالضرورة ، وإنما الإدراك هو الأهم .

- وكيف يمكننى أن أدرك أنك جنى أو ملاك ؟

- عندما تسقط الطائرة وتموتون جميعا ثم نلتقى من جديد .

تغيرت معالم وجهها . ارتبكت قليلا . أشعلت لنفسها سيجارة بسرعة . أخرجت مجلة من حقيبتها وراحت تقلب صفحاتها فى عصبية وتردد . التزم كلانا الصمت . أغمضت عينيها مدعية النوم ولكنها ترتعد خوفا .

.....

دب فى جسدى نشاط غريب . عاد إلى النظر الكون وروعته الخلابة . صليت لصانعه على طريقتى . رحت أتمرغ فى جوانبى وأشم الأرض وأغترف من طينتها وأكبش فى رمالها وصخورها المتناثرة . ما معنى هذه الجبال الشاهقة الراسخة وما عمر بقائها على هذا الحال وكيف ستكون نهايتها ؟ . عقل صغير صغير . لا جدوى من التفكير . رأيت صورة فى مجلة أنجولية لتمثال اسمه «المفكر» . رأيت صورة أخرى فى مجلة مصرية لتمثال فرعونى اسمه «الكاتب» ، الأشباح المساكين لا يفكرون أبدا فى النهايات . أنا أكذوبة كبرى لأن أحدا لم يفهمنى على حقيقتى حتى الآن . كل المخلوقات التى أنتمى إليها وتشبهنى أكاذيب مكررة لأن أحدا منهم لا يريد أن يفهم غيره ولا يعرف كيف يفهم نفسه . لهذا أستطيع أن أجزم بمكان وجودى . هل أنا بالطائرة مع المحلقين فى الهواء أم على الأرض بين الحطام البشرية والآلية . . ولكن ذا القرون المتشابكة يقترب منى فى حذر . ينظر إلى بعينى إنسان . يذكرنى فمه بصنم جمل عربى رأيته فى صحراء المغرب ومؤخرة امرأة فرنسية رأيتها تخلع ملابسها قطعة وراء الأخرى فى ملبس دانيمركى على أنغام الموسيقا . يخيل إلى أحيانا أننى لم ألامس امرأة على الإطلاق . قال الكمبيوتر كل شىء ولم يبق إلا الموت للكسالى والمتخلفين . هل تنحاز للغرب ؟ . نعم ، فقد صنع عقل . هل تؤمن بالقومية ؟ . نعم ولا . هل أنت وطنى ؟ . الوطنية هى انتماء متبادل بينى وبين وطنى ويستحيل أن تتحقق من جانب واحد . وما هو الوطن ؟ . لـويزا . آه أيتها الجمرة الملتهبة الفاتنة . كتبت عنك قبل أن أراك أو أعرف بوجودك . عندما رأيتك عشت معك ألف عام على نفس الفراش . الحيوان هو الحيوان . مازلنا نتبادل نظرات الاستطلاع المتوجسة . لـويزا هى خديجة وخديجة هى لويزا والنهاية المقززة لا تختلف . ألا يخترع أحد حبا بلا جنس ؟ . هل تنحاز للشرق ؟ . نعم ، فقد صنع قلبى لا فائدة من أى شىء . امرأتان تتصارعان . البقاء للأقوى . أنا أغسل الأطباق وأنظف غرف الفنادق وأنت ترفلين فى الحرير ، لكن زوجى صحيح البدن قوى البنيان أنكمش بين ذراعيه فيعتصرنى بحنان لا يمكن أن يتبادر إلى حلمك . مقارنة . مقارنة . مقارنة . رجال يتقاتلون . يسفر توزيع الناتج القومى بغباء عن نشأة تفرقة تدعو إلى مقارنات لا وجود لها فى هذه الغابة ، فأنا وذو القرون المتشابكة متساويان فى كل الحقوق والواجبات . بل إننى هو وإنه أنا حتى لو أكل كل منا نفسه . ويبدو بالفعل أننى بدأت آكل نفسى ، إذ فتشت عنها زمنا طويلا بعد ذلك ولكنى لم أعثر عليها .

.....

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طفت مشاعرها العنصرية على السطح . بداخلها يقين يقول إنها خلقت من عجينة غير عجينتى ، بعينيها استنكار وندم لتبسطها معى ، فهى تمثل كائنا أرقى . . آه يا تاريخ ، اعلمى أيتها القحبة أن أية متوالية هندسية لأزمان جدودك تؤكد أن الارتقاء بدأ من عندى ثم استلب فى غفلة من الزمان ونسب إليك فى وقاحة وادعاء . . كان هذا فى الماضى ، أما الآن فانتم ــ للأسف ــ أصحاب الحاضر وأسياده وأنتم أساتذتنا ومعلمونا ، ومع هذا فأنا لا أحب المقارنة .

- أين تقيمين فى ميونيخ ؟

- ولماذا أدلك على عنوانى ؟

- ربما دعا أحدنا الآخر لتناول فنجان من الشاى أو القهوة .

- أين ستقيم أنت ؟

- فى الشيراتون .

- اذن فأنت غنى .

- وما أهمية ذلك ؟

لم أنس وصية أمى قبل سفرى بألا أنكح مشركة .

- المال هو القوة . . ألا تدرك هذا ؟

- وهل تحبين المال ؟
- أحب القوة .
- سأنتظرك مساء الغد بغرفتي . . هل تحضرين ؟
- أفكر .

عاودت ادعاء النوم ، لكن علامات التفكير القلق كانت واضحة على وجهها ذى النمش الجميل . الفضاء تحت الطائرة وفوقها ومن حولها يصيبني بالشرود . السحب . الجبال . الغابات . البحار . المدن . الأنهار . البشر . الحرب . الشمس والقمر بحسبان . فليكن معلوما عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون» . . انهمك بصرى فى ارتفاع صدرها وانخفاضه مع تنفسها السريع . يختفى الكتز الثمين عن غير قصد خلف الفتحة الواسعة بقميصها الأصفر . بللت فلتر سيجارق برقة ساخنة وجذبت دخانها فى شبق غريب ، وكنت واثقا أنها قادمة .

. . . . . .

فوجئت بهالة من الشعر الأسود الداكن حول حلمة ثدى الفتاة النيجيرية ذات المذاق الخاص . أصبت بتقزز من صدور النساء شقراوات وحمريات وزنجيات . لا شىء يبقى على حاله . رضعت من ثدى أمى ورضع ابنى من زجاجة وسقطنا معا من نفس البالوعة إلى البالوعة الكبرى . لو نمت فى هذا الكهف فقد يهاجمنى ذو القرون أو غيره من حيوانات أجهلها . قد أتجمد من البرد . الجوع مقدور عليه فيمكننى أن أكتفى بأكل العشب وأوراق الأشجار ، أما الماء فهذا النهر والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه والله أكبر والنصر للعرب والإنجليز والأمريكان وكل الملل والنحل ، أما الهزيمة فلست أدرى لمن تكون .

اقترب منى أخى . لم أخف منه . تشممنى فى حذر . لم أتحرك . مس ظهرى بقرونه . لم أفزع . مازالت نوايانا المتبادلة عامرة بحسن القصد . مازلت متعجبا لبلادة حسى وانعدام فعل الشرطى المنعكس . الجبل خطوط دائرية متوازية ملونة . الأخضر عشب وشجر . الأبيض جليد خفيف . الأحمر أكسيد حديد . الأصفر تراب وصخور مهشمة . جلس أخى بجوارى فى طمأنينة رائعة . ربت على ظهره . لن يأكلنى . لن آكله . لا مقارنة . أوقعوا بينى وبين صاحب العمل . فصلت . قال لى كاتب كبير إن المصريين يعجزون دائما عن العمل الجماعى رغم تفرد كل منهم بميزاته الخاصة والنادرة . عندما احتلوا خط بارليف قلت له «أنت واهم» . ضحك منى وقال «بكره تعرف» . . أما صديقى المتصوف فقد قال بثقة مطلقة إن الله لم يكرم الكنانة إلا لأجل الحفنة القليلة من الناس الطيبين الذين يعيشون على أرضها ، ولولاهم لتركها تشتعل فقرا وهزيمة وراء هزيمة . الله أكبر . توكلنا على الله . يارازق الدودة فى الحجر ارزقنى وأنا قاعد . «بعضهم يقول : وأنا نائم» . يا كريم . إن شاء الله . الله حى . عقدت اتفاق محبة غير مكتوب مع أخى ذى القرون وعشنا معا فى سلام . احتفل بنا إخوتنا من الأشجار والجبال والطيور التى لم أر مثلها من قبل ، ومازلت أعيش معهم حتى الآن ولن أتركهم ما حييت . النجم والشجر يسجدان . قالت لى أمى إن تسابيح ما بعد الصلاة تدخل الطمأنينة إلى القلب . اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام .

. . . . . .

ذهلت لاكتشاف أن بهذه المخلوقة قليلاً من الحياء . استجبت إلى طلبها وأغلقت زر الفيديو . قالت الكاذبة :
- أنا لا أحب هذه الأفلام الشاذة التى تسىء إلينا وتشبهنا بالحيوانات .
- لعلك حالة خاصة بين بنات قومك من النساء .
- بل إننى أكثر واقعية . أفضل الفعل على الفرجة .

كنت أعتقد أن الفرجة التى حدثتنى عنها أمى مقتصرة على الطبيعة . الآن أدركت أنها تشتمل الإنسان . . المرأة بصفة خاصة .

- هيا . . فرجينى .

ليست هكذا تكون الأمور .

ادعيتُ السذاجة باتقان شديد فكشفت لى عن وقاحة تفوق الوصف ، ثم طلبت منى أن أضربها بعنف وكانت تبكى وتضحك فى آن واحد ، بينما استنفدت كل طاقتى فى إشباعها ضربا حتى منتصف الليل ، حين نامت حضارتان مجهدتان على فراش الحضارة المنتصرة .

فى الصباح عاملتنى كما لو كنت إنسانا تراه لأول مرة . أزادت قبلاتها الباردة من احتقارى لها . انصرفت بعد أن دعتنى لتناول الغذاء بمنزلها فى اليوم التالى ، ولكنها لن تراق إلى الأبد .

. . . . . .

العالم بيتان . بيت للنشوة يسكنه الجميع ، وبيت للكدر نسكنه نحن فقط . ذبحت يوما دجاجة ذبحا جيدا ولكنها ظلت تجرى فى دمائها لفترة طويلة وتنتفض لفترة أطول ، حتى خيل إلى أنها لن تموت . توتر مفاجىء على وجوه المضيفات . اهتزازات غريبة بالطائرة . عينان زرقاوان . من يجبه ربه . الكابتن يتحدث إليكم ، نحن نريد الحياة . نحن نقص عليك

أحسن القصص . العد التنازلى لا يوقفه فزع أو صراخ أو ارتباك . الموت فى الطريق إلينا أيها السيدات والسادة . نظرت إلى الألمانية فى دهشة . أرادت أن تسألنى :

- كيف عرفت أن الطائرة ستسقط بنا ؟

قلت لها دون أن تسألنى .

- ألم أقل لك إننى رجل مختلف ؟ .

الاسكندرية : سعيد سالم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حجاج حسن أدوك

قصة

الرّحيل إلى ناس النهر

يومها . . ناس البلد حملوا الكلوبات والمشاعل المتوهجة ، بحثوا فى الجبل . . فى الشريط المزروع على امتداد شاطىء النهر . لا أثر . « كورتى » وكانت طفلة تصغر أختها بسنة ، أقسمت أن أختها آشا[1] لم تمت . . لم يأكلها الذئب ، لم تثقب قدمها إبرة عقرب غامق ولا لدغت بالطريشة العمياء . أكدت دامعة : أختى رحلت إلى ناس النهر ، حيث لا عذاب ولا عقارب ولا ثعابين . . تبكى كورتى وتؤكد أن الكاشف لها غطاء النهر فذهبت ، وستعود . هى الآن فى سرور عندهم ، عند ناس لا ينقطع الفرح عن مائهم ولا تهمد الدفوف فى قرارهم ، لا يحرقهم الخوف من مستقبل يشردهم ، دائما زغاريدهم متصلة ، تتماوج مع رقص سمك الفرى[2] .

كنت صغيرة ، غافلت الصياد ، أمسكت بزمبيل[3] الخوص الملىء ، قذفت بالسمك المكبن فى مجرى الهامبول[4] . . طاردنى الصياد وشحم بطنه المتهدل يعوق سرعته . وسط عيدان الذرة أجرى خائفة ، هذه ليست المرة الأولى التى أنقذ السمك المعذب من سجن زمبيله . أصعد بطن الجبل حيث البيوت والصياد يطاردنى ويشع شررا وسبابا . . وعند باب جدتى كورتى . . أنا ـ كورتى[5] أمسكنى الصياد . ولولاك ياصيام لهشم رأسى على مصطبة البيت . ما كادت يده تلتقط ضفائرى وصرخت رعبا حتى اندفعت تعضه فى يده ليرخى جدائل . ابتعدت أراقب صراع عودك النحيل مع الصياد . زعقت منادية :

أنا ـ كورتى . . أنا ـ كورتيبى . انتزعوك من براثنه وقد سال دمك وتورمت عينك . . والصياد تدمى يمناه ومقدم بطنه المتهدل من أثر أسنانك الحادة . . صيام . . ازددت حبا لك وبكيت إشفاقا على جروحك . رفيقى . . حتى وسط غابة سيقان القمح والذرة . . وفى الفاركى[6] . . ولما كبرنا قليلا . . لم يستطع مخلوق أن يبعدنى عنك . . لا بادعاء الغيب وأنا قد استوينا ، ولا بصفعات أبى ، ولا بتعنيف أخوالى ، ولا حتى بأقاويل عجائز الحائط .

أهابُ أبى وأمى اللذين يخافان على من جمال وعيون الشباب والكهول ، ليس لى إلا جدتى ، أجلس بجوارها فى ظل جدار بيتها على برش الحصير ، تتلفح بشالها الأحمر حتى فى الصيف وتعرى شعرها الذى يشتعل نارا بصبغة الحناء ، تحبنى وتحمينى من غضب ابنتها ، - أمى - ومن أبى الطيب ، تحكى : آشا ، أنت تشبهيننى كثيرا ، لكن الشبه التام بينك وبين أختى الراحلة آشا ـ آشرى[7] ابنة الكاشف[8] كانت أجمل الجميلات ، تعانق فيها بياض أبونا الكاشف التركى مع سمار أمنا بنت الجنوب ، فكانت كحليب امتزج فى العسل الأسود . . آشا . . لم ينطق اسمها إلا وتعقبه كلمة . . آشرى . . الجميلة . فكانت آشا ـ آشرى . طيبة كانت . . حالة ـ . . ثمرة جمال . . من ربيعها الثامن . . فى سنك هذه ، والنساء يخطبونها لأولادهم . . لم تتخط الثانية عشرة والمشادات تنشب بين الرجال عليها . . لم تسلم حتى من عيون الشيوخ . ولولا سلطة أبينا الكاشف

وخطورة منصبه المستمدة من الشمال .. لتزوجها العمدة وضمها زهرة وسط نسائه المتتابعات . جدتك آشا ـ آشرى كان قلبها شغوفا بناس النهر ، هوت الجلوس على الضفة .. تشرد ناظرة فى الماء السلسال .. ودائما كنت أسمعها تناجى ناس النهر . وعندما أحذرها من شغفها بهم .. تبتسم قائلة : كورق .. أختى المحبة .. لا تخافى .. ناس النهر مسالمون .. كورق .. لا تفشى سرى ياكورق .. وفى الليالى وبعيدا عن أعين ناس البلد تنزع آشا ملابسها .. تنزلق فى الهامبول وتسبح برفق ضاحكة ، يتهادى عودها الحلو مع الأمواج الحانية . تميل إلى الشاطىء وتهمس فى أذن .. رمال القاع طرية .. لينة .. لا يعكرها عدْو ذئب ولا سعى عقرب ولا زحف طريشة عمياء .. كورق .. يوما سيشف لى غطاء النهر مثل ملاءة بيضاء ينطوى عن سرير العنجريب[٩] ويكشف عن باطنه الطيب وناسه الطيبين .

رحل أبونا الكاشف ولم يعد .. عزله قساة الشمال . لم تكن جدتك قد اكتملت .. لكن العيون الجائعة نبحت .. ضمها عثمان وتشنج على جسدها الغض . تجمعت سلالات البيوت فى عصبية عائلية وكادت تقع معركة بينهم .

تعذبت آشا لما خنقوها فى محبسها داخل البيت إذعانا لحكم مشايخ البلد . قالوا إنها فتنة .. تقوّل عليها السفهاء . منعوا أختى من الجلوس على ضفة النهر لترقب رقة المياه وتناجى ناسه . حرموها حتى من ملء الجرار مع كوكبة الصبيات كل صباح وغروب . اختنقت آشا ـ آشرى خلف الجدران وانتابتها نوبات بكاء لما سمعت ثرثرة النساء بأنها ستكون سببا فى جريان الدماء فى بلدتنا التى تعيش الصفاء .

كانوا فى عرس فى النجع المجاور خلف الفاركى . غلبنى النعاس وغفلت عن آشا ـ آشرى .. وسط الليل عادوا .. لم يجدوها .. صحوت على هزاتهم القاسية لى وصراخهم .. اختفت من ليلتها .. اختفت جدتك آشا ـ آشرى .

لذلك عندما وضعتك أمك فى عام بناء الخزان وخرجت إلينا .. قطعت خلاصك وأنا أردد .. آشا .. آشا .. عادت آشا .. فأنت صورة منها .. سميتك آشا وأكمل ناس البلد الاسم فكنت مثل جدتك آشا ـ آشرى . لكن ياآشرى .. لا تلامسى النهر كثيرا .. ولا تشردى بشاطئه حين الفيضان والتفاف الماء وتسربه إلى الفاركى .. لا تتردى عليه وحدك .

صيام .. لاصق بيت أبيك بيت أنا ـ كورق . لاصق قلبى قلبك .. تكبرى بأعوام .. وتعلوا عنى كثيرا . كبرنا ياصيام .. أعشق نخلتىْ العشق .. هما نخلة متوسطة الطول تميل على النخلة الطويلة وكأنها فتاة تركن برأسها على صدر فتاها الفارع الطول .. قلت هذه القصيرة نخلتى أنا . آشا ـ آشرى . وتلك الطويلة هى أنت ياصيام .. هاتان نخلتا العشق .. نخلتا عشقنا .

ولما لوّث خزان الشمال وادينا ، رحلت حتى لامست أقدامك .

موج البحر المالح .

فى الفاركى .. مرشوق فيه صخور متفرقة كأنها نثرت عفوا وبضعة أحجار كبيرة . وفى الفيضان ، بعد بناء الخزان ، يتسرب الماء على الفاركى فيحاصرنا . يهرب من زحفه العقرب والثعبان الصاعدان إلى النجوع من باطن الجبل فتزيد حوادث اللدغ والموت المسموم . أطفالا ذهبنا إليه ، مرات ومرات ، أنا وأنت نعبر الجسر الحجرى الرفيع وحولنا الماء ، أمسك بجلبابك خوفا من السقوط . تنحسر المياه عن الرمال فى التحاريق ، تلهبها الشمس ، تلسع أقدامنا الحافية .. أقفز متعلقة على كتفك العالى . نرتقى صخرة . نلقى الرمال خشنة أعلى شقها ولنهبط مسرعين لنرى حبات الرمال تنسل من الشق وتتساقط ناعمة . نحزح قطع الأحجار لينكشف تحتها العقرب .. أصرخ مدعية الخوف وأبتعد ، يرفع العقرب ذيله المسموم ويرتجف مزاعوبا ، تحاوره . وتقرب قدمك من سلاحه .. ترقد أرضا وتقرب رأسك منه فى تحد وأنا أصرخ خوفا عليك بالطوب ، تقتله فى شجاعة ثم تسحبنى لنصعد للنجع ، كنت قلبى وهواى المجسد ، فلم رحلت ؟

قالت أمى .. صالح يريدك .. حادث أباك .. تزوجيه .. إذن ما رأيك فى دهب ؟ آشا ـ آشرى .. مواويل الولد منيب وغزله فيك تتسرب إلى القرى ويغنونها فى أعراسهم وفى سمرهم مع أقداح عرقى البلح .. دماغك ناشفة كالأتراك .. ما رأيك فى بحى ؟ إذن حسن .. بكرى .. زكريا .. ابن العمدة .. آشا .. أتعبت قلبى معك .. صيام غيابه طال .. أبوك وأخوالك يقولون إنك ستجلبين علينا المتاعب .

كيف يقترب منى رجل غير صيام ؟ رفيق طفولتى وصباى ؟ من استراح قلبى إليه قبل أن أعى ؟ من أحببت رائحة عرقه

وهو عائد من الحقل أغرمت برائحة العرقى من فيه وهو عائد من سهراته . . كثيرا ما بكيت وأبوه يضربه ، صيام ، كم كان منظرك حلوا وأنت تركب الكج[١٠] وقدماك تكادان تزحفان على الأرض من فرط طولك . . فى زحام الأعراس أفرح بك وأنت وسط مائة راقص . . على أضواء الكلوبات والمشاعل يبدو أعلى صدرك حيث تقويرة الجلباب الأبيض وبروز ترقوتك . . وجهك الأبنوسى وعمامتك فوق الجميع . . أنت تعلو على الجميع ياصيام كأنك لست منهم . لم يجرؤ منيب على إطلاق مواويله إلا بعد أن هاجرت . . لم يتعاجب ابن العمدة بطوله إلا بعد خلو الساحة من الأطول . . منك ياصيام .

أسير فى شريط الزرع الضيق أشرئب بروحى إلى البحر . أتنسم ملحه السكندرى حيث رسا صيام هناك ، على شمالى جبلنا الداكن وبيوتنا معلقة على بطنه . على يمينى هامبول النيل عريض رزين وخلفه الجبل الغربى وقد انحرف منه طرف ونام أملسا كفخذ ممتلىء ناصع داخل المجرى بأمتار قليلة ، أسير بجواره ، أحس عيون ناس البلد ترقبنى وجلة ، يتهامسون : سافر صيام ، قرأ الفاتحة على آشا - آشرى ورحل ، نسيها فى بهرج المدينة الشمالية . . من ينسى آشا - آشرى التى جمعت جمال الترك والنوب إلى « هلاس » مثل صيام . . الهلاس .

آه ياخزاناً من الركام . عمرك من عمرى . . ياغرق الأحباب . . صبوك على المجرى الرزين حجزت تيار الحياة المائى ففاض وقتل نصف أراضينا غرقا . النهر طيب مثل ناسه . . لكن الخزان كتم الماء فى إنائه الممدود ، أجبروه على الفوران كاللبن الذى يغلى . فعلا وفاض ، قضم نصف الوادى الأخضر فحرقه . . خنق صفوفاً من النخيل ولوث السلسبيل . عكر الزمن الهادىء النقى ، فرحلنا تاركين منازلنا البرحة ولجأنا لمنازل عليلة تعلقت على بطن الجبل كالبثور . زاحمنا العقارب فزاحمتنا . . طاردنا الثعابين فحاصرتنا . . عوى الذئب فى جوف آذاننا ، أى احذروا . . قاربتم حدودى . غرقنا فى صفرة الجبل الداكنة ، جزعت أرواحنا من صفرة الرمال الفاقعة ، والرمال العالية جدباء لا تطرح عود ذرة ولا تعطى حزمة برسيم . فقط تنفث العقرب وتدفىء فى باطنها حية الأجراس وحية الدفان .

شح الرزق . . هاجر الرجال شمالا حيث العمل الخانع الممنطق بالأحزمة الحمراء مثل وجوه السادة الإنجليز والبكوات . هاجر شمالا حيث بنات بحرى والماء المالح الذى لا يروى . . صيام . . أنا انتظرك . . نهرنا عذب . . بحرهم مالح . . متى تفهم ذلك وتعود ؟ هواؤنا جاف صحو . . سحبهم رطبة ممطرة ، تهرى اللحم وتهدل الجفن فتثقل الروح وتخور الهمة . . هل خارت همتك ياصيام ؟

فى مولد الشيخ شبيكة . . يركب البعض الركايب من حمير وجمال ، يطوون الرمال . . يتخطون النجوع والقرى ليصلوا إلى قبته . . أصر أنا ، فنركب نهر الخير هابطين مع التيار . وقبالة معابد « أبو سمبل » أمام تماثيل أجل الجميلات . . أميرتنا نفرتارى . . أميرة الجنوب . . على الأكف نضبط الإيقاع ونغنى لجمالها ولجمالنا . . فرحين . . نمدح طه الرسول ، نحلم بشباكه ، لكن أمام تماثيل رمسيس الأربعة ، أمام رمسيس المهيب ، لا نغنى ، فقط ننظر له فى صمت وعدم رضاء ، نبتسم للقرود التى تعلو جبله .

فى رحاب الربوة أمام مقام الشيخ شبيكة ، نشكو له حيرتنا بالأهات ، نتمتم بالقلق والخوف من الآتى .

نعود من الزيارة وهواء الشمال يدفع الشراع الأبيض لنصعد فوق التيار .

صيام . . كنت تسابق الصبيان سباحة فتسبقهم إلى الشط الغربى حيث أى الجبل ووضع فخذه فى الهامبول . تصعد الجرانيت الأملس . يصل بعدك الكل . . يصرخون بالأغانى لأسطورة الفتاة (فانا) . . ليسمعوا صدى أغانيهم من حنجرة الجبل الغربى فينزعج سطح النهر . . فانا . . بماذا أكلت . . باللبن أم بالسمن ؟

أما أنت فلا تغنى لأسطورة فانا . . لكن تغنى بصوتك العالى آشا . . بماذا أكلت ؟ باللبن أم بالسمن ؟

فيردد الصدى هيامك وضحكات الصبيان . أبتسم فرحة بإعلان حبك ، يغضب أبى وأخوالى ، يلعنونك أنت وأباك . تقول العجائز : قلة أدب ، إعلان اسم البنت قلة أدب ، هذه من دلائل أفول عصر الأصول وبداية العصر الأعرج . . عصر لا يعلم مدى حزنه وقلقه إلا ربنا ، الله ، الحفيظ .

أبى وأخوالى يتهمون أنا - كورق بتحريضى على انتظارك ، يخافون علىّ من الرجال والقيل والقال . يتوجسون من النهر خيفة ، لو أمكنهم حبسى فى البيت لفعلوا من سنوات ، صالح الغشيم سافر معك ، وصالح يعود كل شتاء . ملهوفا علىّ ، منيب يقطع علىّ هيام الشط ، على شادوفه يغنى لى مواويل ، تقول البنات إن الشادوف يثن فيمتزج الأنين مع المواويل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كجناحى طائر يحلق بالشوق مرفرفا فى سماء القرى العالية ، الكل يرغبون فى ، وأنا أنتظرك ياصيام ، فمتى تعود ؟

تباشير الفيضان ، أحمر بنى . يسبح ويطغى على أرضنا فى إصرار ، السمك يقفز فى نزق لاهيا ، يسقط بعضه على الأطراف الضحلة فيتقلب مختنقا ، غالبه من سمك الفرّى ، أحبه ؛ ألحق به ، أرفعه ، ينظر إلىّ بعيون بدون جفون ، يتماوج فمه الشهى ، أقبله وألقيه فى الهامبول . ناس البلد يضحكون منى ، آشا ـ آشرى هَوْتْ السمك وناس النهر : الأغبياء ، ألم يفهموا الدرس ؟ ألم يتعلموا مما جرى لصياد السمك ؟ عاقبه ناس النهر . . أنجب ابنة ذات شفة أرنبية !! تمدد الفيضان على الوادى الضيق فغطاه ، حجزنا فى منازلنا المعلقة . لا عمل لنا إلا فلاحة أحواض ضيقة صغيرة حول البيوت نزرعها خضراً ، وحتى هذه الأحواض المسلولة تطولها المياه وتقضم منها الجزء أو الكل . . شغلنا الوحيد هو استقبال عودة الرجال المهاجرين فى موسم العودة . يجتمع الشمل وتبدأ حفلات الزواج .

الأفراح تتوالى . ليالى النجوع تنار بالكلوبات والمشاعل . . طلقات البنادق ذات الروحين . . الرجال فى عروقهم نار العرقى ، يدقون الدفوف والكفوف ، يدكون الأرض بالأرجل فى وثبات إيقاعية شماخة ، تخفق قلوب العذارى وتتراقص خلاياهن فى فيض من الأغانى الجنوبية الحارة .

ووسط حلقة النساء أرقص رقصة الفرّى . . الخطوات سريعة فى دلال . الذراعان سويا للأمام والخلف . أشد نظرات الرجال ، تفرح بى البنات فى رضى فأنا فوق المنافسة وخارج ألسنة نار الغيرة ، أنا آشا ـ آشرى . . جمالا ورقصا ، الجمال هبة ظهر الكاشف التركى وبطن نفرتارى أميرة الجنوب . والرقص هبة من ناس النهر ، من سمك الفرّى الذى علمنى كيف أرقص رقصته على الأصول .

قبل الخزان كان الفيضان الحولى يهدر فى تؤدة متدفقا يملأ شريانه الممدودة . بنى الخير فى حمرة ، يحوى طميا مخصبا ، يتخلل الأرض الولادة فيحبل الوادى ويطلق بلايين من رضع خضر تشق بطن الأديم صاعدة تزهو تحت الشمس . زخم أخضر يستوى ويغلظ مسرّة للآكلين . . فلا يهاجرون .

آه ياصيام . . كل ليلة فرح وقلبى فى ترح . كل ليلة سفين عروس[11] تأخذها إلى بيت العريس . والنساء والصبايا صفوف خلف الرجال ينثرون الملح وماء الورد وعطر بنت السودان . ينشدون بأصواتهن الناعمة الرفيعة . .

على النبى صلينا . . عاشق النبى صلينا
صلينا واتولينا

صيام « يانساى » . . مرت خمسة فيضانات أطبقت على الأرض ، هدرت على الفاركى وفصلت النجوع وأحالتها إلى جزر ، خمسة مواسم للأعراس والرجال يحملون كل عريس ، وكل عريس يحمل سيفه عاليا . . يغنون له

ارفع ياعريس . . سيفك لضيوفك

تدق الدفوف رعدا والكفوف ، وتدك الأرض بالأرجل فى خيلاء الإيقاع الساخن ، أما زغاريد الإناث فهى أوتار نحاسية تصدح فى ليل العرس .

صيام يانساى . . صبيا أمسكت بسيف جدى من فوق عنجريب جدتى . قلت سترقص بهذا السيف المصقول فى ليلة ختانتا ، وستربط خنجرا أعلى الذراع فى ليلة دُخلتنا ، ستفرقع بالكرباج الطويل ، فلا تطولك كرابيج الأصدقاء المشاغبين ، فأنت القوى الطويل كالنخلة ، تغلق علينا الحجرة ، فلا يجرؤ أى شاب على اعتلاء سقف حجرتنا والكوة ليكشفنا . أقول لك . . قبل كل شىء . . حمام عرسنا فى النهر . . طهر . ليباركنا الوادى ويمنحنا الخصب . صيام يانساى . . ناس النهر يسألوننى عنك . . فماذا أجيب ؟

ذهب الشتاء وعاد . . مرات ذهب وعاد . تزوج صالح لغشيم من نفيسة . تعب شادوف منيب ، انحل من ضفيرة المواويل يأسا فتزوج ولم يبق لى الا النحيب والشادوف .

ابن العمدة رحل شمالا ، اختفى ، تصل الأخبار أنه تزوج بحراوية . تلطم أمه الخدود على ضياع الولد . . تدارى عارها من النساء وخجلها من أختها وابنة أختها المنتظرة . يحزن العمدة . . يطأطىء الرأس . . يجأر حين يواسيه الرجال ، ابنى مات ياهووى . . ولن أتقبل العزاء فيه .

الحمد لله . . أنت لست كابن العمدة . . ما زالت خطاباتك السنوية تصل . . تقول سأصل . . ولاتصل .

سنين أراقب سفينة البوستة . . أوزة بيضاء منقارها يخرج من ظهرها ينفث سوادا . . وهى البيضاء !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى حلقة الفرّى . . تعبت الفتيات الأصغر منى . راقصت الأمهات . أنا أميرة الفرّى . . انفلتت صبية قاربت العاشرة فى جرأة وواجهتنى لترقص ، ابتسمت لها . إنها ابنة صالح الغشيم ونفيسة . . والله كبرتِ ياقاطم نفيسة ودخلت حلقة الفرّى . . جيل جديد يتطلع للمكتوب . . التعب يتصاعد لساقى فى خرر والجفاف واليبس ينموان داخلى . . تعالى ياقاطم أعلمك أصول الفرّى . . هكذا المداورة . . وانحراف المناورة . . والخجل المتصنع فى لىّ الرقبة . . وهكذا الرأس مائلة . . ذراعاك سويا للأمام والخلف . . ضوّعى العود . . اخفى نصف الوجه بالطرحة البناتى ثم اكشفيه . . تقدمى من صفوف الرجال الملهوفين كأنك ستغرقين فى بحرهم ثم انفلتى ليتلمظوا . . بنت !! لا تزيدى فى الدلال فهو مكروه ويجلب التقول . . تعلمى ياابنة الغشيم . . الّمح عيون أمها نفيسة وهى ترقص وسط صفوف النساء حول الحلقة . . على جبينها قرص الرحمن ، فهى متزوجة وقرص الرحمن للمتزوجات فقط . عيونها راضية على ابنتها ، فخورة بها . . بختك يانفيسة . . لك صالح حتى وإن كان غشيما ابن غشيم . رجل رواك وأطلق منك قاطم فابتسم قلبك . . تزف العروس . . على النبى صلينا . . على الرسول صلينا . . صلينا وانولينا .

لا يجرؤ على ركوب حافة النهر قبل الفجر إلا من قُد قلبه من صخر . قلبى أنا حليب أبيض ، لكنى أركب الشط . أداعب الماء وناس النهر . لا أخاف عفريت الباتل ولا أهاب جنية الماء أنا فى حماية سمك الفرّى . . حماية ناس النهر . صيام النساى غائب عنى ، أنا ـ كورق شاخت وتتساند على عصا الجريد فمن لى غيركم ياناس النهر ؟ صيام الهلاس يعمل فى قصر على ساحل البحر ، تزامله امرأة الجريح ، يقال إنها مربية أطفال « كماريرة » ـ لا تخجل . صيام يشرب خمر البكوات والخواجات فيتطوح بعمود نخلته فيسقط على الجريجية . صيام . . أنت لا تصوم . . رحلت شملا . . التففت حول الخزان الكثيب وتخطيت الجندل حتى انكببت على البحر تعب منه وهو ما لح . . صيام . . رحلت . . وتركت الصيام لى .

سقط الرضيع فى الكلُوو[١٢] مسه حارس الجوف ، اختل عقله . . فكان كلوو ـ تو[١٣] تلبسه اللطف . بعينه الحولاء يتخطى عصاته الكج وبفمه الواسع ينطق بالموعود . يلتقط ورقة يعطيها لمن سيصله خطاب . يناول الحجر للمرأة فيأتيها طرد ملىء بالخيرات من زوج أو ابن مهاجر . يقول الكلمة غامضة فتفسرها الأيام بعد حين .

كلوو ـ أعطى رفيقاى الورق والأحجار . نطق لهن . . دمك يافلانه سايل . تتزوج فلانة فى الشتاء ويسيل دمها . بطنك ياعلانه كبير فيتفسخ البطن . وكلما بشر واحدة ينظر لصدرها فى شراهة .

فتنحنى له ، يمد يده فى عبها ويمسك الصدر خطفا لحلاوة البشارة . تضحك الفتيات . . يجرى كلوو ـ تو ممتطيا عصاته الكج . كل رفيقاى أخذن منه البشارة . وحتى الفتيات الأصغر فالأصغر أمسك منهن الصدر . تزوجن وأطلقن من الأحشاء ثمرتها . لكن كلوو ـ تو لم يبشرنى أبدا . فقط عيناه الحولاء تحوم وتشتهى قبضة صدرى .

أجلس على النهر . النيل المبارك يتهادى كحلم . دوامائه دقيقة رقيقة كأنها غمازات سمحة فى جسد بنت خربة ربانة تتهادى فى خفر . نيلنا فوقه وحوله هالة من الشفافية . وشوشة أمواجه هادئة كخطو وليد بضّ . نسمته عطر يضمخ الكون فأشرب أنا منه بعينى . . بأنفى . . ومسامى . جبلنا والسماء قبل طلوع الشمس درجات من اللون الرصاصى مبرقش بالفضة . شريط الخضرة الضيق الطويل يتنفس فيزفر سكرا يتصاعد . وسباطات البلح تبث أريجها عرقى ربانى محسوس غير مرئى . يشمل الجريد يهتز لينا على أسقف النخل فيخلط العطور البكرية ويوزعها بالحب .

ساقاى فى برد الماء المنعش . ياناس النهر . رشقوا الخزان على عودك الممتد فانبعجت علينا . نشزوا به على لحنك الأبدى المهيب تحمل ياعود النهر الريان فأنا مثلك . . نشز الخزان حياتى . ولدت فى عامه فكان شؤما على . الخزان طرد صيام من بلدتنا . غمرق الشوق والشجن وضوّعنى الحرمان . ياناس النهر . . حطموا الخزان . . انفروا العضل غضبا . . فيضانا قويا لا يسيل على الأجناب . . بل ينطح الجدار العالى ويلقيه ألف طوبة وطوبة . . احملوا بقايا هدده واذروها بعيدا . . بعيدا . . والطوبة الأخيرة هناك . . تقذف على بحرهم المالح حيث القصر الذى يحوى صيام فى جلبابه المكوى وحزامه الأحمر . . فلتسقط الطوبة على بنت الجريح الكالحة .

على المرسى . . رست البوستة ، تدلك منها سقالة النزول . هبط المغتربون يحملون طرود الطعام والكساء . أهاليهم ينتظرون بالركايب . الأمهات يأخذونهم بالأحضان . الزوجات يمنعهن الخجل عن إعلان شوقهن وحرمانهن . أعلم أن « صيام » ليس فيهم . . أعلم . . لكنى وسط الجميع

أشاهد . محجوبا يرتدى بدلة الأفندى . هبط من السقالة وهو يبالغ فى تمثيل القلق أن تطول المياه ملابسه . يختلس النظرات إلىّ مغرورا بنفسه . ضحكت فضحك . . أنا أضحك عليه . . يسير برقة مصطنعة حتى لا يتخلل الحذاء حبات رمل . خيبتك ياحجوب أفندى تركت جلبابنا وتحذلقت بالحلة الشمالية . ألقيت بالطاقية والعمامة الشماء ووضعت الطربوش الأحمر بلون مؤخرة القرد . تسير على الرمال وسيرك على الرمال عجب . . لا أنت جنوبى ولا أنت شمالى . . لا منّا ولا منهم . تتصبب عرقا وتخطو خجلا كالغراب . . لا هو عصفور يسير . . ولا هو أبو الفصاد يقفز .

قبل المغرب . . أهبط وسط جيل جديد من الفتيات لنملأ الجرار . كلثومة العجفاء يجانبى . كلوو ـ تو يركب عصاته الكج ويسوقها بيد وبيد يقضم حبة خيار . أصبحت شابا ياكلوو ـ تو لكنك مازلت عبيطا . اندس وسطنا والفتيات يضحكن معه . . أنزلن الجرار . التف كلوو ـ تو . .

واجهنا ضاحكا . . يتقدم إلى بعينه الحولاء . . رقص قلبى . . أخيرا البشارة . . ملنا جميعا عليه . . تمعن كلوو ـ تو فىّ أنا . قال : مبروك عريسك . . ثم مد يده بقطعة الخيار إلى كلثومة . طفت الفرحة من ضبها . انكتم قلبى حسرة قرصت البنات كلثومة حسدا ومرحا . زادت كلثومة ميلها ليتجمع هزيل صدرها ويأخذ كلوو ـ تو الحلاوة . كلوو ـ تو ما زال ينظر الىّ . . تشتهينى أنا ياأحول الكلب ولا تعطينى البشارة ! أخذ حقه منها . يجرى ممتطيا عصاته الكج ، خلفه طرف العصا يشق الرمال ومن أمامه طرفا عصاتين مشدودتين .

فى الشتاء القادم سيكون عرس فاطم نفيسة . . فاطم بنت صالح الغشيم . تقول نفيسة : سترقصين فى عرس فاطم كما لم ترقصى من قبل ياآشا . . إنها ابنتى . . ابنة صديقتك .

آه . . جيل آخر يتزوج . إلى متى أكون نوّارة أفراح للأخريات ؟ جيل بعد جيل يرتدين قرص الرحمن متدليا على الجبين . . متزوجات وأنا أنتظر . أأرقص فى عرس فاطم ابنة الغشيم الذى تحرق وطها علىّ إلى متى أستمر فراشة تحترق لأسعد نظر ناس البلد ؟ النساء يقلن إن جمال آشا ـ آشرى لا يطارده الزمن . لا يعلمن أنى أقاوم السقوط أمامهن إن اليبس احتل القلب والكبد من سنين أدارى الوخز فى الحشا حتى لا يؤثر فى الوجه لون الدوم . . ليذهب الجمال . . ليأكله الزمن كما يأكل الخزان أرضنا . مقابل أن أرتدى قرص الرحمن على الجبين . . وأتزوج صيام .

مئات من رحلات سفينة البوستة صعدت جنوبا . . وعادت تنزلق شمالا . صيام الهلاس لم يأت . . النساى تسبنى إلا من خطاب كل عام لأبى ، يقول ساق ولا يأتى . . يشرب من الماء المالح وقد حذرته أنا ـ كورتى . . ياصيام . . احذر الماء المالح . . إنه لا يروى . . يزيدك عطشا ويسحب منك العافية . . آه . . لو شبكت نصيحة أنا ـ كورتى حلقا فى أذنك كنت أنقذتنى وأنقذت سيرتك . كلام ناس البلد كثير . . لاموا أبى وأخوالى . شقشقت نساء البلد فى الكلام ياصيام . تحسرت البنات علىّ . . كل هذا الجمال . . حليب آشا ـ آشرى الوردى كالطمى الطازج . . الحلو كالعجوة . . الطرى كالسمن . . يجف هنا . وصيام النساى مع بنات بحرى والكمارية الجريحية !! آه ياهلاس . . لن تروى هناك . وستعود .

كلوو ـ تو يأتينى عدوا على عصاه الكيج . يلوّح بورقة . . وقف أمامى يلهث ويرصد صدرى . . قلبى يخفق . . البشارة . . أعطانى الورقة . . مبللة . . لم ينطق . . الفرحة تعصف بى . . ضحكت . . أدور حول نفسى . . حضنت الورقة . أخيرا . . صيام . . صيام . . يافرحتك ياآشا ـ آشرى . . سيعود بالبوستة . . ياجمالك ياسفينة البوستة . . ستعودين جنوبا بصيام . . منقارك فى الظهر من حقه أن ينفث حصادا أخضر من حقه أن ينفث ضبابا راقصا مثل الفرّى . . لا دخانا أسود بعد اليوم . انحنيت لأعطى من صدرى الحلاوة . . لكن . . كلوو ـ تو . . اختفى . ألصقت الورقة على لحمى بأعلى الصدر الملهوف ضغطت عليها فانعصرت قطرة دمع ثلجية أبحرت فى مجرى الصدر الساخن .

وصل الخطاب فى سفينة البوستة . . سيصل صيام فى البوستة التالية . أبلغت ناس النهر مباحة ، فتواثب الفرّى حولى رقصا . أبلغت ناس البلد عدواً ، فرحت النجوع .

فى الليل . . مع جلسة الرجال ، تسلل الفزع . . قال القادمون إن صيام مريض . . سيعود ممددا يرافقه صالح الغشيم ويرعاه .

فى حضنها الهش أصابعها وأنفاسها الضعيفة على شعرى المسكوب . . تصبرنى جدتى : حفيدتى . . صابريه . . صابريه[١٤] المكتوب . . مكتوب . تحمل قدرك ياآشا . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جوف صيام امتلأ بماء البحر . . وخر الشمال . أضع رأسى على كتفها . . أنا ـ كورق . . ستعالجينه . . ستسحبين الرطوبة المالحة من ظهره بكاسات الهواء والنار . . بالموسمى تفصدين جبينه وسمانة ساقه فينز الدم الفاسد . ستدلكين جسده بالكحول الأحمر والخل . . بزيت الخروع وأعشاب الجبل . . تلفينه بالصوف حتى تتقيأ خلاياه رائحة الجريجية وتبصق فساد المدينة .

صباح مشرق . لا أجد كلوو ـ تو . أبحث عنه مثلما أبحث طوال أسبوع كامل . ألمحه على رمال الفاركى . يدور ممتطيا عصاة الكج . . أصرخ : هووى . . كلوو ـ تو هووى . . تعال . . تأخرت سفينة البوستة متى تصل ؟ انطق . . ماذا ؟ هى فى قاع النهر ؟ خذ هذه الطوبة على رأسك ياأحول الشؤم .

الجمال المسرعة تنقل خبر الحادث . يتعالى الصراخ قرية بعد قرية صاعدا إلى الجنوب مع صعود الجمال بالخبر . فتشق الجيوب وتدمى القلوب . وصلتنا الجمال . . غرقت البوستة قبالة رمسيس أبو سمبل ؟

ناس البلد كلهم فى حشد أسود على ضفاف النهر . النساء يولولن . التوتر مرعب فى عيون لا يسى العمائم . أنت مركب تنوح بالشراع ، تحمل الناجين من بلدتنا . . النساء يقذفن العويل ويضعن باطن الكف على الرأس وبالأخرى يضربن عليها ويصرخن . . وَىْ . . وَىْ . . وَىْ . قبل أن تتأكد البلدة من الذى نجا ومن الذى رحل . . كنت أنا أعرف . . ونبت على المركب . أمسكت بتلابيب صالح الغشيم . . كدنا نسقط فى الماء . . أين صيام ياغشيم ؟ كنت معه . . لم تركته يغرق ؟ تموت أنت ويبقى لى صيام . . أنت الغشيم . . هو المتعاجب الطويل . . نزعوني بعيدا عنه وفتات من لحمه فى أظافرى وأسنانى . . نبكى على البر . . وصالح وبقية الناجين يبكون على المركب . . يقسمون . . كان الغرق فى لمحة . . سريعا عنيفا كالكابوس . . صيام لم يساعدنا على إنقاذه . . لم يحاول حتى الاعتدال من رقدته . . غاص إلى القاع كأنه رضى بالغرق حكما . . . . . وجثته لم نعثر عليها .

كل قرية فقدت غريقا أو أكثر . . النجوع كلها . . الجنوب النوبى كله مأتم على ضحايا الكارثة .

لن أتزوجك ياصيام . . لن ألقى برأسى على صدرك مثل نخلتينا . . نخلتى العشق . .

الليل . . الزحام فى العزاء . النساء والفتيات حولى فى بكاء وصراخ . . حفاة . . أزاواجا أزواجا متقابلات . . أياديهن لأعلى تلوح بالطرح البناتى السوداء . يطلقن الحداء فى نغم حزين يعصر الروح . القدم تتحرك خطوة للجانب ثم تعود قبل أن تخطو الأخرى لجانبها . ثم تتداخل المتقابلات فى حضن بعضهن ملقيات الرؤوس على الأكتاف باكيات منهنهات . ثم ينتفضن صارخات رافعات الأيادى بالطرح يلوحن بها لقبة السماء . . للمكتوب الذى غرق . تعديد المئات من النساء ولوعتهن المنغمة فى رقصة الثكل تهز الكون الهادىء فيخرج من صمته ويؤوب معهن .

ثار شيخ الجامع . قام إلى النساء يسبهن . . لعنة الله عليكن . . مثواكن النار . . تنشرن الرمال على الرؤوس وتعددن !! لم تأبه به واحدة . . يؤس الليلة لا يحس بعمقه رجل . غور الشج فى قلب النساء كربه لا يطاق . هن السكينة وفقدن السكينة . يبكين صيام ويبكين مكتوب الهجرة على أزواجهن وأبنائهن . مرعوبات من مستقبل غامض يندبن قدرهن . . هجرة الرجال إلى الشمال حيث نساء الشمال البيض المتبرجات وخطرهن . . يبقى لهن حرقة الشمس وجفاف البلد الغريق . . قدر مقدر . . يوما سيرحلن أيضا خلف الرجال إلى اتجاه البحر المالح بعد ما يستكمل الخزان الكبير ويبتلع البقية الباقية من البلاد .

آه ياقرانا التى تجبر عليها النيل . . آه ياقرانا التى يسرح فى جبلها الذئب . . ويسبح على سطح رمالها العقرب ، ويغوص فيه الثعبان . كم أنت آمنة .

نظرات الشفقة والتوجس تثيرنى . . انفلت منهن . . أسرعت إلى طرف النجع . . بحر الليل سود رمال الفاركى أسفل منى ، أطير إليها وعليها . . أجلس القرفصاء . . أنتفض بعنف . . لحقت بى الفتيات . . اقتربن منى وسط الظلام . . أضحك . . أنتصب واقفة كشبح . . أتحرك فى خطوات سريعة وقصيرة . . الفتيات فى ذهول . . جننت آشا ـ آشرى . . من ترقص الفرى فى مأتم من تحب . . مجنونة . أعادونى للنجع . . أهرب . . أسرع إلى نخلتى العشق . . أحتضن النخلة الذكر الهيفاء . . لا تستطيع أيديهن أن تنتزعنى منها . . أحتضنها حتى تتراشق حراشيفها فى لحمى فتوغل فيه . . قطعونى منها .

تمنوا لى البكاء حتى ترتد لمرقدها عيناى الجاحظتان . تعمدت الفتيات احتضانى والبكاء فى أذنى . . لن أبكى . . أصيام أبكى ؟ صيام يغرق ؟ كيف ؟ صيام سباح النهر يغرق

ياتساء الجنوب ؟ إنه يتدلل . . المتعاجب الطويل يتدلل . . يعلم أن القرية فى شح . . عرج هو إلى ناس النهر فعندهم شهوات السمع والبصر . . العرقى تيار جار لا ينضب وكثرته لا تضرب الدماغ بالصداع . . سأنتظره . . سأنتظره . . إنه يسمر ويرقص مع جنيات الماء . . لن أشترك فى طقوس رقصة الثكل . . لن أطوِّح ، بالطرحة البناتى فى الهواء أشوِّح للمكتوب .

تـأجلت سلسلة الأفراح . . تحل ريان جسدى فى أيام معدودات تغضنت بشرتى . الدموع محبوسة خلف خزان يأسى فغاضت داخلى وأغرقت القلب . تشرب منها اللحم وابتل منها العظم حتى النخاع . الليالى سوداء . محاق القمر . انزويت عن ناس البر وناس النهر . عويت كذئب . أندفع مرات أقصد الوادى الغريق والنهر يلحقون بى . . أحبس . تشنجت أرغو وأخور . لا أهدأ إلا مع أنا ـ كورتى . تمسح شعرى باكية . . حبسوك ياآشا مثلما حبسوا جدتك آشا . صابربه . . صابربه . . تذكرى اللطيف . . صابربه . . صابربه .

بدأت الأفراح الباهتة . . تناسوا صيام . يجب أن تقام الأعراس قبل رحيل المهاجرين إلى الشمال . العرس الأول كان عرس فاطم ابنة نفيسة والغشيم . لا ينتظر ناس البلد أن ترقص لهم آشا ـ آشرى رقصة الفرى لتسكر الرجال بدون عرقى وتخدرهم بدون دخان البانجو . كل ناس البلد فى حالة العرس . . ذهب ناس الغرقى ليبقوا جانبا صامتين . العرس ماسخ . فطعم كارثة البوسته جاثم على النفوس . الكلوبات والمشاعل لونها أصفر شاحب . . الأكف ضعيفة والدفوف مترهلة تلفظ الدقات خائبة فتتساقط أرضا لا تهز خلايا العذارى ولا تصعد رناتها لذرى الجبل فلا يرتد صدى . . عوى الذئب استهزاء وقهقة الضبع سخرية . . ونامت حية الدفان مطمئنة .

أمى بجوارى فى فناء دارنا . . أنا ـ كورتى مضطجعة ناعسة يقظانة امتد الليل فناما . . غفت الحارستان . . رقدت على ظهرى . . النسّاى مات . . عندما تذكر . . مات . النجوم عيون رمد . ابتلت السماء بندى وغبشت مصابيحها عندما ابتلت عيناى بالدموع لأول مرة بعد غرق صيام كتمت التشنج حتى لا أوقظ النيام . تسللت . . وقفت بجوار آخر بيت معلق . . أنظر إلى الوادى الغارق أسفل منى . أكله الفيضان . إيه يانهرنا . . أمضغوك زرعنا غصبا . . آه . . الهامبول السرمدى وسط البحيرة الضحلة . . ما زلت أعرفه . . ذهب ينساب فى إصرار إلى الشمال ، نشرت عليه انعكاسات النجوم فبدت كالعمائم الفضية . . إنها عمائم ناس النهر . غيمة الشتاء ، عبرت تحت النجوم ، صار فخذ الجبل الغربى ضبابياً ينحنى ليشرب من الماء . . انمحت العمائم . . يالله . . يانبى . . يارسول . انفتح غطاء النهر . . انسحبت الملاءة الشفافة . . شهقت . . تصلبت . . كفى عـلى أم رأسى والأخرى تخبط عليهـا . . وَىْ . . وَىْ . . وَىْ انكشف الغطاء . . ناس النهر يدعوننى ، وأنا ـ آشا . . وصيام . عدوت إلى بيت أنا ـ كورتى . . الأزقة الحجرية خالية . . البيوت صامتة . . ناس البلد كلهم فى عرس ابنة نفيسة ، دخلت بيت كورتى . قبلت الجدار الفاصل بينه وبين بيت صيام . . احتضنته وتشنجت ما شاء لى . . فى حجرة أنا ـ كورتى صندوق السحارة المزخرف . . فتحته . . استخرج من قرارة الذهب . . قرص الرحمن . . أعلقه فيتدلى لى وسط جبهتى عقد الذهب يتدلى حتى الوسط . . غطانى الذهب . . آه . . عروس كاملة أنا . . أضحك فرحة . . الليلة ليلة عرسى على صيام المتعاجب . أتجه إلى العنجريب . . أترك المداس وأصعد فألتقط السيف المعلق . . ألوّح به عاليا . . أغنى فى بحة غاصة بالدمع مع المالح . . ارفع ياعريس . . سيفك لضيوفك .

تقلبت أنا ـ كورتى . . أفقت . . لكن أين آشا ؟ مسحت الفناء بالعين الكليلة . تدفع جذعها المحنى مستندة على عصا الجريد . تدخل الحجرات الضيقة . أين آشا ؟ لكزت بنتها . . أين ابنتك ؟ أين آشا ؟ ويلنا .

أسرعتا ناحية ساحة عرس بنت نفيسة فربما جذبها رقص الفرى من عنقها . . أين آشا يابنات البلد ؟ يارجال أين آشا ؟ ياسكارى العرقى . . ياسكارى الجنوب . . يامساطيل فوق الخزان . . أين آشرى ؟ أفيقوا . . أين آشا ـ آشرى ؟ ليست وسط الزحام . . هرولوا إلى بيت كورتى . فى المقدمة أبوها وأخواها والأم المرعوبة تلاحقهم . ليست فى الفناء . . دخلوا الحجرات . . لا أحد . . لكن فى حجرة كورتى وجدوا الصندوق السحارة مفتوحا والمحتويات مبعثرة . . صالح خالى : اختفى الذهب !! قالت الأم : لكن أين آشا ؟ اتجهت أنا ـ كورتى للعنجريب . . المداس ملقى . . السيف !! السيف اختفى !! رفعت الطرحة البناتى عن شعرها الدامى ولوحت إلى السقف . . صاحت : ياأهل المروّة ياهووه[١٥] ياأهل المروّة ياهووه أسرعوا إلى النهر عن طريق النخلتين . . ياناس البلد . . آشا ـ آشرى اتجهت إلى ناس النهر .

انفجر عويل الأم حادا .

اتجه الجمع إلى بحيرة الحزن . من باطن الجبل يتساقطون عدوا لا سفل . فهم الجميع . . آشا ـ آشرى اتجهت إلى الغرق . الأب والأخوال والرجال فى المقدمة والنساء فى المؤخرة والأم تصرخ ، عويلها برق أسود يخطف سمع الفضاء ويمزقه . الجدة فى الخلف تدفع جذعها وتكاد تنكب على وجهها لولا عصا الجريد .

قاربت آشا ـ آشرى الهامبول العميق . . المياه وصلت أعلى الأفخاذ آشا تسحب ساقيها فى ماء الفيضان . . طمى الخصب المخنوق ثقيل .

يدها مرفوعة بالسيف تلوّح به تغنى نادبة ارفع ياعريس . . ارفع ياصيام . . . تعثر . . تتوازن ضاحكة باكية . . سيفك لضيوفك . . تلمع عيناها مع انعكاسات النجوم على الماء . . على النبى صلينا . . تشهق غاصة بالدموع . . على المصطفى صلينا . . صلينا واتولينا . النجم الكبير هو فرص الرحمن على جبين الماء . . ناس النهر سيزفوننا . . على النبى صلينا . . على المصطفى صلينا . . الفرى سيرقص لنا ياصيام . تتقدم آشا . . صلينا واتولينا . خفق هدرها المتعب يزاحمه شخير الإرهاق . . الأصوات من الخلف تلاحقها منادية . . آشا . . آشا . . آشرى هوارى . . آشا هووى . . آشا !! . نداءات خشنة بحناجر الرجال ونداءات حادة باكية بحناجر النساء . الصرخات تنطلق كالسهام المجهلة فتمزق سكون الليل وتموج سطح الماء . . نباط نداء أهل المروة ياهووه . . نباط أنا ـ كورق الضعيف يزحف متعبا .

ميزت آشا نداء جدتها . وقفت . تلفتت . الكلوبات والمشاعل المتوهجة تتحدر والجلاليب البيض تتهدل من بطن الجبل إلى السهل الغريق . يقتربون مسرعين من نخلتىْ العشق . وسط كل صراخهم لا يدخل وعيها إلا نداء أنا ـ كورق الباكى . . أهل المروةْ ياهووه . . لكن آشا عادت بحدة فى مواجهة الهامبول . السيف يرقص أعلاها . . شلشلة الذهب على جسدها توائمه يتوامم مع رقص عمائم الفضة على لجين الماء الذى يعلو ويعلو موجه فيخايل عينيها بانعكاسات العمائم ويقذف الرذاذ على الوجه ليختلط بالدموع .

توقف الصغار صفا ممتدا على جانبى نخلتىْ العشق والماء أعلى سيقانهم . واصل جمع ناس القرية سحب أجسادهم فى ماء الفيضان . الكلوبات والمشاعل مرفوعة لأعلى . سبحت بضعة قوارب تبحث وقد انتهت أمام كل منها كلوب . ساح خليط الرجال والنساء وسط ماء الفيضان فى كل اتجاه . ألقى بعضهم بأنفسهم فى الهامبول يبحثون فى ظلام جاسم ثقيل وأطواد الجبال المحيطة تزيدهم بدكنتها حرقة أسى لا تستطيع الكلوبات والمشاعل أن تبعث إلا ارتعاشات ضوء يائسة . انحرس نقيق الضفادع وصرير الجنادب . . عويل الأم والنساء .

ما كاد يخيل لعين أن دكنة طافية حتى تشير الأيادى إليها ويزداد العويل ثم ينكشف أنها سراب الحسرة . . سحبوا الأم للخلف والصراخ لا يتوقف من قلبها .

بحر الصغار أنا ـ كورق تركت عصاها . ركعت على ركبتها فوصل الماء إلى الصدر . . هبطت بجذعها المحنى حتى الماء ثم رفعت رأسها ووجهها ، يداها من أسفل تحمل الطين الأسود الراكد مخلطا بطمى الخصب . . ترفعه لأعلى فيثر منه الماء على نار شعرها المحنى . تضع الطمى على رأسها وهى تنوح بصوت خافت مذبوح

ياأهل المروّة ياهووه . . آشا ـ آشرى رحلت

ياأهل المروّه ياهووه . . آشا ـ آشرى رحلت إلى ناس النهر .

الاسكندرية : حجاج حسن أدول

الهوامش :

١ ـ اشا : عائشة .
٢ ـ سمك القرى : سمك البلطى
٣ ـ مقصب
٤ ـ الهامبول : مجرى النهر
٥ ـ أنا ـ كورق : الجدة كورق
٦ ـ الفاركى : الخور
٧ ـ اشا ـ آشرى : عائشة الجميلة
٨ ـ الكاشف : الحاكم التركى
٩ ـ سرير العنجريب : سرير من جريد النخل
١٠ ـ الكيح : الحمار
١١ ـ مغنى عروس : زفة ذات أناشيد صوفية .
١٢ ـ الكلوب : البئر
١٣ ـ كلوب ـ تو : ابن البئر
١٤ ـ صابريه : اصبرى
١٥ ـ ياأهل المروّة : ياأهل المروءة

قصة | لحن الهارب القديم

هكذا . . ؟ لماذا لا تودين انتظاري كما انتظرتك حتى تكبري . . وربت على كتفك بضفائري الصغيرة . . نعم . . أعلم أن وقتك ليس أطول من الطعم اللذيذ الغامض في لعاب أو عبث الروايات . . لكني لست على ذلك القدر من التفاهة . . كما أني لست على يقين تام بأنني قد أجدت هواية القراءة وحس الندم . . ومع ذلك سوف أتجنب زعمي المتواصل بأنني أفضل الصديقات لأدباء معروفين في المجتمع .

ولعلك تذكرين أنني يوما أخبرتك بأنني وعدت بتقديم بحث كبير عن اختلاجة الأعضاء أثناء مخاض الإبداع وأثر الجوع . . وهذا سرٌ بيننا ، فالداعي إلى ذلك لم يكن أكثر من أنني أكره الجمود بل إني لست أعرف إن كنت أكره أم أخشى أن يفهم أحدهم ممن لا يلمحون لماذا كثرة تحركاتي ؟!

وقد أحببت دائما أن أناديك (ياصغيرتي) في بعثرة مناجاتي رغم أنه يثيرني عصبيا أن أغضبك بأي شيء كما يجرح أذن طقطقة سرير متآكل عجوز . . وكنت تشفقين عليّ وأنا أهز رأسي متذكرة حركات بعض الممثلين الفرنسيين وتسمعين مناجاتي حتى تقنعيني أنني أكبر يوما بعد يوم رغم أنفي ، وأن عيني جميلتان خاصة لما أنظر إليك بنظرات الارتياب البريئة . . كنت أجتهد ما في وسعي أن أزعم لنفسي أنك قد تفهمين أنني أستعطفك بنظراتي دون أن أظهر ذلك ! وقد كنت أدهش من نفسي ساعتها إذ أني اعترفت كثيرا في أعماقي بأنني لست خجولة . . وكنت رغم هذا أتجنب بعض نظراتك الحادة المشجعة ، ولم أحاول مطلقا ولعلي عجزت ، أن تصدر عني حركة تلقائية تنبيء عن باقي مظهري حتى أخرج في النهاية بمقلب طفولي يؤكد براءة عيني !

ولقد حاولت كثيرا أن أؤكد للكثيرين كم أجيد الانصات ، ولم أخط تجاعيد أعناقهم وزيغ أبصارهم في سياعدهم والخطوط الوهمية في أدمغتهم إذ تصغي إليّ فيتغير كل هذا بتوالي تراجع رأيهم في .

ومارست لعبة هجر الجميع . . فقد كنت أهوى تعلم اللغات الغريبة . .

واليوم . . هاأنت ترين . . جئت إليك بسروال أزرق يرسم راية أجنبية . . وقد حرصت على أن أرتديه اليوم بهدوء حتى لا أتصور أنه أكبر مني ! وحتى تلاحظي رشاقتي الجديدة ومدى استعمالي للخطوات اللامتناسقة التي ستدل على مرحى بعد أن أضجرتك يوما بالحديث عن طبعي الملول . . وحزني على افتقاد من أحبوني مع أني لم أعرف أحدا ولاسيما حين تصورت أنك قد أنجبتني . . وقد شهدت لي في نهاية لقائنا أنني قد عرفت كيف أحب أيامك مادمت أمشي بلا مبالاة ككل شباب الغدو واخترق زحامك ! ثم أضفت بعناد إلى جسدي حذاءً متربا لا أعلم عنه شيئا سوى أنني أحببته أن يظل يذكرني بصورة تخيلتها فانبهرت بنفسي للغاية ساعتها . . كانت صورة شعرات امرأة كهياج الضباب ترتدي الحذاء الطويل مقلوبا !! ولم ألتفت خلفي ، بسبب غروري بالصورة ، حتى أشاهد هذا المنظر !

ورغم هذا كله ، فقد لا أكون فى إطار تلك الصوره السيريالية التى ستتكون حين أجىء لك وقد علقت فوق عينى زجاج عوينات شمسية خضراء ، وفى جيبى أبرزت عوينات طبية وقلم حبر ودعوة إلى ندوة ثقافية خالية من الجمهور !

نعم .. أقسم لك أنى أجيد فن التحدث .. وفن الهرولة .. كما أهوى جمع قصاصات كل كلمة أتصور أنها تولد قصيدة ، بل ومتابعة زفيرك حتى أحيل عنك أية تخلخلات كلامية .. لقد تذكرت منذ يومين أنك ضحكت على حذقى لتوسيع فمى الصغير وإبراز قواطع أسنانى عندما أرتفع قليلا برأسى حتى أفقد بعض فراستى فى إجابة استفساراتك .. وكنت أتناسى حركة كتفى حتى لا أزعم أنهما غبيتان .. كما أنى حزنت فى لحظة غامضة على أن لم أمشط خصلاتى الأمامية حتى تزيح أثقال كلامى السخيف عن الإبداع من أمامك وحتى لا تلاحظى أننى لا أتورع عن إبداء أية لمحة لإبراز جاذبية جفونى .

وانقطعت عنك لأنام فى هدير غبارك حتى الصباح .. أفقت على أنينك وأنت تغطين فى نومك منهكة .. وغطيتك بقصاصات من أوراقى وقصدير الأكواخ العارية المتناثرة من حولك .. وكان دفء صفيح القمامة يقرقع من أثر عث أحد المارين بحثاً عن طعام .. كان القمر الرمادى يميل بخده متكئا على رذاذ الريح فيداعبك ، ويلوح لى شبه ابتسامة مرة على شفتيك .. ونبرة خافتة تنهرنى أن أوقظك بثرثرة مرة أخرى .

ونسيت حلمى .. وآثرت ألا أقاطعك بحديثى عن تداعيات ذاكرتى برغم شعورى أن ذاكرتك لابد أن تكون أقوى كرائحة البخور .. كان لدى المزيد من التمتع عن إثارة الغموض والصراخ المكتوم .. ولمت نفسى لم أحك لك كل شىء عندما أصغيت لى .. ولعل لم أدخل الفرحة المفتقدة إلى قلبك الطيب بينما كنت تغوصين نحو النوم وطوفان الشاطىء الشرقى الرهيب يرسو .

ونمت فوق انبساط ارتعاشك ونامت وعودى لك أن أشدو بين أحضانك وأعبر النيل مرتين كل ليلة وبعثرتنى جذور دموعى المجنونة عندما لمحت رائحة الجنين العارى الذى انتظرته .. فجئتك لأتراخى وحدى حتى تترامى على وجهى خصلة من خصلات جسدك .. فأكتب وأهث نحو أنداء قصصى القصيرة .. فتنشر على مرمى رمال الشواطىء غربا وشرقا .. « دعينى أتشبث بعينك الحلوتين وأتمرغ فى حدائق جفونك .. دون أن تهجرينى ككل مرة .. أعدك أن أنسى تلك الرفوف من الكلمات الهائمة .. قد مللت حدائق المديد البعيدة .. على الرغم أنك قد غطيتنى بحبك ومارست لعبة القرب والبعد فلم أمل نفسى لأنى أعرف أنك امتلكتنى دون صخب »

لماذا لا تودين انتظارى .. لقد خيل إلىّ أنك ستكونين ربة لوحى قصصى وملهمتى .. فقبل أن أنسى .. اسألينى مرة أخرى كيف كنت فى الماضى .. إن برهة توقف فى الحديث هى من علامات العباقرة .. أعلم أنك لا تصدقين .. فقد كنت أهوى مقاطعة أفكارك .. لكنى أحبك هكذا .. وأنت لا تصدقين .. لأنى سوف أستمتع بعينيك تتابعان بريق عبقريتى ..

أؤكد لك رغم هذا أننى لم أدر بعد قيمة الوقت رغم شد وعى فى تعلم ممارسته .. كما أؤكد لك أننى هادئة .. وقد كنت من الذكاء بحيث استغللت هدوئى هذا ومحوت الغبار من فوق ساعتى واستعرت جيتار أحد الشبان الزنوج المتموجين فى بودابست ، وظللت مصممة على أنه قد أحبنى بلا شك ، فقد كانت الشوارع تنام فى مقلتى كمسحوق « بودرة » البشرة .. وكان الشفق أحمر جميلا وقد أمسكت بوردة ناعسة انتزعتها برقة من خلف ظهر الشاب النهر ، فاضطر الشاب إلى أن يشبهنى بها .. وظللت أعزف أوتارا متقطعة وأنا أزعم لنفسى أننى سأكون قد أبدعت لحنا جديدا قد يوافق لحن الهارب القديم حين يطلع الصباح فأسمعه بلوز تلك الليلة القصديرية التى تمنتها معك فى العراء .. ثم جرفنى عبق المسحوق الذى يظلل وجنتىّ ورائحة العطر الفرنسى إلى مائدة فتاة تهوى دفء الشمس فى ضفافك فسكبت المشروبات الهفهافة وفرقشت رقائق الصحون وتركت للجميلة حديثا عن سحر الرمال الشرقية وكتابا يحكى قصة « آمون » كما اعترفت لى أن عينى أغنيتان وأنهما مكحلتان .. كالفراعنة ! ولما فجأنا الغروب شددتها من ضفائرها الصفراء محاولة أن أغمز بعينى وجريت كى ألهث .. فقد كانت رغبة الضحك محتبسة للأبد فى احمرار مقلتى ، ووقفت آكل البلاط الأصفر المندى بطلاء خطوات العشاق اللامعة وأنا واثقة من أنه قد تبزغ لى فى المستقبل هواية النحت فجأة .. أليس هذا الولعى بك ؟

أحبك أن تضحكى منى حتى تساعدينى فى تذكر كيف كنت رائعة .. وكان لى موقف من هذا الكون لا أدريه .. ولكن قبل هذا ألا تشعرين ببعض ذرات الرمال وقد لصقت بأهدابى ، وأنى باردة الكفين قليلا .. كنت دائما هكذا هناك .. وهذا لأنى لم أنسك .. ولو أن أكاد أتذكر أنك أوصيتنى أن أغفل عن تلك الأمور الصغيرة التى تزعج تواصل أفكارى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد خيل إلى أن أحدا من أصدقائى قد أوصانى بهذا فى رسالة له طويتها فى محفظتى التى حرصت على أن أشتريها فاخرة ، ثم أعجب بها أحد الصحفيين المارين فأهديتها له لعله يكتب عن عينى اللتين تنحدران من أصل فرعونى ينحر حتى تفاصيلها . . فيذيع الخبر فى الصحف اليومية !

ولعلك دعوت لى أن أكف عن هلوساتى ، فقد وجدت صحيفة وقد لصقت بسروالى دون أن أدرى ، وظل يلاحقنى جنسونها ، فزعمت أنها أحدث التقاليع ! وفجأتنى بسخريتك . . وشرعت الأكاذيب تتدفق منى شلالا بقدر عمق شفتى . . لازلت أعتقد أنك هناك . . لكنى لا أكاد أذكر . . فقد كنت أرتجف حين ألوح لك كالعنقود الذى يشع برائحة ألوان زيتية ، وكنت كلما تطلعين تنطفىء المدن البعيدة حول خصرى فأنكفىء أبنى قصورا وطواحين وسواقى وحقول قطن وحواجز خيل هرمة أرمم بها تجاويف غوصك فى . . ثم تغمضين جفون وتبدو أهدابى مشعثة . .

إن إشفاقك المرجو علىّ لسوف يدعو دلالى أن أذكرك بأنك أنت التى أخبرتنى أننى أحبك . . وقصرت عنى محاولات بحثى الدائبة دون جدوى عن رموز ومعنى تختفى خلفه قصصى ونهايات « كريشندو » مزعومة لا تفجرها شواطئك الحزينة ولا ظلال خوفك على « فقد تراءت لك رملة « آمون » المتحجرة الملساء تقيع فى ظل خلخال راقصة حول القدم ! وتغنى للجيتار الأمريكى النهم .

وكنت أبتسم ، فى حفل دولى صاخب ، لرابطة عنق غريبة قلدونى إياها . . وتصورت ، بسبب كبر حجمها وشدة سوادها اللامع ، وبسبب بريق الكأس فى يدى أنك قد اختفيت وأنى سأبحث عنك ، فمضيت أحفر لظلك الأخير بينما كانت الرمال المبللة بالندى تحمر وتكتسب لونك ثم تنفجر نحو الشمس !

القاهرة : منار حسن فتح الباب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

الضحك المستحيل

كان المقهى السياحى فى وسط القاهرة . وله اسم فرعونى لا يعطى معنى ، وعليه عصفور يفرد جناحاً واحداً يظللنا ، وكنا نجلس بجوار النافذة الزجاجية المغبشة بلون العسل المخمّر .

أول مرة أتعاطى مشروباً تتعانق فيه فقاقيع الثلج المحروش فى أكواب تتلألأ كطيف .

وهى تفرج عن الدخان الحبيس بين أسنانها

- ألم تسافر خارج مصر ؟ !

- . . . . . .

« أمى على مشارف الرحيل . وتحتاجنى الآن . تحتاجنى . تعيش بين جدران خرساء فى عزبة على مشارف الطرق تحاصرها الوحدة والغربة وجفاف الأهل . »

وهى تحدق فى عينىّ فأرى ذاتى عارياً .

- حزنك جارف . . وابتسامتك مرّة .

لما سألتها ضحكتْ . .

- تزوجنا فى البلدية هروباً من المراسيم .

ألقيت الدرع عن الصدر ، وكتمتُ جرحى ، والحزن على الوجه المنحوت من عمق الأيام التى تغبّرت بطرح السهام الكاشفة .

قالت . . « ننام فى حجرات بلا جدران » .

أخذت حذرى من أبله متسخ الجلد ، عجرى الشعر ، عارى الأعضاء ، يمشى للخلف حافى القدمين . يضرب الناس على الصدغ . ولا يقبل صدقة . غافلنى . صفعنى . وضحك .

كانت أمى تضع كفها المعروق على جبينى ، وتقرأ التعاويذ المعلقة على جدار الذاكرة . . وتوصينى بالحذر .

قلت :

« أنا وأمى نلوذ بحجر فى بدروم مظلم . . بارد كقلوب البغايا . » .

طلبت منى أن نزور حىّ البغايا . .

قلت : ألغى .

حدّقت فىّ طويلاً . . طويلاً :

- منذ متى ؟!

ازدرد وجهى .

تعرى فخذها ، وهى تضع ساقاً على ساق . . نحيلاً ، أبنوسياً .

غطيته .

- سألتنى عيناها : أتغطينى ؟!

- أغار على رفيقتى من مسغبة العيون .

- وعيونك .

- محرومة . . . ووقحة

وتدور رسمت شكلا . . كان الشكل صورة للفنى الذى يجاورنى ويهتف وكانت له عيون تبتسم .

سمعت جلبة وأصواتا مكتومة . . اندفعت نحو الفنى أشباح مجهولة دهموه . . قاوم . . جروه ، وبينما كان وجهه يبتعد ، مائت فى أذنى وعلى شفتيه نصف صرخة ، وسال فى القلب دمه .

القاهرة : فؤاد قنديل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمود عبد الفتاح إبراهيم

قصة

• أب
• شتاء

أ ب

كأنّه القطرة البللورية وسط الجمع الصغير الواقف على بُعدِ خطواتٍ من المخفر ، بجلبابه الأزرق الزاهى الذى لم يفقدْ ـ بعد ـ بريقَ جدته عقب أيام العيد الثلاثة . تعلّق بثوب أمه ، ثم حَمَلته كى يرى الأبَ المقتادَ إلى الداخل .

- دخْلوه الأوضه يا امّه !

تعلّقت نظرات الأمّ بغرفة الحبس ، ثم عادت تتلوّى من وضع الصغير الذى انشغل بمراقبة الأزرار اللامعة . . والبدل الصفراء للعسكر .

- همّا بيعملوا إيه فى الأوضه يا امه ؟

خيط جديد ربط عينيها بغرفة الحبس ، فلا تتحول ، وإنما تبرق عيناها ، ويكتسى الوجه بحمرة . أدار الطفل وجهه ليرقبها .

ثم انداحت الدمعات متسابقةً على الخدين ، تابعها الطفل واحدةً واحدة .

- بتعيطى ليه يا امه ؟ ، هو ابويا ح يغيب جُوّه ؟

أنزلته أمه على أرض الطوار ، صعد فوق حجر صغير ، وعلّق عينيه بالغرفة .

وحين خرج الرجلُ ذاهلَ النظرات ، كانت صفعاتُ العسكر تدفعه خطوات كبيرة للأمام ، فيكاد ينكفىء ، لكنه يعتدل . . . صامتاً ، فتسوقه صفعات جديدة . . . حتى اختفى .

كان الصغير قد دفن رأسه بثوب أمه ، ثم تشبّث بساقيها . . . بقوة .

شتاء

تتضاءلُ مُنكّبةً وخلفها صاحب (السينما) يتثاءب ، فأرقب على ظهرِ يدها عنكبوتَ العروق الأزرق ، يشتبك مع دفتر تذاكرها الوردىّ .

البرد الذى قسم بشرةَ يدها إلى لونين للموت ، كانَ أيضاً يُصلّبُ أصابعَها الخالية من الحلىّ على قلم تؤشر به . رفعتْ الوجهَ المتيبّس فطالعتنى عينان فيهما بقايا قوس قزح بعد المطر . ابتسمتْ لمّا امتدّتْ نظرتُها لرفيقتى ، فتأجّج البريق :

- مقعدان . . آخر صف . . هه ؟

أجفلتْ فتاتى وتراجعتْ خطوتين للوراء ، فأقلقتْ خصلاتِ شعرها المنسدل على الكتف ، ستارٌ من حمرةٍ موردة كان يسدل على خدّيها بسرعة .

ملتُ بجسدى على شباكها خجلاً ، وبالصوت الخفيض :

نعم ، مقعدين ، آخر صف .

لكن نظرتها الحانية انتزعت ابتسامةً جاهدت أن أصلّبها على

وجهى وقتاً ، الرجل نسىَ تثاؤبَه وابتسمَ لفتاتى فى نزق المذعور .

لمّا خرجتُ قبل الانتهاء ، كان الرجل قد استلقى على مقعد فى ركن قصىٍّ عن الباب . . . وأغلق عينيه . هى ، كانت ترسمُ ملامحَ اعتذار لفتى يتقدم فتاته ، ويميل على شباكها ، انطفأ آخرُ لونٍ من قوس عينيها ، وضببها دخانُ حزنٍ لم أتبين له سبباً وهى تشير للفتى إلى ساعتها ، لكن يدها الناحلة أسرعتْ لتثبتَ التذكرة الوحيدة الباقية ، التى كانت ترتعش مع هبّاتِ الهواء ، القوية . . . المتعاقبة .

القاهرة : محمود عبد الفتاح إبراهيم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

نجمة الفجر

النابلم ، وكتابة على الصفحة البيضاء ، وتتجمع الذراع فى ضماد . هذه العين ظلت سليمة ، العين الأخرى رائعة . . تحفة من زجاج دائما مشرعة . . لكنها عين على أية حال تخفى بطريقتها الخاصة الأحزان . .

والوجه الصلب لا يعرف العطف لأنه لا يقترب بعد لكنه يتناسب مع روح العصر لجموده وعدم القدرة على الفهم .

والتعرض للشمس مهم . . والدقة أهم . . فلقد نسى أنه نسى فى اليوم التالى أن يربط فكه بالمسامير ، حتى حين تذكر ، مسامير الفك السفلى فى حالة ارتخاء لكن المرضة الصغيرة تتحمل العبء وتعيد الفك إلى مكانه وهذا متفق عليه لأن الذراع المتجمعة فى ضماد معلقة فى شاش ملوث بالدم . .

مبتور الساقين . . يشبه جذعاً برأس وعين ، والمرضة كوممارس تهوى التمثيل . . فى أوقات النوم ، وأيضا فى غير أوقات النوم . . تأخذ المرضة الفك لتنظيفه وتفريغه من بقايا الطعام ، وفى أحسن الأحوال ، عندما يكون مزاجها رائقا تعطر الفك بعد التنظيف ، وتضعه فى المكان الذى يرغب فيه ، ثم تصلح الرباط الذى يحتاج إليه ، إذ أنه فى حاجة إلى رباط يلزمه الفراش ، لأنه ما إن يدخل فى النوم حتى يندفع فى نوبات تشنجية محاولا المشى ، وبنفس هذا الاندفاع يعود إلى الفراش بعد الصدمات الكهربائية صامتا بعينه الزجاجية لا يتذكر شيئا .

قلبه يصلح لأشياء كثيرة ، وهذه هى المرة الأولى التى يحاول فيها التكلم بالفم الصناعى ، أخذ يفتش عن الكلمات ، وحسب تعليمات الاستخدام أخذ صدره يعلو ويهبط ويدفع الهواء فى الفم الصناعى ، الذى بدأ ينغلق وينفتح من تلقاء نفسه فى غير نظام . وهنا عندما وجدت المرضة أنه على وشك الهيجان ، وتشبثا مع الخطة المرسومة للعلاج . شدت المرضة الرباط ، وأحكمت الوثاق ، وكانت آسفة لذلك ، لكن التعليمات الحازمة تمنعها من الوقوف عند حد التأسفات . .

وخفض رأسه ليقول للممرضة كلمة الشكر . . لكن اللسان خرج من المنيم البلاستيك أسفل الفك . . وحولت المرضة وجهها بنظرة متألقة تقول لا تحزن سوف تعتاد على قالب اللسان . فقط اخفض رأسك عند الكلام ولا تحاول أن تقول أى شىء بانفعال .

وحاول هو الابتسام والابتسام بالنسبة للوجه الصلب مستحيل . لكنك تستطيع ذلك فيما بعد إذا واظبت على التدريب . هكذا قالت المرضة ضاحكة وبطرف إصبعها أعادت اللسان إلى منيمه فى قالبه أسفل الفك .

وفى الليل جاءت إليه وحدها تتأكد من إحكام قيده فى الفراش ، إذ أنه وطوال الليل فى محاولة دائبة ومستمرة لحل الوثاق . . هذه المحاولات تتطلب الكثير من العناء والجهد ، ويجب أن تتم فى السر ، والمهم أن يحاول ثم يكافأ على ذلك بالربط .

وعندما رآها تتلصص عليه رفع اصبعه ليتكلم لكن المرضة

الصغيرة التى كانت تتسحب فى الظلام قالت «هس» وعندئذ تجح وحده ودون مساعدة من أحد أن يعيد لسانه إلى مكانه أسفل الفك .

الوجه الصناعى يتفق تماما مع السن . بعض المكياج والألوان الحديثة كى يناسب لون الوجه لون البشرة . والعين الزجاجية تتميز بأهداب صناعية . زينة وأبهة . والأهداب مهيأة لأن تنغلق من تلقاء نفسها حين ينام وتنفتح وحدها فى هدوء حين يهم بالنهوض . . والوجه الصناعى يكاد يكون طبيعيا للغاية وهذا العجز الذى يظهر فى الوجه لا يرجع إليه . إنما إلى قصور وعدم مواظبة فى التدريب .

تابع بنظره اللسان وقد استقر فى مكانه ، إنه مزهو بنفسه لأنه استطاع أن يعيد اللسان إلى الوضع السليم داخل الفك ، مزهو أيضا لأنه ركب الأذن الصفراء التى بها خطوط دقيقة تشبه الشرايين . . وتكفى أذن واحدة ، حتى يمكنه النوم ، الأذن الثانية يحتفظ بها كاحتياط ، لأنها غالية باهظة التكاليف ، كما أنها حساسة بوسعها التقاط حتى أبعد الأصوات .

ومن غير الممكن أن تظهر معالم الخوف ، هذا الوجه لا يخاف ولا يخشى شيئا لكنه وبدون تدريب لا يكون طبيعيا ، وعليه أن يقوم بمجهود كبير كى يظل هذا الوجه جميلا . . وستائر النقاب التى سلمت إليه تحافظ عليه من التراب .

الأجزاء الطبيعية من اللحم يجب أن تعرض من آن لآخر للضوء والمحارب القديم يقول « ليس هناك ما أخفيه » وقد أقلع نهائيا عن خلع الوجه الصناعى لأن الأجزاء الطبيعية من اللحم الحى تتضخم أثناء النوم . وبالفعل ، من عند الأطراف ، تكلست مساحات من اللحم وأصبحت كالزجاج ، ويمكن أن تكون هذه الأجزاء بلا حس . . ووضع إبرة فى اتجاه عمودى وغرزها فى هذا اللحم يرضيه إلى أبعد حد ، والمهم الصمود ، والعمق الذى تصل إليه الإبرة غريب .

أغلقت الممرضة النافذة خوف البرد ، فلاحظ لمعان الجورب الحريمى من الخلف . . إنها ما زالت ترقبه لترى ما إذا كان غائبا فى النوم أم أنه يحاول حل الوثاق ، وحين التقت عينه بعينها ، استبدت به رغبة فى البكاء لكن البكاء مثل الابتسام مستحيل بغير مهارة فائقة فى التدريب .

أثناء النوم لا حاجة إلى كل الوجوه . . مفتونا بهذا الاكتشاف قرر أن يخصص وجها للضيوف ووجها للنساء ووجها للأطفال . . وعند النوم الوجه الرئيس ـ النابلم ـ يأمر وينهى بغير أن يكون قادرا على فعل أى شىء والحق أن باستطاعته أن يأكل كما يشاء دون مضغ ، وأن يظل الطعام واقفا فى الحلق وقد ضاعف هو من الجهد لازدراده ، وبواسطة يد يمكن طيها . . يتم دفع الطعام إلى المعدة والتغلب على المفاجآت الكامنة التى تعترض مسار الغذاء . .

كذلك تجربة التأمل لا غنى عنها ، يسره أن يكون له أصدقاء . معظم هؤلاء الأصدقاء من حملة الأجهزة الأكثر تطورا . . لكنهم بالطبع يقدرون خبرته الكبيرة ، الغالبية من هؤلاء الأصدقاء جاءوا فى طوابير طويلة على عجلات المعوقين يجذبهم حب الاستطلاع .

إنهم فى الحقيقة يشكون فى إمكان الإنجاب . . وهو لا ينفك يجيب على الأسئلة التى توجه إليه ويضحك للنكات ، والسرور حقيقى إلى درجة بعيدة ، والانبساط أنساهم السؤال الذى يتردد على كل لسان !

أما الطفل فهو طبيعى . . وشرعى . . وله صراخ . . والزائرون يتفحصون الطفل جزءا جزءا ـ ليس فيه « ستى » واحد بلاستك ـ جميل وطبيعى ولا يكف عن البكاء .

ذهب النهار بطيئا بعض الشىء وعلى مهل جاء الظلام . . لم يبق إلا أن يدعو الأصدقاء لتناول العشاء والسمر طوال الليل . أما مع الصحافة ورؤساء التحرير . . والممثلات الجميلات اللاتى يجئن لرفع المعنويات فإنه يؤثر الصمت لأنه يتعلم أشياء كثيرة دون كلام ، وطريقة غير محسوسة يقول « هذا طفل طبيعى ، وأنا رجل طبيعى ، ولا شىء يضيع »

وأصبح صاحبنا مدرسة فى الفلسفة ، وقد دهش لذلك أول الأمر ، وكان بمقدوره أن يحدد المناطق الخطرة فى العقل ، مناطق الاكتئاب السوداء التى يعلم أنها فى النهاية سوف تقضى عليه .

وبفضل هذا الاكتشاف ، أصبح سعيدا لا يطالب بشىء ، ومع ذلك فهى سعادة حقيقية فهذا الطفل طفله ، وهذا الوجه وجهه . . وهو لا يفهم ماذا يقصدون بكلمة قناع .

لقد ذهب بعيدا فى تأملاته . . ومع ذلك أبقى الوجه الصلب بالقرب منه . . والأسئلة مرة أخرى ترغمه على التأمل ، وهى أسئلة حادة لا تسمح بأى تراخ أو تعميم . وكان ينهى الإجابات الصعبة بحضور دائم ، ويجد نفسه منصاعا بعض الشىء إذ يضطر للصمت .

إنه لا يستطيع الإجابة ، على كل سؤال . . لذلك يلجأ أحيانا إلى قطع الحديث الجذاب . . ويقف بعيدا بعض الشىء ليتلقى نوعا من الإلهام ثم يعود للإجابة على السؤال الصعب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعينه تتألق بالضوء . . والمزاح واجب . . والأسئلة أمامه جميعها هامة وبغير استثناء . . ويبتسم إذ يضحك الأصدقاء ويفكر أحيانا أن للغضب حسنات . .

ونهائيا نفض عن جسده الحلم . . وستارا كثيفا وضعه عليه . . وشبح الاكتئاب يمر على وجه الزوجة الإنسان . . فيضمها إليه فى حنان .

ومن سوء الحظ . . من سوء الحظ بدأ جسده يكبر ويتمدد دون أن تنمو وتكبر الأجهزة التى ركبت عليه . . صحيح توجد فراغات كثيرة فى هذه الأجهزة لتوسيع الأحجام ، لكنها الآن لم تعد كافية لتعويض الزيادة فى الوزن .

« الرياضة » قال لنفسه « سوف أعبر المانش » نعم سوف أعبر المانش ! وبمثل هذا الاستسلام قبل التمدد فى جسده الحى ، وقد عاد عليه هذا القرار بالنفع . . فقد استطاع فى الماء أن يتحرك كما يشاء دون أن يشعر بالعجز .

وكان صوته الذى تكلم وقال « البندقية » ثم ضحك وقد ذهب لوجهه الحقيقى كى يعود الوجه اليه لكنه عندما ألقى نفسه فى البحر لم يكن فى حاجة لشىء ، وهذا الوجه شاهد عليه ، هنا على الأقل ـ فى البحر يستطيع أن يتكلم مع أحد . . وهذا صحيح فهو لا يرى أية غضاضة فى أن يترك نفسه للتيار ، وكان يشعر أنه قادر على عبور المحيط . . وغالبا كان المقصود بالحديث الوصول إلى الوجه المدفون فى الرمل ، أو على الأقل تمضية بعض الوقت ، فلم يعد الآن يغادر على قبول أى شىء . . لكل قناع حدود ، وهو مجبر أن يموت أو يتعامل مع أقنعة ليست لها حدود .

إنه لا يستقبل الأمواج لأن الأمواج لا تأتى إليه إنما يذهب هو إليها بذراع واحدة لا تكف عن اللطم . .

بهذا اللطم يطعن الماء ، يعبر البحر ، يتجه إلى البلد الذى جاء بالقناع ـ اذن فاهم يتراكم ـ ومناطق الاكتئاب السوداء تفلت من الحصار .

وبظهور مفاجىء تقدم الشاطىء اليه ، وكانت هى هناك ترفع العلم المصرى . . وعليه أولا أن يقبل الزوجة التى قدمت له النهدين ثم يسلم على الملكة ويقبل الميدالية وبعد ذلك ينحنى للتصفيق . . لكنه حين لامس أرض الشاطىء راح يقفز على ركبته كالشيطان . . وكان من الجلى أنه رجل تحول إلى نبات وجاء طافيا على الماء ، غير أن الجماهير القليلة التى كانت هناك استمرت فى التصفيق . .

وتحل نهاية الليل . . فينحنى على نفسه وهو ينظر إلى صورته المنتصرة على صفحات الجرائد ، وتظهر نفس الصورة مرة أو مرتين على الشاشة فى نشرات الأخبار وتكلمت الزوجة وهى نائمة تسأل عن شىء . . . ؟ » ولم يجب وبعد قليل كان هو أيضا مستغرقا فى النوم .

ومرة أخرى تخرج الزوجة من تعبها لتقول « . . . . ؟ » ولم يرد . وكان يعلم أنها تطلب منه النوم . . . النوم هو المهم . . . وهو يعلم جيدا أنه نائم ، وأنه سوف يستيقظ نهائيا من هذا النوم ، فالسرير عريض للغاية مثل المحيط ، والغرفة الغارقة امتلأت بالنجوم . .

وراح الهواء القادم من البحار يعصف بالستائر والوجه الساكن . . وهو يواظب على طعن الماء ، يكاد يصل إلى الشاطىء . . لكنه يشعر بصعوبة الآن والشاطىء يبتعد فى الضباب . . أما اليد المتجمعة فى الضماد فقد سقطت وتدلت من الفراش . . لكنه يعيد اليد إليه وكأنها يد صديق عزيز يسلم عليه باشتياق ، وعندما يمضى هذا الصديق يعلم ما يقوله عنه من الخلف . .

ولا ليس الأمر كذلك ، إنما هو بالفعل بدأ يصحو من هذا النوم ، وفى الفجر كان المطر ينهمر ، والأصوات التى تصل إليه من بعيد لا تعنيه . . وقد انتهى الإرسال والجهاز يوشوش بانتظام .

لقد أردت أن تعلم وعلمت . . قال لنفسه فى وهن على العكس ـ هذا القناع لا يموت ولا يشارك فى الأحزان وهو يخيف الرجال كما يخيف الأطفال ـ إنه يكتشف كل ذلك الآن ويفهم مالم يستطع فهمه من قبل . . . ثم انطفأ المصباح وحده ، وبدوى مكتوم توقف الجهاز عن الإرسال ، ومن وسط الشاشة قفزت نجمة صغيرة راحت تصعد إلى السينما وهى تتألق وتضىء الكون بوهج يخطف الأبصار كالمغنسيوم . . ورويدا رويدا راحت النجمة تذوى وتتلاشى فى البعيد ثم عم الظلام المريب . . وسرعان ما خيم السكون . . وإذ ذاك سمعت أصوات الأمطار تنهمر فى رتابة .

أبى الدسوقى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سمير فوزى

قصة

ترانيم على وتر مشدود

مع الجدران والأبواب والنوافذ المغلقة تشعر بالحرية .. تركوها وحيدة وخرجوا .. لن يعودوا قبل يومين .. تستطيع الآن أن تفعل أى شىء داخل البيت .. تدخل كل الحجرات .. تخرج منها .. تغلق الأبواب وتفتحها .. المطبخ تلقى نظرة وتغادره .. تغنى بصوت عال .. تجلس على الكنبة الوحيدة فى الصالة وتمدد ساقيها فى استرخاء .. تقف .. تلمس يدها فى صدرها تخرج شريط الكاسيت .. تقوم .. تدفع بابه حجرة والديها فى سعادة .. من جوار فراشها تلتقط جهاز التسجيل .. تعرف جيداً ما بداخله «شريط ابتهالات دينية للشيخ شرف المنوفى» تفرغه .. تجرى إلى حجرتها .. تدندن ـ «يا خارجه من باب الحمام وكل خد عليه خوخه» .

تضع الشريط الآخر فى الجهاز .. موسيقى شرقية راقصة تؤنس وحشة الحجرة ... تتسلل إلى داخلها ... تلعب بحواسها يرقص كلها .. تخلع جلبابها الكستور فتبدو بقميص نومها طويل الأكمام والذيل ... تعلى الصوت .. تتمايل .. يهتز جسدها فى نشوة .. تلتقط طرحتها السمراء من على السرير .. تلفها حول خصرها .. تعتلى السرير ... تزيح التربيعة من على رأسها فتندلق جدائل شعرها على كتفيها .. تهز وسطها وترخيه مع إيقاع الموسيقى .. ليلى وعزة ترقصان الديسكو .. سمعته معهما مرة فى عيد ميلاد ليلى .. لم تستطع أن ترقص مثلهما .. هما يعرفان وهى لا تعرف .. لم تتخرج مثلهما من الجامعة أو حتى تدخل المدرسة ... صفعة قوية من أبيها تسقط على خدها وهى طفلة تبكى بحرقة .. يهددها أبوها قبل أن تخرج «ممنوع الخروج من عتبة الباب» .

تلقى بأبيها بعيداً .. بعيداً وتهتز بشدة والسرير تحت قدميها يهتز .. تهبط إلى الأرض .. تنفك جدائل شعرها تجرى إلى الصالة .. الموسيقى العالية تتبعها ... تتسلل إلى حجرة والديها ... تزف عرقاً ... تخرج أنفاسها فى حركة راقصة من صدرها الذى يعلو ويهبط بانتظام ... عزة وليلى تراقصان شابين فى حلقة الديسكو .. ليس أمامها سوى صورة والدها المعلقة على الحائط ... تنزعها ... تضمها إلى صدرها بين ذراعيها وهى تتحرك مع الموسيقى .. شاربه المفتول لا يخيفها ... تلف يقف خلف الباب الرئيسى .. تراه ... تكمل دورتها .. تراه مرة أخرى .. لا تصدق .. الباب مغلق كيف دخل ؟ يقف مبحلقاً .. الجدران أمام عينيها تضيق وتتسع .. أنفاسها تحتبس .. الموسيقى تبكى .. تصرخ .. لا يتحرك .. يحمل حقيبة كتبه بين ذراعيه الصغيرتين .. الحروف المغمى عليها فى حلقها تهوى إلى جوفها ... يضحك بصوت عال .. يرى أخته ترقص لأول مرة .. قامته القصيرة تهتز مع ضحكاته المتواصلة ـ «أنت بتعرفى ترقصى !» .

تحاول إيقاظ الكلمات .. تتمنع عليها .. تنسحب من أمامه إلى حجرتها .. يدخل وراءها .. تتجه إلى الجهاز ... يرتمى على الجهاز يحتضنه ويجرى به إلى الصالة والموسيقى مستمرة .. تجرى وراءه :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- «دخلت ازاى ؟»
- «بالمفتاح»
- «مفتاح إيه ؟»
- « مفتاح أبويا . . . إداه لى إمبارح وهو مسافر عشان أقفل عليك من بره . . »

تسقط عينا الطفل على الطرحة حول خصرها فيمتلىء ضحكاً وهو يتمايل مع الموسيقى . . . تنظر إليها فتبتلع ريقها خجلاً وتحاول فكها فيمنعها . . . تمديدها لتغلق الجهاز فيزجه بعيداً عنها . . تتثلج . . . تتلاحق الأنغام وتسقط صورة الأب على الأرض . . . يقترب منها ويمسك بيديها يريدها أن تراقصه . . ترفض . . تبعده فى خوف . . يعاود . . خائفة هى ومازال يضحك هادئاً وهو يطلبها للرقص . . . ترقص . . . .

٩ - الخيمة : سمير فوزى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فولفجانج بورشرت
ترجمه: سمير مينا

• من الأدب الألماني الحديث

قصة

حكايات من كتاب المطالعة

كل الناس لديها ماكينة خياطة وراديو وثلاجة وتليفون . . وتساءل صاحب المصنع : فماذا نصنع ؟

أجاب المخترع : قنابل .

أجاب اللواء : حرب .

وقال صاحب المصنع : نعم . . إذا لم يكن هناك مناص من ذلك .

كان الرجل ذو المعطف الأبيض يدون أرقاما على الورقة . ثم أضاف بعض الحروف الصغيرة الرقيقة للغاية . خلع المعطف الأبيض وأخذ يعتنى بالزهور المزروعة فى أحواض على النافذة لمدة ساعة . حزن حزناً شديداً إلى درجة البكاء عندما لاحظ أن إحدى الأزهار قد ذبلت . ما تزال الأرقام على الورقة . . يستطيع المرء بنصف جرام من المادة الناتجة عن هذه الأرقام أن يقتل ألف إنسان فى ساعتين !

وسطعت الشمس على الأزهار ، . . وعلى الورقة أيضا .

رجلان يتبادلان الحديث :

التكاليف ؟

بالقيشانى ؟

بالقيشانى الأخضر بالطبع .

أربعون ألفا .

أربعون ألفا ؟ لا بأس . . نعم ياعزيزى ، فلو لم أغير نشاطى من تصنيع الشيكولاته إلى تصنيع البارود فى الوقت المناسب ، لما كان فى استطاعتى أن أدفع لك الأربعين ألفاً .

ولا أن أعطيك الحمام لتكسوه بالقيشانى الأخضر .

بالقيشانى الأخضر .

وافترق الرجلان .

كان أحدهما صاحب مصنع والآخر مقاولاً .

وكانت الحرب مشتعلة .

ساحة لعب « الكيجيل »[1] رجلان يتبادلان الحديث .

ما الخبر يا أيها المدرس ؟ ترتدى بدلة داكنة اللون . جنازة ؟

كلا ، على الاطلاق . . بل حفلة . الشباب ذاهب إلى الجبهة . ألقيت خطبة قصيرة . ذكرتهم بمدينة « اسبرطة » ، وبعض مقولات « كلاوزيفيتس » . وزودتهم ببعض المفاهيم عن الشرف والوطن ، أوصيتهم بقراءة « هلدرلين »[2] . أخذت أفكر فى منطقة الحدود الممتدة . حفل مؤثر . مؤثر للغاية . أخذ الشباب يغنى : الله الذى جعل الحديد يتمدد . كانت العيون تلمع . مؤثر . مؤثر للغاية يارب . لا تكمل أيها المدرس . إن ذلك لفظيع ! .

الهوامش

١ - الكيجيل (البولينج) هى أحد الألعاب المعروفة فى ألمانيا وفيها يقف اللاعب خلف مسمار أملس توجد فى نهايته الأخرى قوائم خشبية ، ويقذف اللاعب بالكرة محاولاً إصابة أكبر عدد من القوائم . (المترجم) .

٢ - هو الشاعر الألمانى يوهان كريستيان مربدريش هلدرلين (١٧٧٠ - ١٨٤٣) وهو من أكبر شعراء الألمانية . (المترجم) .

وأخذ المدرس يحملق فى الآخرين وقد تملكه الفزع . كان فى أثناء حديثه يرسم صلباناً صغيرة واضحة على الورق . صلباناً صغيرة واضحة . نهض وضحك . ثم أخذ كرة جديدة وأطلقها تجرى فوق المسمار . أحدثت صوتاً خافتاً . ثم انقلبت القوائم الخشبية فى الخلف . كانت تبدو كرجال قصار القامة .

رجلان يتحدثان
هه . . كيف الحال ؟
متدهور بعض الشىء .
كم يتبقى لديك ؟
إذا سارت الأمور على ما يرام : أربعة آلاف .
وما العدد الذى تستطيع أن تعطينى إياه ؟
ثمانى مائة على أكثر تقدير .
لن يكفى .
إذن ألف .
شكراً .
رق الرجلان
كانا يتحدثان عن بشر .
كانت رتبتها : لواء
وكانت الحرب مشتعلة .

رجلان يتبادلان الحديث :
بمحض إرادتك ؟
طبعا .
عمرك ؟
ثمانى عشرة . وأنت ؟
وأنا أيضا .
وافترق الرجلان
كانا جنديين فى الجيش .
ثم سقط أحدهما . خر صريعا .
وكانت الحرب مشتعلة .

عندما انتهت الحرب رجع الجندى إلى وطنه . لم يكن يمتلك الخبز . رأى شخصاً لديه خبز . فقتله .

قال القاضى : ينبغى ألا تقتل إنسانا .
فسأله الجندى : ولم لا ؟

عندما انتهى مؤتمر السلام تجول الوزراء فى المدينة . ثم مروا بكشك « نيشان » صاحت الفتيات ذوات الشفاه الحمراء : جرب النيشان . . ياسيد . فأخذ الوزراء جميعهم بنادق وأخذوا يصوبون على أشكال آدمية صغيرة مصنوعة من الورق المقوى .

أثناء التصويب أتت امرأة وأخذت البنادق منهم جميعا . عندما أراد أحد الوزراء استعادة بندقيته صفعته السيدة العجوز .

كانت أمـــا .

كان ياما كان اثنان من الناس . عندما بلغا الثانية من عمرهما كانا يتلاكمان بالأيدى .

عندما بلغا الثانية عشرة كانا يتضاربان بالعصى ويتقاذفان بالحجارة .

عندما بلغا الثانية والعشرين كانا يتبادلان إطلاق النار .

عندما بلغا الثانية والأربعين كانا يتبادلان رمى القنابل .

عندما بلغا الثانية والستين أصابتهما الأمراض .

عندما بلغا الثانية والثمانين ماتا . ودفنا متجاورين .

وبعد مرور مائة عام لم تلحظ الدودة التى كانت تتغذى فى قبريهما أنها تتغذى على رفات شخصين مختلفين . كانت نفس التربة . عين التربة .

أخذ أحد الحيوانات يطل على الأرض فى عام ٥٠٠٠ ، فلاحظ الآتى بهدوء :

الأشجار مازالت أشجاراً .
الغربان مازالت تنعق
الكلاب مازالت ترفع أرجلها
الأسماك والنجوم .
الطحالب والبحر والناموس
كل بقى على حاله . .
وأحيانا . . .
أحيانا أقابل إنسانا .

ترجمة : سمير مينا

● فولفجانج بورشرت (١٩٢١ - ١٩٤٧) .
● هو واحد من هؤلاء ـ الذين عبر عنهم فى أعماله ـ هؤلاء الذين عادوا إلى وطنهم ولم يعودوا . . لأنهم لم يجدوا وطنا . . فظلوا « بالخارج امام الباب » .

● ولد بمدينة هامبورج وعمل بائعا للكتب وممثلا إلى أن جند .
● اشترك فى الحرب العالمية الثانية وأصيب إصابة خطيرة .
● خلال عامين أبدع بورشرت كل أعماله وتتركز كلها حول مأساة الحرب .

● رصيده من الإبداع : مسرحية « بالخارج أمام الباب » ، ومجموعة قصص قصيرة منها :
« الخبز ، حتى الجرذان تنام بالليل ، ساعة المطبخ ، زهرة الكلب ، على طول الطريق الطويل الطويل .

● وفى عمر الزهور وافت المنية بورشرت قبل يوم واحد من افتتاح مسرحيته الخالدة « بالخارج أمام الباب » لتكون حياته تعبيرا عن مأساة الحرب ، تلك المأساة التى حاول أن يعبر عنها فى إبداعه القصص والمسرحى ، ونجح فى ذلك أيما نجاح .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مسرحية

ثلاثة أشخاص

مسرحية من فصل واحد

تأليف الكاتب الأمريكي

أ . ر . جارنى

ترجمة : عبدالحكيم فهيم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أ . ر . جارنى

أديب أمريكى ولد فى مدينة بافلو بولاية نيويورك وتخرج من كلية وليامز عام ١٩٥٢ . . وعمل ضابطاً بالأسطول الأمريكى من عام ١٩٥٥ وقد درس فن الكتابة للمسرح فى مدرسة ييل للدراما فى نيوهافن إلى جانب عمله فى بعض محطات التليفزيون الأمريكية .

شخصيات المسرحية :

بيتى تشامبرز
ستيوارت تشامبرز

الزمن : الوقت الحاضر
المكان : مدينة جامعية

تدور أحداث المسرحية فى وقت متأخر بعد عصر أحد الأيام فى مسكن ستيوارت وبيتى تشامبرز فى مدينة جامعية . . فى الجدار الأيسر مدخل يفضى إلى المطبخ . . وفى الجدار الخلفى إلى اليسار يقوم مدخل آخر يفضى إلى الصالة الأمامية والباب الأمامى ، على حين يوجد فى الجدار الأيمن مدخل ثالث يفضى إلى حجرة الطفل . . عند مقدمة خشبة المسرح وأمام هذا الباب رف للكتب وسلة للقمامة . . وإلى اليمين قليلا من مقدمة المسرح « كنبة » وإلى اليسار . . كرسى فوتيل إلى جوار منضدة كما يوجد أمامه مسند للقدم .

تولد الحجرة الانطباع بالافتقار إلى الثراء المرتبط عادة بمهنة التدريس على حين تنم الصورة المعلقة على الجدران عن تذوق للاتجاهات الحديثة فى الفن .

ليس ثمة أحد على المسرح . . ثم يفتح الباب المفضى إلى حجرة الطفل . . وتظهر على المسرح بيتى تشامبرز وهى تنظر خلفها إلى طفلها الذى يختفى فراشه عن أنظار المشاهدين . . تحمل بطانية أطفال مطرزة زرقاء اللون . . تشير بأصبعها إلى طفلها باسمة غير أن بسمتها تشحب وتسقط يدها إلى جوارها . . وبينا تقف مشغولة البال وهى تنظر إلى الحجرة يسمع صوت باب إلى اليسار يفتح ويغلق . . تجفل بيتى وتبادر إلى إغلاق الباب المفضى إلى حجرة الطفل . . تسوى رداءها وتمشط خصلة من شعرها وتردها عن جبهتها . . وتنادى بمرح مفتعل . .

●

بيتى : أهو أنت ياستيوارت ؟

(يسمع صوت ستيورات تشامبرز قادما من الصالة الأمامية) .

ستيوارت : خادمك المتواضع ياسيدتى !

بيتى : (تنظر بعصبية حولها فى الحجرة) .. لقد عدت إلى البيت متأخراً الليلة .. أيها الخادم المتواضع !

ستيوارت : قمت بنزهة بعد انتهاء اليوم الدراسى . أوصلت أية رسائل يابيتى ؟
« تلاحظ بيتى وجود كتاب على المنضدة بجوار الفوتيل .. وتنظر فيما حولها بحثاً عن مكان تخبئه فيه » .

بيتى هناك فواتير الطبيب المعتادة .. بالطبع .. وعدد آخر من مجلاتك الدورية عن شعر القرن الثامن عشر .. ليس هناك شىء ذو بال
(تمشى بيتى حاملة الكتاب وتسرع بإخفائه فى رف الكتب بينما يدخل ستيورات قادماً من الصالة) .

ستيوارت : (عند مدخل الباب) ألا يمكن أن نتحدث عن شعر القرن الثامن عشر ؟

بيتى : « نحاول أن تبدو مرحة » نستطيع ذلك بالطبع . ماذا لديك عن شعر القرن الثامن عشر ؟ .

ستيوارت : (بسرعة وبغير أن ينظر إليها) إنك تجعلين هذا الموضوع يبدو تافها .. إنه خبزنا وزبدنا فى القرن العشرين (يدير إليها ظهره وهو يخلع معطفه) .. هل الطفل نائم ؟

بيتى : أرى أنك فى حاجة شديدة إلى قص شعرك (تمشى نحوه) أعرف أنك تعتقد أنك مفكر .. غير أنه ليس ضرورياً أن تكون مفكراً أشعث الشعر هكذا .. (تلمس الشعر على عنقه) انظر .. ابتداء من الآن سوف أحيطك بعناية أفضل .

ستيوارت : (فجأة وبجفاء) إذن .. لا تقتلعيه من الجذور (ثم بتودد مقصود) سوف أقص شعرى يوما ما (يمشى مبتعداً عنها إلى المنضدة المجاورة « للفوتيل » يبدأ فى فحص البريد بتثاقل) هل الطفل نائم .. ؟

بيتى : (بسرعة) ليس بعد .. أتريد أن تلقى عليه نظرة ؟
(يجلس فى الفوتيل ويشرع فى تصفح البريد .. ربما بشىء من السرعة)

بيتى : حسبت أنك ربما تريد أن تراه لأنهم أزالوا جبيرته اليوم .. ظننت أنك ربما تريد أن ترى ساقيه .. إنه يبدو رائعاً .. يستطيع الآن أن يركل بساقيه . !

ستيوارت : (بحماس مفتعل) لقد انتظرنا وقتاً طويلاً لكى نرى ساقيه تتحركان وتركلان .

بيتى : نعم .. ربما يشعر أنه مثل شخص أطلق سراحه من السجن . لقد أمضى تسعة أعشار عمره فى جبيرة تصل إلى خصره وهو الآن حر فى أن يركل ويزحف ويفعل أى شىء يود الأطفال الآخرون أن يفعلوه . !

ستيوارت : (يفتح خطابا) هل رأيت هذا الخطاب الخاص بالدراسات الصيفية فى اكسفورد ؟

بيتى : .. و .. تستطيع أن ترى قدمى الطفل الآن .. انهما جميلتا التكوين حتى أظافر أصابع قدميه .. ألا تودّ أن ترى ؟

ستيوارت : (فجأة وبحدة) لنتركه وحده .. (معتذرا) أعنى أن فى وسعنا ممارسة هذا الروتين الأبوى المتسم بالزهو .. فى الواقع .. قدماه .. أليس من العار ان ينمو معظم الناس ويكبروا لتكون لهم مثل هذه الأقدام غير الجذابة . ؟

بيتى : .. وفى مقدورنا أن نشرع الان فى إعداد وجبات من الخضروات المسلوقة له . لم أحسب قط أننا سوف نذهب إلى هذا المدى . كذلك فإن السباتخ المسلوقة طيبة .. حقيقةً .. لقد تذوقتها .. أقدم لك بعضاً منها الليلة إذا كنت تريد .. ياستيوارت .. وسوف أضيف إليها بيضة مسلوقة لو كنت تحب !

ستيوارت : ألا تريدين تناول بعض من الطعام البسيط ؟

بيتى : (بعصبية وهى تطوى وتفرد بطانية الطفل .. تتحدث بسرعة) لا .. فى الواقع .. أنت تعرف .. ما أحسب أننا سوف نفعله الليلة .. ؟ أعتقد أننا ربما نمضى بعض الوقت فى احتساء شراب طيب قوى قبل تناول العشاء .. أعتقد أننا سوف نفرط حقيقة فى الشراب .. أعتقد أننا سوف نخرج شريحة من اللحم من الثلاجة ونتناولها مع النبيذ ثم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نستدعى حاضنة ترعى الطفل ويعد ذلك نغادر هذا المكان ونذهب إلى السينما . .

ستيوارت : أهناك فيلم فى سينما قريبة ينبغى أن نراه ؟

بيتى : لا . . أعنى . . فقط لكى نستمتع بالفرجة على عرض سينمائى . . هناك فى الواقع فيلم موسيقى . . ذكرت مجلة تايم أنه فيلم جيد وأنا أحب الأفلام الموسيقية . .

ستيوارت : لا . . شكراً لك ـ ياسيدى . . إننى لا أستسيغ فكرة الشرب حتى السكر والهروب إلى دنيا ملونة .

بيتى : (ثائرة) ومنذ متى ياسيدى ونحن نترفع هكذا عن الأفلام السينمائية ؟ (تتمالك نفسها) . . لا . أنا أحب الأفلام . . أعتقد أنها تبعث على الاسترخاء . . ألا تعتقد ذلك ؟ إنك فى السينما تجلس دون أن يكون هناك ما تفكر فيه . . فقط نجلس فى استرخاء فى مقاعد وثيرة ونتابع أناسا آخرين ليس لديهم ما يفكرون فيه .

ستيوارت : ينبغى أن نقرأ بحماس وتركيز . . ثمة عوالم ثرية فى الكتب (ينظر إليها) ينبغى أن تقرئى أكثر .

بيتى : أعرف ذلك . . ينبغى على أن أفعل . . سوف أفعل !

ستيوارت : ذلك لأننا اعتدنا أن نكون زوجين نكثر من القراءة . أتذكرين ؟ إن على أن أضاعف من قراءاتى وعلى أن أشرع فى التفكير فى رسالتى للدكتوراه .

بيتى : نعم . . ينبغى أن تهتم بالاستمرار فى ذلك . . أستطيع أن أقوم بالنسخ على الآلة الكاتبة مساعدة لك مثلما تعودت أن أفعل .

ستيوارت : ينبغى أن نفكر فى أشياء أخرى إلى جانب الأطفال المولودين بسيقان بها عيوب خلقية .

بيتى : نعم . . ولمرة واحدة . . الليلة . . دعنا لا نتحدث عن أى شىء من هذا القبيل . . لنتحدث عن الزهور أو الطيور أو أى شىء آخر .

ستيوارت : أو عن انجلترا . . نستطيع أن نتحدث عن ذلك . قد يكون هذا هو ما يجب أن نفعله . . فقط أن نغادر هذا المكان . . ونلهو فيما حول اكسفورد . . ربما تكون هذه هى الإجابة . . فى وسعنا أن نمضى هناك عاما . وأستطيع الحصول على درجة الدكتوراه هناك . . زوجتى الحبيبة . . ما قولك ؟ . . تكلمى . . يامعشوقتى

بيتى : (تسير بعصبية فى اتجاه المطبخ) . . إذا كنت سأدعى بمعشوقة . . فسوف أتصرف كواحدة وأحضر هاتين الكأسين من الخمر القوية التى كنتُ أتحدث عنها .

ستيوارت : (يمسك بيدها) إننى جاد . . إن انجلترا هى المكان المنطقى الذى نذهب إليه . . وسوف يكون طيبا بالنسبة لك . . طيبا للغاية . . ماذا تقولين ؟

بيتى : (تسير مبتعدة عنه) ماذا أقول ؟ أعتقد صراحة أن ذلك سوف يكون ضرباً من البلاهة .

ستيوارت : تقصدين النقود بالطبع ؟

بيتى : بالطبع . . النقود . لقد أنفقنا كثيراً جداً . . على المستشفيات والأطباء . . وفقط لأن الجيرة قد أزيلت ؟ إن العلاج لم ينته بعد . . أعنى أن غرف الانتظار سوف تظل فى انتظارنا . .

ستيوارت : نستطيع أن نتدبر المال معا . . !!

بيتى : من تكون فى تقديرك ؟ دوقه ودوقة ؟

ستيوارت : (غاضبا) دعينى أقرر ما يتعلق بما ليتنا (ثم يرغم نفسه على أن يبدو لطيفا) . . سوف ندخر مثلما فعل سيلاس مارنرز نستطيع أن نعيش بقدر أقل من النقود . . فى وسعنا أن نتولى الأشراف على رحلة طلابية . . من المحتمل أنهم يتلهفون على العثور على زوجين شابين ليس لديهما . .

بيتى : (بسرعة) تذكر كيف اعتدنا فى فترة خطوبتنا أن نحسن ادخار النقود ؟

ستيوارت : (يجلس . . متذكرا) . . لقد اعتدنا أن ننحدر بالسيارة بعد وقف تشغيلها من فوق جميع التلال توفيرا للوقود .

بيتى : أوه لو أستطيع أن أعيد عقارب كل ساعة فى الدنيا إلى الوراء !

ستيوارت : أوه ! إن انجلترا مكان جميل لهؤلاء الذين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتمتعون بالثراء والحيوية . .

بيتى : (تسير ثانية متجهة إلى المطبخ) هذا لن يجدينا نفعا على الإطلاق . . سوف أحضر هاتين الكأسين .
اسمع . . كنت أفكر اليوم . . أننا تعاركنا ست مرات فقط منذ زواجنا . . (تخرج متجهة إلى المطبخ إلا أن صوتها ما يزال مسموعا) لقد أحصيتها اليوم . . على أن المشاجرة الأولى لا تحسب حقيقة فقد كان كلانا مصابا بالبرد . .

ستيوارت : (ينهض متجها إلى حجرة الطفل بغير عاطفة) وهل عددت المرة التى لففت فيها القمامة فى أوراق القسم الخاص بعرض الكتب فى صحيفة سنداى بوك ريفيو ؟

بيتى : نعم . . والمرة التى كنا نصحح فيها أوراقا . . ولم تقم بحمل الملابس المعدة للغسيل .

ستيوارت : (يلتفت بعيداً عن حجرة الطفل قائلا بأسى وبغير اهتمام حقيقى) لابد أنك نسيت المرة التى خدشت فيها أسطوانة دون جيوفانى الجديدة الخاصة بى . . (لا يصدر رد من المطبخ . . ينتظر ستيوارت لحظة . . على حين يصبح الصمت . . بعد سلسلة من المشاحنات العصبية منذ عودته إلى البيت مرهفاً ثقيل الوطأة . . ينادى بصوت يغالبه الفزع) . . بيتى !

بيتى : لا . . لقد حسبت المرة التى خدشت فيها اسطوانتك الجديدة
(يجىء صوتها خافتا متهدجا) .

ستيوارت : استمرى . .

بيتى : (تدخل قادمة من المطبخ حاملة صينية كوكتيل عليها كأسان . . يجلسان متجاورين على الكنبة . . وهما يمسكان بكأسيهما ويهزان الثلج فيهما بيد أنهما لا يشربان أبدا . . ويبدو الأمر تقريبا كما لو كانا يمسكان سُمّاً فى يديهما . . تواصل بيتى حديثها بعصبية . يبدو صوتها أكثر ارتفاعا تشوبه رعشة كما لو كانت قد كفت للتو عن البكاء) وقد حسبت كذلك المرة التى نسيت فيها أن أثبت غلاف الأسطوانة . . والمرة التى حدثت الصيف الماضى حين كنا نتجه بالسيارة إلى الشاطىء . . و . . الـ . .

ستيوارت : (بعصبية كذلك) ولعلّك نسيت تلك المرة عندما . .

بيتى : لا . . لقد حسبتها جميعا . . والأمر المهم هو أنها تبلغ ست مرات فقط . . وهذا أمر طيب . . ذلك رائع . . فيما أظن .
(ينهض ستيوارت حاملا كأسه . . ويسير ناحية اليمين فى اتجاه الكنبة)

ستيوارت : لنر الآن : المرة الخاصة بالغسيل . . وتلك المتعلقة بالقمامة . . و . .

بيتى : (تنهض فجأة . . تمشى ناحية الشمال) لا أستطيع أن أتحمل هذا !

ستيوارت : (بغير أن ينظر إليها وبهدوء) . . ما هذا الذى لا تستطيعين تحمله ؟

بيتى : كل هذا . . أحس كأننى أجلس فى بيت تندلع فيه النيران . . وأتظاهر بعدم الحديث عنها .

ستيوارت : (ما يزال ينظر بعيداً ويتحدث بهدوء) ماذا تعنين . . بالجلوس فى ؟ .

بيتى : إن الطفل ليس على ما يرام بعد . . ثمة شىء غير سليم فى عقله
(يلقى ستيوارت كأسه فجأة ويعنف على الأرض) .

ستيوارت : أعرف . .

بيتى : ماذا ؟

ستيوارت : (يستدير إليها) . . أعرف . . أعرف . . أعرف ! لقد اتصل بى الطبيب بعد ذهابك . . قال إنه أخبرك .

بيتى : (تسير نحوه . . وهذه هى أول مرة ينظر أحدهما إلى الآخر فى الواقع) لم يقل إنه سوف يبلغك .
لم أرد أن أقول لك . .

ستيوارت : لقد أصبح الأمر واضحاً الآن
(يجلس على الكنبة)

بيتى : (تجلس عند قدميه) أعتقد أننى كنت أعرف ذلك فى وقت ما . . إن يديه لا تتحركان بطريقة سليمة . . أستطيع أن أؤكد ذلك .

ستيوارت : ينبغى أن نخرج كتاب أيوب . . ينبغى أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نقرأه بامعان واهتمام .. ربما نخرج ببعض الأفكار .

بيتى : أليس هذا هو نوع الشيء الذى نسمع عنه تماما ؟ إن هذا يحدث فقط لأناس آخرين .. أتذكر عندما سمعنا عن طفل آل وليامز .. ؟ أتذكر كيف انهار بوب وليامز تماما ؟ .

ستيوارت : ينبغى أن نفعل شيئا

بيتى : لكننى أعرف أن وليامز وزوجته نشبت بينهما أكثر من ست مشاجرات .

ستيوارت : دعينى أفكر للحظة .

بيتى : تعرف أننى نسيت كيف يبدو الأمر حين لا يكون لديك ما يساورك القلق عليه ، وحين لا يكون عليك أن تواجه أناسا يشعرون بالحيرة والارتباك ! إن طفلا مريضا كما تعرف يعتبر مثيرا لقلق الآخرين ..

ستيوارت : (ينهض واقفا .. يتوجه إلى المكتبة) بيتى ! .. أرجوك ، دعينى أفكر .. من فضلك !

بيتى : وهو كذلك .. آسفة (لحظة صمت ثم تقول بلهفة وتشوق) فى وسعنا أن ننجب أطفالا أكثر .. ياستيوارت .. ألم يقل الطبيب ذلك ؟

ستيوارت : (يعود إلى الكنبة) إلى أى مكان نذهب إذا خرجنا من هنا ؟ أنقوم بجولة للمتعة .. ماذا تكون ؟ إلى أين ؟ إلى أقرب حانة ؟ أم إلى أقرب كنيسة ؟

بيتى : إننا لم نذهب إلى الكنيسة منذ زواجنا .. لن أعرف ماذا أفعل سوف أقف وأجلس فى توقيت غير صحيح .

ستيوارت : (يتناول الكأس التى وضعتها بيتى على المائدة .. يرشف رشفة كبيرة ويعيدها إلى مكانها) سأخبرك بالمكان الذى ينبغى أن نذهب إليه .. ينبغى أن نذهب إلى ذلك البرنامج التليفزيونى حيث تحكين للعامل متاعبك .. إن لدينا قصة بالفعل .. فى مقدورنا أن نحكيها لملايين الناس .. سوف نستدر دمعة أو دمعتين ..

بيتى إن هؤلاء الناس لديهم متاعب أسوأ مما لدينا .

ستيوارت : قد يعدون فيلما سينمائيا عنا فيما بعد .. وفى مقدورنا أن نذهب إلى انجلترا بما يدره ذلك من عائدات .

بيتى : سنذهب إلى انجلترا ذات يوم إذا ما كان يتعين علينا أن نسبح هناك

ستيوارت : أعتقد أننى سوف أؤلف كتابا .. سوف أطلق عليه اسم « بيتى وأنا » .. سوف أشرح فيه كيف اكتوينا أنا وأنت بلهيب المأساة وتعلمنا أن نواجه العالم سويا . أوه .. بيتى .. أليس أمراً طريفاً مسليا .. أن نطلق لخيالاتنا العنان لتطوف هنا وهناك ؟

بيتى : إننا نكتوى بالمأساة .. لقد تعودنا على المتاعب .. أنهكتنا المتاعب إلى أبلغ حد .. ونالت منا كل منال ..

ستيوارت : وتستطيعين تصوير حالنا بأسلوب أفضل .. أطلقى علينا وصف « محاربين قدماء شوهتهم الحرب .. لتقولى إننا أظهرنا رقة وسماحة تحت الضغط .

بيتى : أيّاً كان .. فإننا شخصان غير عاديين .. لدينا حياتنا لنعيشها .. ولدينا أمورنا الخاصة التى نقوم بها ..

ستيوارت : سوف نكتسب هوايات .. أتستطيعين صنع نموذج لطائرات .. ؟

بيتى : أستطيع هذا بالتأكيد .. بيد أنه سوف يكون لدينا الكثير لنفعله .. لديك دراساتك .. وأنا .. حسناً .. وكما قلت .. فلسوف أقرأ أكثر وسوف يكون لدينا أطفال آخرون .

ستيوارت : ينبغى عليك أن تمارسى شيئا .

بيتى : أوه .. لن أكون قط عالة مثلك .. لن أكون هذا أبدا .. غير أننى أعتقد أننا شخصان غير عاديين .. عندما أجريت العملية للطفل .. ظننت أننا كلينا شخصان ممتازان .. ألم تظن ذلك ؟ .. كنت سعيدة لأننى زوجة لمدرس . ذلك أنك علمتنى أن أنظر إلى الأمر بتعقل ، وداب الناس على أن يقولوا لنا إننا رائعان .. وبأمانة .. أعتقد أننا كنا رائعين ..

ستيوارت : لقد بقينا مرفوعى الرأس وسوف نفعل ذلك الآن .. وأعتقد أننا سوف نكون على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما يرام . إن الأمر الهام لا يتمثل فى أن ثمة طفلاً عليلاً فى الغرفة المجاورة . . هذا هام . . لكن المهم كذلك ما يحدث لك ولى .

ستيوارت : ينبغى أن نحسن التفكير الآن . . وأن نفكر فى بعض المؤسسات هذا ما كنت أفكر فيه . . طوال ما بعد الظهر . . مؤسسات . .

بيتى : ليس عليك أن تفكر فيها أكثر من ذلك

ستيوارت : علينا أن نفكر فى المؤسسات

بيتى : أريد أن أحتفظ بالطفل معى هنا

ستيوارت : من الممكن أن تكون مؤسسة حكومية . . سوف تكون رخيصة بالمقارنة بمؤسسة خاصة .

بيتى : مكان ما بارد قاس به ممرضات جامدات متعاليات . . كلا . . شكراً لك . . سيبقى الطفل هنا . . قد يجدون علاجاً فى أى يوم الآن .

ستيوارت : إن المؤسسات . . لو كانت ذات نفع باهظة التكاليف

بيتى : لن نتحدث عن مؤسسات . . سوف نتحدث عن أطفال آخرين سيكونون لنا .

ستيوارت : « ساخرا » الأطفال الآخرون !

بيتى : أوه . . نعم سيكون لنا أطفال أكثر . .

ستيوارت : دعينا نهتم بالطفل الذى رزقنا به أولا .

بيتى : سنرزق بأطفال أكثر . . وسوف يكونون رائعين . . إننا مهيئان لكى يكون لنا طفل يصبح رئيسا للجمهورية وابنة تكون نائبة للرئيس !

ستيوارت : نستطيع أن نزحم العالم . . بالنوابغ والعباقرة !

بيتى : ليس ثمة مبرر لليأس ولأن نجعل ثلاثة أشخاص تعساء .

ستيوارت : ثلاثة ؟ أنى أرى اثنين فقط هنا . . واعترف . . أننا تعيسان .

بيتى : ليس ثمة مبرر لليأس ولاان نجعل ثلاثة أشخاص تعساء .

ستيوارت : ثلاثة ؟ إنى أرى اثنين فقط هنا . . واعترف . . أننا تعيسان .

بيتى : والطفل . . إن الطفل هو الشخص الوحيد الذى قد يكون تعيسا .

ستيوارت : (يخطو مبتعدا عنها) قد يكون عليك كذلك أن تواجهى حقيقة أن الطفل لا يمكن أن يكون سعيداً أو تعيسا . . إنه لن يعرف قط أى شىء .

بيتى : (تشعر بالصدمة . . ثم بهدوء) لنتناول العشاء . . إن الليل يتقدم .

ستيوارت : يبدو أن هذا الأمر خطر لك بطريق الصدفة . . هكذا فجأة . .

بيتى : بطريق الصدفة !

ستيوارت : تفكيرك فى الطعام . .

بيتى : (غاضبة) . . أوه . . نعم . . بطريق الصدفة

(تخطو فى اتجاه المكتبة حيث خبأت كتابها تخرجه وتريه له)

أنظر هذا الكتاب ؟ نتحدث عن القيام بمزيد من القراءة . . هذا ما أقرأه . . كان لدىّ على مدى شهر . . لأننى أحسست بأن ثمة شيئاً خاطئاً طوال شهر . . كنت أقرأ فيه فى أى وقت لا تكون فيه فى البيت . . إنه مرعب كريه ، يتحدث عن السرطان والجذام والمكفوفين . . يصف كيف يصلون وينالون الشفاء . . وهناك فصل فى الكتاب يتحدث عن الأطفال المرضى . . كذلك . . إنه يقول إن فى مقدور الأم أن تصل من أجل طفلها ومن خلالها يمكن للطفل أن يشفى . . لقد حاولت . . اعتدت أن أجثو على ركبتى . . فى الحمام . . فى اثناء استغراقك فى النوم . . أحسست كما لو كنت حمقاء فى البداية . . أنا أفعل هذا ؟ ! إننى حتى لا أستطيع الذهاب إلى الكنيسة يوم أحد الفصح ! . بيد أننى حاولت ذلك لأنه كان يعنى شيئا ما على الأقل . . و . .

ستيوارت : هل انتهيت . . ؟

بيتى : كلا . . نعم . . لقد فرغت من الكتاب . . إننى لا أومن الآن بما جاء فيه . . لم يجد شيئا . واعتقد أنك وأنا نستطيع أن نتخلص منه . . أعتقد ذلك على الأقل (تلقى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالكتاب فى سلة المهملات الورقية) . . لكن لا تقل أبدا إننى آخذ هذا الأمر بطريق الصدفة . . لا تقل هذا أبدا . . !

ستيوارت : (بعد لحظة صمت) إنه . . لأمر لطيف أن أعرف أن زوجتى كانت تقوم ببعض الطقوس التى لا معنى لها فى الحمام طوال الشهر الماضى . . وإنه لجميل كذلك أن أعرف أنها تستخدم عقلها . . ربما ينبغى علينا أن نذهب أوروبا هذا الصيف . . ربما تريدين أن تعرّجى لترى ضريح السيدة العذراء فى مدينة « لورد » .

بيتى : قلت إننى على ما يرام هنا . . لقد بدأت أفكر فى أنك أنت هو الشخص الذى ليس على ما يرام . .

ستيوارت : أليس هذا سخيفا . . ؟ أعنى مجرد التفكير فيما سوف يجب علينا أن نواجهه ونعانيه بقية حياتنا . . لقد بحثت مشكلتنا الصغيرة فى المكتبة بعد ظهر اليوم . . ولقد أدركت حقيقة مثيرة . . قبل آلاف السنين . . اعتادوا فى اليونان أن يتركوا أطفالهم المشوهين منهم فى العراء عند جانب الجبل .

بيتى : أوه ستيورات . . أى عالم أنت ؟ . أتهرع إلى المكتبة بدلا من أن تجىء إلى البيت .

ستيوارت : (دون أن يلقى إليها بالا) . . وحتى فى القرن الثامن عشر . . فقط قبل مائتى سنة مضت . . كان لديهم نوع من المستشفيات لمثل هؤلاء الأطفال . . ولم يكن يمتد بهم العمر أمدا طويلا جدا . وبالطبع ليس لدينا مثل هذا النوع من المستشفيات بعد . . ربما نتقدم ذات يوم لنصل إلى هذا المستوى .

بيتى : نستطيع الآن أن نشفى من أمراضنا . . ولم يكن فى مقدورهم ذلك . .

ستيوارت : إنها لفكرة سخيفة . . .

بيتى : (متهكمة) . . هذا صحيح ! إنها فكرة غير إنسانية .

ستيوارت : كلا . . أعنى فكرة أننا . . أنت وأنا سوف نكرس بقية حياتنا لكى نعول شخصا خاملا لا قيمة له .

بيتى : (حانقة) . . أنظر الآن ياأستاذ . . إذا سمعت عبارة أخرى واحدة من عباراتك اللاذعة . . .

(تستدير مبتعدة عنه وتتحرك بشكل غريزى فى اتجاه باب غرفة الطفل) .

ستيوارت : (يخطو مستغرقا فى التفكير وفى غير وعى بها تقريبا)

لقد كنت أفكر طوال فترة ما بعد الظهر . . واتصل بى الطبيب الساعة الثانية والدقيقة السابعة عشرة . . وألغيت جميع دروسى . . ورحت أتجول هائما فى أرجاء المدينة . . وأنا أفكر . . كنت أفكر . . ـ مع كوننا ـ بالطبع ـ بشرا ـ فى أننا كالملائكة (يلتفت إليها بغتة) بيتى . . أتعتقدين أننا مثل الملائكة ؟ أو أنك تعتقدين أننا مثل حيوانات مسكينة . . ضئيلة . . متفرقة ؟

بيتى : لماذا لا تنسى اقتباساتك المألوفة وتتصرف مثل رجل ؟

ستيوارت : (ساخرا) . . بيتى إننى أطلب منك شيئا . . إن زوجك يسألك النصح والتوجيه . . إنك أنت التى يبدو أنها قامت بجميع القراءات الخارجية فى الآونة الأخيرة . . اتعتقدين أن الناس هم ـ على نحو ما ـ أشخاص غير عاديين يابيتى . . ؟ أتعتقدين ذلك ؟

بيتى : (خائرة) أعتقد ذلك بالتأكيد !

ستيوارت : تفضلى إذن وأرينى أن هناك شيئا غير عادى . . أوه . . لقد صادفت شيئا آخر فى المكتبة اليوم . . هل عرفت تلك الحيوانات . . عندما تلد . . حيوانات تعيسة . . هل عرفت أنها تركلها بعيدا خارج الحظيرة ؟ لكن الأمر ليس هكذا بالنسبة لنا . . أوه كلا . . إننا بشر . . إننا شىء متفرد . . لسوف يوفر على الكثير من القلق والانزعاج لو أنك أريتينى ما هو هذا الشىء المتفرد !

بيتى : (تخطو نحوه) لنتناول شيئا من الطعام . . ان الليل يتقدم

ستيوارت : لقد سلكت السبيل . . تعرفين أننى كنت أفكر طوال ما بعد الظهر . . وسوف أظل أفكر بقية حياتى كلها . . بيد أننى لن أفعل

شيئا قط . . ولن أعرف أبدا السبب . . كم أود أن أرى سببا ما يحملنا على عدم إرساله إلى مؤسسة وتتركه وحده . . أود أن يدلنى شخص ما . . لماذا لا ينبغى علينا أن نكون تقدميين حقيقة وأن نذهب حتى . . إلى مدى أبعد !

بيتى : كف الآن !

ستيوارت : لن يكون من الصعب أن نفعل هذا . . حين كنت أتمشى بعد الظهر . . استطعت أن أتصور كل شيء . . سوف يصبح عملنا هذا نقطة تحول مشروعة من نوع ما . . من المحتمل أن تعترف بعض الصحف بأن ذلك بمثابة نعمة . . إنهم يفعلون ذلك بالفعل فى الدائمرك . . فلماذا لا يحدث هنا ؟ لماذا لا أكون أنا ؟ تبدين الشخص الذى يحتفظ بهدوئه هنا . . ربما تستطيعين أن تقولى (تقترب منه بيتى أكثر) بالطبع . . لقد فكرت بعد ذلك . . إنه لن يتحتم إثارة الأمر فى المحكمة . . لقد أصبحت شخصا عملياً . . فكرت أن من الممكن أن يختنق فى وسادته . . أو (لقد وصلت إليه بيتى تصفعه على وجهه بعنف مرتين . . ثم تستدير وتمشى مسرعة إلى المطبخ . يقف ستيوارت ساكنا للحظة . . يشعر بالصدمة ثم يخطو إلى معطفه ويشرع فى ارتدائه . . تدخل بيتى مرة أخرى على الفور حاملة زجاجة طفل تمر بسرعة أمامه وتدخل غرفة الطفل . . لا تنظر إليه قط . . أثناء مرورها . . يراقبها ستيوارت وهى تمر أمامه ثم يتحدث بصوت عال) إننى خارج . . عندما نبدأ فى أن يلطم أحدنا الآخر . . فإن ذلك . . فقط يثبت . .

(يتلاشى صوته شيئا فشيئا . . وإذ ينظر عَبْرَبَاب غرفة الطفل يستطيع أن يرى بيتى وهى ترضعه يسمع صوت بيتى . . أصبح هادئا . . حنونا .

بيتى : نعم ياطفلى . . نعم . . هذا عشاؤك . . نعم ياطفلى نعم . .

(تستمر بيتى فى حديثها . . بينما يراقبها ستيوارت من خلال الباب المفتوح . . ينزلق معطفه من فوق ذراعيه ويسقط على الأرض . . يجلس بثقل على مقعد بجوار الباب ثم يهز رأسه ببطء ويغطى وجهه براحتيه) .

ويسدل الستار

القاهرة : ترجمة عبد الحكيم فهيم

ARCHIVE
http://Archive.Sakhrit.com

سمير رمزى المنزلاوى

قصة تجارب

"الغرفة"

فتح الباب الحديدى الصدىء بقوة رهيبة تملكته على الفور . . فاندفعت إلى أنفه نسائم الحياة الحبيسة فى الخارج انتعش تماماً وأفاق من أفكاره القاتمة . وبدأت حواسه تستيقظ قليلاً وتشعر بقيمة ما حولها . .

خطا خفيفاً كالطائر الرشيق وتلاشت العقبات التى كان يصنعها خياله .

التفت مستطلعاً خلفه فوجدهم جميعاً أمام الباب الذى يحبس الحياة وميز أصواتهم بدقه وسط جلبة الشارع وسمع احتجاجهم وصراخهم قبل أن يبدأوا المطاردة .

لم يتمكن من فهم الأمر بصورة طبيعية واهتزت المرئيات وتداخلت فصار الشارع كتلة عجين تسد عينيه ، وجرى بأقصى سرعة يتخبط فى محطات الترام وحقائب الركاب . .

طوال السنين التى قضاها معهم كان كثيباً وصارت تعابير القرف جزءاً من تضاريس وجهه . . دائماً يبادلهم الشتائم النابية والشكاوى الكيدية التى تضم أخطر الاتهامات .

استطاع ــ بصعوبة ــ أن يهرب إلى شارع جانبى ليلتقط أنفاسه وكيانه . .

الشارع واسع إلى حدّ ما ، مضاء بمصابيح الصوديوم الباهرة على جانبيه تقوم أشجار الخوخ والجوافة .

أعشى النور عينيه فاصطدم برجل طويل عريض يحمل وجه طفل وطبقاً من الجوافة والخوخ .

وحين تهاوى على الأرض الرطبة طيب الرجل خاطره وأهداه حبات من الفاكهة الحلوة فأحس بمذاقها الحلو . شكره وجال فى عينيه فوجد بساطة وطيبة . . تشجع قائلاً :

ــ لقد خرجت لتوى من الحجرة الكئيبة .

نظر الرجل الطويل إلى عشب الأرض ولم يعلق فعاد يقول :

ــ إنك رجل طيب . . نقى وقد أكرمتنى .

فهل أطمع وأطلب عملاً ومأوى فى هذا الشارع النظيف ؟

رفع رأسه من الأرض وأشار إلى نهاية الشارع :

ــ ستجد جداراً عالياً . . إذا لم تجد اسمك منقوشاً عليه فلا تعد !

هرول إلى الجدار المنتصب وتفرس فى الأسماء المنقوشة . . بعضها معروف لديه وبعضها لا يعرفه . . وصل إلى النهاية دون أن يجد اسمه . نظر إلى الرجل عند الأشجار فأولاه ظهره وتشاغل بقطف الثمار .

خرج متثاقلاً إلى الحارة الرئيسية يعانى دواراً وقرفاً متزايداً ، التفّ حوله فى دقائق صبية وبنات ورجال هيئاتهم غير معروفة وصكت أذنه أصوات طرق على نحاس واحتكاك تروس وجلبة صبيان . .

فى داخله ولد شعور بالظفر . . الأعمال كثيرة . . لابهم بواب . . صبى . . خراط أى شىء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حاول الدخول لكن عملاقاً يرتدى « عفريته » هجم عليه وطالبه بإبراز الهوية .

ثم أخرج سجلاً تنضح حوافه بالزيت ألصقه بعينيه دقائق ثم قذف الهوية فى وجهه وهرول إلى الداخل فتحلق الغلمان حوله وقذفوه فى أتوبيس مسرع . .

فوجىء بنظرات الركاب تتناثر حوله . . أداروا عيونهم بينه وبين جرائدهم المفتوحة على صفحة معينة .

ثم تحدثوا همساً مع الكمسارى الذى تفاوض مع السائق لحظات ثم نفخ فى البوق . .

توقف الأتوبيس وصرخ الكمسارى مشيراً إليه : ــ عبد آبق !! ضيقوا عليه الخناق مسلحين بالجرائد المليئة بصوره وبالوعود السخية حين سقوطه .

استجمع قوته فى ساقيه وقفز من النافذة وسط ذهولهم وصراخهم ، تلقفه سائق عربة إسعاف كان فى طريقه لإنقاذ مقاول فغمزه بجنبه . .

طار به فى شوارع المدينة المشتعلة . . تقايأ فوق المحفة التى أرقده فوقها ولم يتمالك نفسه فصرخ دون أن يعير شتائم السائق التفاتاً . .

فى فضاء جبل المقطم تركه وعاد سريعاً بطلق السارينة تجول طويلاً فوق الحصى المدبب حتى برزت قدماه من الحذاء وسالت منهما الدماء . .

رقد ينز عرقاً مالحاً جعله يكره جلده وسرح فى الفضاء العنيد من حوله . .

امتدت يده تجتز جذوراً عفنة تحشو بها فمه . . حاول أن يروض ذاكرته لتسعفه بشىء .

لم يجد بها سوى أشباح كريهة تتصارع وأطياف باهتة تتقاتل . .

استمرت رحلته أياماً تداخلت فيها الطرق صانعة متاهة سقط بداخلها كفأر التجارب .

تمنى لو يقابله إنسان ، حيوان ، أى مخلوق ؟

بلا مقدمات وجد نفسه أمام مغارة ــ بابها فى مواجهته تماما عليها لافتة ضخمة .

« هنا صومعة العبد الزاهد الهارب من جحيم الدنيا » . أحس بالراحة وحملق فى الداخل . . كان الظلام مخيماً فدخل بنصف قدمه .

جذبته يد غليظة إلى العمق وبرق فى وجهه ضوء قوى من بطاريات ضخمة رأى سائق الإسعاف واثنين من عتاة المخبرين ، عوى كالفريسة ، وضعت فى يديه سلاسل وأقفال وأختام .

وألقى الجبل صراخة فى مخازنه العتيقة ثم انطلقت عربة كانت مختفية بشبكة تمويه إلى قلب المدينة .

أوقفوه أمام الباب الحديدى الصدىء . . أفزعه صريره المنكر حين فتحوه من الداخل وجذبوه بقوة رهيبة ثم حبسوا الحياة فى الخارج بالمزلاج .

تجمعوا صفاً يجلدونه بابتسامات عنيفه ، وجد نفسه يتبادل معهم ــ على الفور ــ الشتائم النابية والمهاترات والشكاوى الكيدية .

منية المرشد ــ مركز مطوبس : سمير رمزى المنزلاوى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

متابعات

قراءة فى (الليل.. الرحم): قصص محمد روميش

محمود عبدالوهاب

ما إن يتم القارىء قراءته الأولى لقصص محمد روميش : الليل . . الرحم حتى تتكشف له بوضوح عمق علاقاته بقريته ودقة إحاطته بتفاصيل حياتها اليومية وشمول إدراكه لحقيقة علاقاتها الاجتماعية وحميمية توحده مع همومها النفسية والروحية وحدة استبصاره لأبعاد وجودها التاريخى فى حضوره الحى المتصل العريق .

لكن هذا الإدراك الخبير بتفاصيل عالم القرية : لا ينبغى أن يغرينا بقراءة أدبه بوصفه كشفا للأبعاد المتعددة لعالم القرية المصرية ، لأن روميش حين يحقق لنا من خلال إبداعه هذا اللون الخاص من المعرفة والخبرة بتفاصيل الحياة الاجتماعية والنفسية والروحية لأهل القرية فإن ما يحققه على هذا الصعيد هو أدنى مستويات إبداعية وأقربها إلى مجال علم النفس والاجتماع .

وهذا المنهج فى قراءة مجموعة كهذه بوصفها انعكاسا لواقع ما ، وكشفا لجوانبه الغامضة قد يأخذنا بعيدا عن تأمل إبداع الكاتب بوصفه تجسيدا لرؤيته الشاملة التى امتاح عناصرها من التمثل العميق للتاريخ والمعايشة المهمومة بقضايا الحاضر والاستشراق الدائم للمستقبل .

وتأخذنا بعيدا عن تأمل التيارات التى تموج بها روح الكاتب والتى تتبدد من خلالها عواطفه وأشواقه وأحزانه وتحولاته الفكرية ومكابداته للخروج من ذاته الفردية للحلول فى ذوات أخرى فنية تستمد حياتها منه لتستقل عنه .

لذلك ينبغى أن نقرأ قصص محمد روميش بوصفها كشفا وتجلية لذات الكاتب وإضاءة لعالمه الفكرى والروحى وتجسيدا لأبعاد رؤيته الشاملة للحياة المعاصرة .

توفيق بطل قصة « طرح المجد » هو آخر الأحياء المتحدرين من صلب مفتش تركى كان فى زمن مضى يسكن قصرا كبيرا ويحكم من مكتب مهيب ويمشى فى شوارع القرية فى موكب من جنود وعبيد وفلاحين ويطل على الجموع من فوق حصان صنع ركابه من فضة خالصة . دالت دولة المفتش بعد أن سقط العرش التركى وأعيدت الأراضى المنهوبة إلى الفلاحين وتحول القصر الكبير إلى نعش كبير تسكنه العناكب والزواحف والأشباح .

عمل توفيق فى مسجد القرية خادما ومؤذنا وتزوج امرأة من نساء الفلاحين وعرفت حياته شظف العيش لكنه ظل يحيا فى مجد الماضى وسطوته وظل يعامل الفلاحين من علياء انتسابه للقصر والجد .

ظل توفيق مستغرقا فى تقمص خيلاء الأمس برغم بؤس حياته وإشارات الفلاحين إلى الجد بوصفه شخصية من شخصيات الحوادث وإلى القصر بوصفه سكنا للعفاريت وإلى عقله الذى زعموا أن به مسًا من جنون . كان الماضى قد تحول إلى أطلال وأطياف وذكريات لكن إصراره على الاحتفاظ به حيا دفعه إلى نفى الحاضر بمحاولة إشعال الحريق فى القرية .

هل أراد الكاتب أن يرصد فى هذه القصة عنف الاختلاجة الأخيرة لنظام اجتماعى يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟ هل أراد أن يجسد المسافة النفسية الفاصلة بين انهيار الأسس المادية لنظام ما ، وتدهور هياكله الفكرية والروحية ؟ هل كان توفيق - آخر الفروع الباقية من شجرة الطغيان المجتثة - خامة فنية ينحت منها الكاتب صورة الشجرة كاملة بكل جذورها الضاربة فى أرض الفلاحين ودمائهم وبكل ظلالها

• صدرت عن دار الهلال ١٩٨٦

الكئيبة فوق سمائهم وبكل ما تميزت به من صلف واستعلاء وكبر ؟

هذه أسئلة قد تساعدنا على أن نحدس الدوافع التى أملت على الكاتب هذه القصة ، لكنها لا تعين القصة على الاندماج بين قصص المجموعة فى كيان واحد منسجم .. إنها قصة خرجت من عقل الكاتب وتجسدت كمعادل ذهنى لما يتصور أنه الملامح النفسية والفكرية لطبقة اجتماعية بائدة (ويبدو ذلك واضحا خلال أسلوب توفيق فى مناجاة الجد وإضفائه الألوهية على ترفعه وصمته) .

إن الشخصية الرئيسية فى هذه القصة تبقى وحدها مفصولة عن باقى شخصيات القصص الأخرى التى تنتمى إلى جماهير الفقراء العاملين فى الحقول والبيوت الريفية : المستذلين المهانين دائما تحت سياط المفتش التركى و الضابط الإنجليزى أو العمدة أو الخولى .. أولئك الذين لا تكف أصابعهم عن اللعب فى الطين .. عن لم الجلة أو دفس بذور القطن والذرة والقمح فى أرض الناس وتعهدها نبتة نبتة من الأرض بورقتين ثم شجيرات مستوية العود ثم تسلم الثمرة دائما لصاحب الأرض دون اعتراض .

إلى هذه الجموع الغفيرة ينتمى الكاتب انتماء يتجاوز الحس الأخلاقى والولاء الاجتماعى والالتزام المذهبى أو السياسى إلى آفاق الفناء الصوفى فى ذات الوطن والانتشاء بمتعة الحلول فى نسيج الحياة الخاصة لترابه وسمائه ونباته وحيوانه : وجموعه البشرية . من هذا الموقع الروحى يرى الكاتب « أعواد الغاب المصفرة والمسودة على فروع خشب قديمة » فيشعر بنومها خالية البال لا تحمل ذكرى واحدة لأيام عديدة قضتها على شاطىء الترعة خضراء مونقة متفصدة بالحيوية والنماء تتمايل أوراقها مع الريح وتستقبل ضوء القمر وتغفو مع ليل القرية الموحش العارى الكئيب » . ومن هذا الموقع يرى بقرة نجر المحراث كادت تخطو خارج الخط المحدد فأعادتها « فرقلة » الفلاح اليقظ لكنها قبل أن تتراجع عما همت به تلفتت ونفضت رأسها نفضتين عاين فيهما الكاتب « أول علامات الشروع فى تمرد قديم مضى عليه ستة آلاف عام ولم يتحقق » لكن العلامة البكماء الذليلة الواهنة لم تذهب سدى لقد خلقت وراءها فى الفراغ الناجم عن شروعها الموءود إيماءة عتاب دينى صامت مستسلم قدرى حزين .

ومن هذا الموقع الذى يتوحد فيه الكاتب مع أمواج نهر الحياة المتدفق فى شرايين مصر منذ زمان سحيق وعبر أجيالها المتعاقبة يقترب الكاتب من حالة نفسية تعترى إحدى شخصيات قصصه تعانى فيها شعورا بالاكتئاب لا تكمن بواعثه فى معطيات اللحظة الراهنة فيحدس أسبابه فى شعور بالتوجس من خطر مجهول لعله انحدر من جدة بعيدة دلقت ذات ليلة من ليالى « هاتور » طشت ماء على العتبة ولم تذكر اسم آمون أو لم تمجد المسيح أو لم تبسمل فى سرها .

لا يستعرف القارىء إذا فى أدب « روميش » على القرية المصرية لكنه يتعرف على المستويات الروحية الدفينة فى كيان الذات المصرية حيث ترتفع المسافة بين الكلمة التى وضعت للدلالة على الشر وبين الشر ذاته وتتحول الأحلام الشريرة حين تحل فى الكلمات الى واقع شرير وتنزل الملائكة من سماواتها لتوقظ المؤذن لصلاة الفجر وتنبح الكلاب حين يهبط ملاك الموت ليقبض الأرواح وتسكن القرين « الأخت التى تحت الأرض) فى أجساد القطط وتحمل السحلية مفتاح الجنة وتمتد الأيدى بالضراعة حول ضريح الولى الصالح وحيث تستودع الجموع أحلامها فى العدل أبطالا مغاوير نسجتهم السير الشعبية من التاريخ والحلم والخيال وحيث يطرب البسطاء حين يصوغ المغنى من عواطفهم الخرساء شعر مواويله .

ينتمى الكاتب إلى ذلك الكيان الكبير الذى يحتل فى وجود مصر المعاصرة « أفقها الغربى » البعيد عن أضواء السلطة وبريق الأعلام وصراع التيارات السياسية وجدل المثقفين .. أفقها السادر فى ظلام أبدى تملؤه المخاوف بالأشباح والجنيات وشخوص الكوابيس . ومن هذا الكيان الكبير يختار شخصياته : إبراهيم .. ست أبوها .. نظيرة .. هانم .. فتح الله .. سلامة .. نحية .. حسان .

تعكس بعض هذه الشخصيات تعاطفه معها وظلالا من شعوره بالأسى نحوها : فى قصة « فرح سلامة » يكبر سلامة ابن عم منصور ويبلغ مبلغ الرجال ويطلب من أبيه أن يخطب له عروسا مناسبة .. يحاول عم منصور أن يرجىء مشروع الزواج لما بعد شهور العسر . ولأن الإبن يعلم أن شهور العسر لا تنقضى يرفع راية العصيان ويتمرد على العمل مع أبيه فى الحقل ويهدد بترك البيت والسياحة فى أرض الله . ويرضخ عم منصور لرغبة الإبن ويوافق على زواجه لكنه يضطر للحصول على تكاليف الزواج . إلى الاستدانة ورهن حجرة من بيته وبيع محصول لم يزل فى الأرض عيدان خضراء ، وتدوى الزغاريد فى بيت عم منصور ويتألق ضوء « الكلوب » ويحتشد الناس فى بيته الصغير لكنه يراقب كل ما يدور حوله فى صمت مهموم وقد أعياه أن يجد فى كل هذه المظاهر الصاخبة أى مبرر للفرح .

لكن تعاطف الكاتب مع شخصياته لا يشغل فى إطار رؤيته لحقيقة العلاقات الاجتماعية فى ريف مصر أكثر من هامش محدود فهو تعاطف من يرى حقيقة ضعفهم وقلة حيلتهم .

فى قصة « الليلة الجايعة » يغضب الفلاحون لأن سواقيهم توقفت عن رى أراضيهم بينما دوى فى آذانهم صوت ماكينة المياه تروى أرض العمدة ، ولأن الليل أسدل ظلامه على الحقول أطلقوا العنان لغضبهم : شتموا العمدة وأغلظوا له القول وانهالت أحجارهم على الماكينة حتى توقفت كانوا يشعرون بالأمان لأن العمدة لم يكن يميزهم فى الظلام ولكن ما إن ملأ النهار الدنيا بنوره الفاضح وأعلنت الحدود المرسومة الراسخة عن وجودها الصلب المنيع حتى سارع الفلاحون - الذين تمردوا بالأمس - إلى إصلاح الماكينة وتوسيع القنوات بأيديهم فى حقل العمدة أمام المياه المتدفقة .

لكن تعاطف الكاتب مع شخصياته أو إدراكه لحقيقة العلاقات الاجتماعية بين ملاك الأراضى والأجراء لا ينزلق به إلى طمس الملامح الفردية الخاصة لشخصيات

قصصه حتى ترقى إلى مستوى تجسيد الملامح الاجتماعية والثقافية لجماهير الفلاحين .

إنه يدرك بوضوح وعمق أن النفاذ إلى أسرار التكوين الخاص لهذه الشخصيات والقدرة على رصد دقائق حياتها النفسية هو ما يعطى الدلالات العامة لرؤيته عمق التأثير وحيوية الحضور ويحيلها فى وجدان القارىء من مقولات فكرية مجردة إلى خبرة شعورية ووجدانية .

فى قصة « لكل شىء حقيقة » يقدم الكاتب شخصيتين تنتميان اجتماعيا إلى طبقة الأجراء : « نجية » الخادمة فى بيت رشاد افندى شيخ العزبة و« حسان » حارس بيته : كلاهما يخدم نفس السيد وينفذ مذعنا نفس الأوامر ويحصل فى آخر الأمر على بعض الفتات المتبقى من نفس المائدة . لكن التقارب بين موقعيهما فى أدنى درجات السلم الاجتماعى لا يفضى إلى تقارب عاطفى أو سلوكى أو فكرى ويظل مجرد هامش يصل بين دائرتين منفصلتين . كانت نجية تمتلىء حيال سادتها بروح الإكبار والتهيب ، وكان حسان يشعر إزاءهم بتعال يبلغ أحيانا حد الاحتقار . كانت نجية فلاحة سليلة عائلة من المزارعين وكان حسان صعيديا خبر الحياة فى مغارات الجبل وخالط الرجال المدججين بالبنادق وامتلأ بكبرياء القدرة على استخدام السلاح وتحدى الخصوم وملاقاة الموت . كانت نجية تريد « حسان » رجلا وزوجا لكنها تناور وتراوغ وتذهب إلى هدفها عبر أبعد المحاور عن بؤرة اهتمامها . وكانحسان يقصد إلى هدفه عبر أقصر الطرق وأكثرها استقامة . كان حسان يشعر بالأمان يأتيه من داخله : من تفرده وترفعه واطمئنانه لكفاءة السلاح فوق كتفه . وكانت نجية تبحث فى محيطها عن أمان يسبغه عليها رجل وتأوى تحت سقف بيته وتحتمى بقوته وتأنس به وتطمئن على ابنتها فى ظلال أبوته .

كان حسان يلتقط من جسد نجية وصوتها ونظراتها إشارات تغازل رجولته لكن الإشارات كانت تأتيه بين خيوط مراوغة يختلط فيها القبول بالاعراض والامتناع بالتمنع وصدق الرغبة بادعاءات النفور . إن زواج حسان من نجية لم يكن يعنى عنده سوى إشباع رغبته فى جسدها عبر أبسط أشكال العلاقات وأكثرها وضوحا . لم يكن يرى الزواج - كما تراه نجية - بيتا وطفلا وامرأة وعلاقات أجتماعية وحياة مستقرة ولذا ما إن اكتشف أنه بزواجه من نجية قد استبدل سماءه بعش صغير حتى انطلق - ليلة زفافه - بعيدا عن كل بيوت العزبة .

يكاد الكاتب أن يصارحنا عبر ذلك التوحيد الحميم مع شخصياته بنفوره من كل محاولات قمع الوجود الإنسانى وطمس ملامحه وتسطيح أعماقه لتتناسب مع قوالب فكر أو إطارات مذهب أو مقتضيات دراسة أكاديمية . إن هذه المحاولات تحرمنا من أن ننهل من مياه عذبة غزيرة تتدفق من نبع حى لا يزال مطمورا فى الأعماق . . نبع من حياة روحية شديدة العمق والغنى يتدفق فى شخصيات لم ترهف مشاعرها نعومة الحياة ولم تصنع ثقافتها كلمة مكتوبة ولم تعرف طوال عمرها ترف الجلوس على المقاعد لتلقى العلم . . شخصيات تعانى شظف العيش إلى حد المكابدة لكنها - وبرغم كل ظروفها القاهرة - يمكنها أن تحمل بين جوانحها قدرة على الحب بالغة الرفعة والعمق . حب نطالعه فى قصة التشييد من الأفق الغربى يملأ قلب إبراهيم الفلاح الشاب لـ « ست أبوها » الفلاحة الصبية : يبزغ من فؤاده تحت لهيب شمس العمل فى حقول الوسية وينمو رغم غلظة الحقول وقسوته وينطق لسانه بالمواويل حتى وهو يغالب خوفه من كثرة القادرين المتنافسين الطامعين فى جمالها وشبابها .

كان إبراهيم أحد الرجال الذين أخذتهم السلطة الإنجليزية خلال سنوات الحرب العالمية الأولى وسخرتهم لشق طريق تمتد سككه الحديدية لتربط جنوب الشام بشماله وقد ظل يعمل بمعوله فى صخر الجبل فى ظروف شديدة البؤس والقسوة ؛ إذ كان يعانى خلال عمله الشاق من الجوع والعطش والخوف من العقاب والرعب من إعياء يخشى أن يعتريه فيلقوه أسفل الجبل فى جبانة يتجاور فيها المرضى والموتى .

كان إبراهيم نجيا محنته بكل ثقلها الضاغط على عقله واعصابه ويشعر بدبيب الموت يسرى فى جسده لكنه يستطيع أن يكاشف « عواد » (ابن قريته ورفيق رحلة عذابه اليومى) بحبه لـ « ست أبوها » فإذا به حب لا يكشف عن افتتان بجمالها أو شغف بابتسامتها ووجها الصبوح أو احتياج لحنانها . إنه حب يرقى إلى مستوى شديد الرفعة والتجرد . . مستوى الحب الأعظم للحياة الذى نأخذ من روافده إعزازنا للأب وللأم وللإخوة وللأصدقاء وللوطن .

يلفظ إبراهيم أنفاسه الأخيرة وحيدا وغريبا ومريضا ومعذبا حتى الموت لكن ذلك الحب الفريد لا يذوى معه . إنه يتوهج فى قلب « ست أبوها » إخلاصا ووفاءً وزهدا فى كل الرجال . ولأن زواج المرأة من أى رجل هو عنوان الأمان من الفقر تواصل « ست أبوها » العمل فى الحقول حتى آخر سنوات الشيخوخة وتعتصم من مذلة الحاجة للناس بتعففها وقناعتها بالكفاف ، ولأن الزواج من أى رجل هو باب الخروج من ليل الوحدة الموحش البارد تجعل ست أبوها من ليلها وقتا للراحة بين نهارين حافلين بالعناء وتملؤه بطقوس العبادة .

إن هذا الحب الفريد هو ما نطالعه مرة أخرى فى قصة الليل . . الرحم : فتح الله يحب هانم ومن أجل هذا الحب يقفز فوق الأسوار الفاصلة ويتخطى الحدود ويقتحم الممنوع والشائك ويخاطر حتى بحياته . ينتمى فتح الله إلى عائلة من صغار ملاك الأراضى تكون قطاعا يفصل بين كبار الملاك والأجراء الذين تنتمى إليهم هانم ، لكن ما يفصل بين هانم وفتح الله ليس الفارق الاجتماعى فحسب فهى بنت رجل يأوى أبناء الليل فى بيته ويخفى لهم المواشى المسروقة ويعمل فى خدمة العمدة خفيرا وسمسارا وقوادا ولا يعنيه أن يخوض الناس فى سمعته أو عرضه . هل تنفصل هانم عن هذه البيئة وتنأى بجمالها وعفافها عن الفساد اللصيق بها .

يخاطر فتح الله بمنزلته الاجتماعية لإنقاذها متقمصا دور الفارس الشهم ؟ لقد ضبطت هانم متلبسة فى أحضان ابن العمدة . سقطت سقوطا مفضوحا وأدانها الجميع لكن فتح الله ظل يحمل فى طيات سخطه عليها وازدرائه لها شعورا عميقا بالحب يضنيه ويعذبه . لقد حل الوباء بالقرية وبانت الحدود الفاصلة بين كبار

ملاك الأراضى والفلاحين . جسّدها سور غير مرئى يفصل بين عائلات تحرص بكل ما تملك على الحياة وعائلات تعجز سواعدها المزيلة عن حماية أبنائها من الموت . داهم هاتم المرض وأصبحت وحيدة فى دارهم بعد موت أمها فهل يذهب إليها فتح الله - رغم كل ما جرى - معرضا حياته لخطر العدوى ؟ لقد ذهب إليها محبا ومشفقا وحزينا . كان حبه قد تجرد من الشهوة ومن العاطفة وتجاوز دوائر لياقة السلوك وضوابط الأخلاق والتقاليد الاجتماعية وتحول إلى محض رحمة ونبل .

جرد فتح الله بالفأس ما تقيأته هاتم وغير لها ملابسها وعاونها كى تقضى حاجتها وكنس لها المصطبة لتجلس . فعل كل هذا وكأنه يمارس طقسا صوفيا يتجلى من ذاته بسيطا مثل نور هادىء .

وتموت هاتم ويقف فتح الله أمام قبرها قبل أن يصمم على الخروج النهائى من كل ما يمت إلى عالم القرية ويتبدى هذا الحب العميق السادر فى إنكاره لكل تقاليد المجتمع وأعرافه المتسم بقدر كبير من الجموح والتمرد بوصفه هامش الحرية الضئيل الذى انتزعه فتح الله من زنازين القهر المتعدد المستويات المتراكم عبر الأجيال ، الجاثم فوق الرؤوس مثل سيف أبدى ، وبوصفه الوجه الآخر لتمرده على قيود الارتباط بالأرض والبيت والعائلة والتقاليد الصارمة واختياره لحياة أخرى مغايرة يقتسم فيها الموت والكبرياء مع أبناء الليل : « أولئك الذين لا ينامون فى المغرب مع الفراخ والذين خلقت رؤوسهم واقفة لا تعرف ذل الانحناء والذين لا يملكون أرضا لكنهم يملكون - فى الليل - الدنيا كلها » .

القاهرة : محمود عبد الوهاب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

متابعات

كيف يتحدث الشاعر عن الوطن حين لا يتحدث عنه
قراءة في "مسيرة بيروت" للشاعر حلمي سالم

حسن طلب

يكتسب ديوان « سيرة بيروت » للشاعر حلمي سالم أهميته موضوعياً بوصفه أنموذجاً لشعر المقاومة العربية الذى أنتجه الغزو الصهيوني للبنان وحصار بيروت صيف ١٩٨٢ ، كما يكتسب أهميته فنياً بوصفه إضافة جديدة لرصيد الحركة الشعرية فى مصر ، وإخيراً يكتسب أهميته ذاتياً - أى فيما يخص الشاعر حلمي سالم نفسه - بوصفه آخر ما آل إليه تطوره الفني - حتى اللحظة - وتجريبه الجرىء الدؤوب .

فى شعر المقاومة ، وفى أدب الحرب عموماً ، تفرض الأحداث المتلاحقة نفسها ، وتطفو على السطح جزئيات كثيرة طافحة برائحة القنابل ومخضوبة بنجيع الأشلاء ، ومسكونة بغبار المعركة ، بشكل قد يصادر على أى شعر ، وربما على أى تصوير فنى من جنس آخر . ولذا ، يجد الشاعر نفسه فى تجربة كهذه أمام امتحان حقيقى ، خاصة إذا كان شاعراً تجديدياً أصيلاً ، فهو فى هذه الحالة ، لن يقنع بمجرد الطاقة الحماسية الهائلة التى تتيحها له تجربة الحرب ، لكيلا يكون عليه فى النهاية إلا أن ينظمها ، أو يؤرّخ لها ويرتب وقائعها !! وكثير من شعر المقاومة العربية الذى شهدناه فى أثناء غزو لبنان وحصار بيروت ، أو حتى فى مناسبات المحن العديدة المشابهة التى ألمّت وتلمّ بنا ، لا يخرج فى معظمه عن تلك القناعة الساذجة التى تجعل من القصيدة تابعاً للمعركة وصدى باهتاً لأحداثها وترجمة ركيكة لشاعريتها العالية .

كيف استطاع حلمي سالم ، إذن ، أن يواجه ذلك الامتحان ؟ وهو الذى عاش تجربة الحصار بكاملها ، وشارك زملاءه من المثقفين والفنانين الفلسطينيين واللبنانيين والعرب الآخرين ، روعةَ التصدى لهذا الحصار ؟ كيف واجه ذلك الامتحان العسير وقد كان هونفسه ترساً فى عجلة المقاومة التى امتزج فيها الحبرُ بالدم ؟

لقد رأينا حلمي سالم يعود من التجربة ليكتب حولها ويؤرّخ لبعض وقائعها نثراً فى كتابه « الثقافة تحت الحصار » - الصادر عن دار شهدى بالقاهرة أوائل عام ١٩٨٤ - فما الذى تبقى له لكى يصوغه شعراً ؟ ما الذى تبقى لشاعر تجديدى طليعى حول تجربة حية وفظة وأكثر واقعية من كل ما هو واقعى ؟

إنها لمعادلة صعبة حقاً ، فلننظر كيف أقام الشاعر من تجربته الفنية بناء رهيفاً يجعل من المعركة قصيدة ومن القصيدة معركة ، متجاوزا النمط السائد الذى ألفناه فى معظم شعر المقاومة ، الذى يجعل من القصيدة صدى للمعركة وصورة تحيل دائماً إلى بهاء الأصل .

فى إطار البحث عن حل فنى لهذه المعادلة ، يمكن أن نرصد ، بشىء من التعميم ، طريقتين تجسدت من خلالهما أروع نماذج شعر المقاومة : إحداهما تقوم - كما عند محمود

درويش - على التجربة الملحمية المطوّلة ، بكل ما يمكن أن تشي به الملحمية هنا من تراجيديا البراءة والعنف ، والأخرى تقوم - كما عند سعدى يوسف - على اللحظة الشعرية المكثفة ، التي يمكن أن تتجسد فقط في قصيدة قصيرة أو ربما في مقطع محدود لكنه مشحون بكل ما يمكن أن تختزله هذه اللحظة من توتر وفجيعة . وقد مال حلمي سالم إلى هذه الطريقة الثانية ، فمعظم القصائد التي جمعها تحت عنوان « مقطوعات الحصار » تصلح شاهداً لذلك . ولنقرأ قصيدة من هذه المقطوعات بعنوان « بوابتان » :

المدى وردة مشتعله
والأرض فتنة جريحه
تطبخ البقول والجحيم
السماء طلقة محتمله
والعازف الحميم
يضرب القيثارة المكحّله :
بوابة لبيروت
وبوابة للدماء
هذه ترتب البيوت
وتلك تعلن الفداء
النخل ذاهب يموت
والريح تخطف المساء
وخطة العنكبوت
كون من الشهداء
بوابة لبيروت
وبوابة للدماء

أو قصيدة « اسم » التي اختزلت المسافة بين الموت والحياة في خمسة أسطر لا غير :

المدينةُ التي تعادل الوجودْ
تصنع السنبلات مرة
ومرة تصنع الرعود
واسمها في الحالتين :
صمـــود .

غير أن الشاعر حلمي سالم حين يلجأ إلى قصيدة الومضة المختزلة ، لا يبتدع نمطاً أو طريقة شعرية جديدة في البناء أو في الصياغة ، فهذا النوع من التجارب الشعرية معروف وموجود في ثنايا التراث العربي والعالمي . وقد رأينا شاعراً كبيراً مثل سعدى يوسف يختار أن يصوغ تجربته على هذا النحو في القصائد التي كتبها حول الحصار ، لكن حلمي سالم يختلف عن سعدى يوسف ، على الرغم من ذلك التشابه الأوّلي العام .

ونستطيع أن نقف ببساطة على ملامح خاصة لتجربة حلمي سالم وسماتٍ فنية مميزة لقصائده ، حتى منذ القراءة الأولى :

١ - من حيث الإيقاع :

من ناحية الإيقاع ، لن نجد حلمي سالم يعتمد كليةً على الموسيقى الخليلية في بناء تجربته الإيقاعية . إن أشد ما يميز شعر حلمي سالم هو هذا النزع ، لا إلى رفض التفعيلة الخليلية ، بل إلى احتوائها ، لتظل في النهاية عنصراً أساسياً ، ولكنه ليس وحيداً ، في العالم النغمي ذي الغنى الإيقاعي اللا نهائي للقصيدة . وهنا يكون مصطلح «قصيدة النثر» الغامض - بل ربما المتناقض - عاجزاً عن توصيف ذلك النزع ، بنفس درجة العجز أو القصور التي يكون عليها المعيار الخليل . مثلاً ، يقول حلمي سالم في قصيدة «اختصار» :

يا وردة الحصار
زيّني عروةَ المدينة المشاكسه
واخصِ على المدى
فضيحة البيارق المنكسه .
يا وردةَ الحصار
لملمي البنادقَ المكرّسه
لسكة نسمّي حريقَها : انتصار
يا وردة الحصار

مثل هذا الشعر ، سنغالط أنفسنا إذا سمّيناه شعراً منثوراً ، في الوقت الذي إذا عاملناه بالمعايير الخليلية الصارمة ، سنجد فيه «كسوراً» ولكن هذه «الكسور» ، بقليلٍ من التأمل ، ستفصح في النهاية عن تداخل واضح بين بحرين خليليين ، أو بالأحرى بين تفعيلتين اثنتين هما (مستفعلن) من الرجز و (فاعلن) من المتدارك . ولا شك أن حلمي ، وهو صاحب التراث الطويل في الكتابة الخليلية المنضبطة ، لا يمكن إلا أن يكون قد قصد إلى إحداث هذه «الكسور» أو ذلك التداخل عن عمد . وفي نماذج أخرى كثيرة لا يتسع المقام لإيرادها ، نجد التداخل في شعر حلمي قائماً ، ليس بين تفعيلتين أو بحرين خليليين فحسب ، ولكن بين تفعيلة معينة ، أو مجموعةٍ من التفعيلات تَرِدُ بشكل غير نسقي ، وبين عناصر موسيقية غير خليلية بالمرة . إن الأمر هنا يحتاج إلى درسٍ علمي متخصص ، لاكتشاف مثل هذا التداخل الذي تتكون منه البنية الإيقاعية في قصائد حلمي التي تجرى على هذا النهج ، وضبط قوانينه وأسسه الجمالية . إن القسمة الرباعية التي كان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أدونيس قد طرحها منذ سنوات وهو يدرس هذه المسألة ، حيث فرّق بين :

١ - نثر/شعر
٢ - نثر/نثر
٣ - وزن/شعر
٤ - وزن/لا شعر .

مثل هذه القسمة الرباعية تبدو غير كافية بمنطقيتها المحسوبة ، لاستنفاد كل الممكنات الأخرى للبنية الإيقاعية فى الشعر ، وفى شعر حلمى خير شاهد على ذلك ، حيث تنشأ الحاجة إلى إضافة خانة جديدة إلى تلك القسمة الأدونيسية الرباعية ، ولنسمها مثلاً (وزن متداخل فى النثر = شعر) . ولعل ذلك يكون هو الإنجاز الذى تميز به حلمى سالم ، دون شعراء جيله ، فضلاً عمن سبقه .

٢ - من حيث اللغة :

لكل موضوع شعرى لغته الجاهزة ، وعلى الشاعر المجدد أن يتوقى الخضوع لها ، عليه أن يضيف إلى ذخيرة هذه اللغة ، أو يُعمل فيها تعديلاً وتبديلاً واشتقاقاً وتركيباً . وإذا كنا نتوقع فى شعر المقاومة أو تصوير الحرب أن تكون اللغة دائرة فى فلك محدود من الدلالات والألفاظ التى تشير إلى : القنابل .. المدافع .. الرصاص .. البنادق .. الدمار .. الخراب .. النيران .. القتل .. ، فإن شعر المقاومة العادى ، هو ذلك الذى يخضع لسطوة هذا القاموس الجاهز ، فتقوم صوره على العلاقات المجازية المحددة بين مفردات ذلك القاموس ، وتجىء القصيدة فى النهاية مجرد تصوير باهت لواقع ساطع .

فى « سيرة بيروت » لا يقع حلمى فى ذلك الفخ ، ولذا يرتفع شعر المقاومة عنده عن درك الشعر العادى إلى مصاف الشعر العالى ، كيف استطاع ذلك ؟ الإجابة أنه استطاع أن يوظف قاموس الحياة العادية البسيطة بثرياتها وزخمها الأسر ، لكى يعبر به عن تجربة الحرب ، أى أنه ببساطة أشد ، يتحدث عن الحرب حين لا يتحدث عن الحرب ، ولنقرأ هذه المقاطع :

يقول حلمى فى قصيدة «ضاحية» :

«وردة على الليلكى
يشكّها الفتى بتنوّرة الفتاة والضفيره
مسمياً جفونها رصاصةً على الظهيره
هامساً فى رموشها : ادبكى
الدبكةُ استحالت رقصةً مثيرة
وكفاً من الحنان ربّتت على وجنة الليلكى» .

ويقول فى قصيدة «حزام» :

«الليلكى ، والبرجُ ، والرملةُ البيضاء
شوارعُ مليئةٌ بالخضار الحربى والفاكهة العسكرية :
برتقالاتٌ مشحونةٌ حمراء
بطيخ يتطاير فوق سطوح البنايات الواقفه
كرزٌ مستدير يدخل أجسادَ النساء
وأجسادَ القاعدين إلى موائد الإفطار الرمضانى
أرتالٌ من الشمّام تخترق الجدران
وفاصولياء
تملأ الخنادقَ والخواصرَ والمواسيرَ الطويله
وتنطلق
فى الصدور المداهمة» .

أما فى قصيدة «قرنفلة مختلفة» فيقول :

«قرنفل من الحديد والغصون
صار فى رملةٍ بيضاءَ مركبه
يغزُها عاشقون
صوبَ خطٍّ من الفخاخ يشبه الشجون
ويصنعون من توهّج العيون
أو من تراقص المسغبة
رغيفاً من الجفون والسماء
وفاكهةً من بلادٍ معذبه
يأخذ البحرُ لونها وشَعرَها
ويمنح انفجارَها
قميصَه ومنكبَه
ويطلق اسمَها على النخيل
واسمُها : الحدائقُ المذهّبَه .
الحدائقُ امتلأت خضرواتٍ وفاتحين
واشتعالاتٍ وأجوبه
والسؤال كان : من لقرطبه ؟» .

ويلفت النظر فى هذا المقطع الأخير ، لجوء الشاعر إلى الضرورة فيما لا ضرورة له ، ما الذى دفعه إلى أن يقول (امتلأت) بدلاً من (امتلأت) ، وهو الذى لا يتقيد بحرفية التفعيلة ؟!

على أية حال ، تشهد هذه المقاطع بوجه عام ، على نجاح الشاعر فى الحديث عن الحرب بغير الحديث عنها ، أى بغير الخضوع لمعجمها ولمنطق العلاقات الذى يحكم هذا المعجم .

٣ - من حيث التصوير :

يقتضى منطق القصيدة القصيرة المكثفة ، أن تكون الصور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والرموز بسيطةً إلى الحد الذى يجعلها سريعة النفاذ إلى الحس ، غنية إلى الحد الذى يجعلها تستحوذ بوميضها على كل الانتباه ، فلا يفتر الانتباه الحسى إلا لكى يبدأ التأمل بما يصحبه من نشوةٍ جماليةٍ .

ويستخدم الشاعر ــ وهو فى ذلك متسق مع نفسه ومع منطق قصائده القصيرة الوامضة ــ كثيراً من الصور التى نسجها من رموز بسيطة دالة . ولنقرأ قصيدة «يد ضئيلة : قوس» التى يقول مطلعها :

«قال لى حَجَرٌ :
أنا الزمانُ الحقيقىُّ ، والتواريخُ الأُخَر
هشيمٌ انحنى وانكسرْ .
قال لى حَجَرٌ :
خذوا شريعةَ الطريق منى :
يدٌ ضئيلةٌ : قوسٌ ، والمدى وتر
واصلٌ بين اشتعالة الجذور والغصون والثمر
فى عيونى ،
وبين انطفاءة الزنا فى عيون غاصبٍ سافرٍ ، سَفَرْ .
قلتُ : يا حَجَرْ
أأنت نهرٌ مخالفٌ ، أم تُرى شَرَر ؟
قال لى : يدٌ ضئيلة : قوسٌ ، والمدى : وَتَرْ
أنا بدايةُ الهطول فى مسيرة المطر
الراجمُ الرجيمُ
والغاضبُ الحليمُ
والشارد المقيمُ
وقاذفُ : النخيل ، والأجِنَّة ، البيوتُ ، والشجر
والمدى بين طلقةٍ وطلقةٍ : وَتَرْ .
قلت : يا حجر
فاخترقْ إذن أراثكَ الملوك والمكمِّمين ،
قُتْ فى عروش ذلك الدجى الطويل» .

إلى أن تنتهى القصيدة على هذا النحو :

«قلت : أنت الزمانُ البديىُّ الذى التمْتْ شظاياه
وزمانُهم كِسَرْ
قال لى الحجر :
فارقبوا إذن مجيئى ،
ارقبوا إذن مجيئى
سأسمِّى طلعتى :
خطر
خطر
خَطَرْ»

ومع أن الحجر هنا رمز بسيط ، فإنه ليس رمزاً مسطَّحاً ، فالحجر هنا ليس ذلك الحجر القديم الذى لا يرمز إلا لعالم الجماد بشكل منطقى متوقع ، كما أنه ليس حجر إيليا أبى ماضى الذى لا يرمز منطقياً أيضاً إلا لكل تافه الشأن من الأشياء والناس . كلا ، ليس الحجر هنا شيئاً ، ليس جماداً ، ليس بشراً ، إنه باختصار يختزل فعل المقاومة ويجسد كل معنى نبيل من معانيها ، إنه يصور كل ما هو شريف من أشياء وأشخاص على أرض الوطن ، إنه يصور الوطن نفسه .

رمز آخر شامل لأنه ينتشر فى قصائد الديوان من أولها إلى آخرها ، هو رمز الأنوثة ، بل كل ما يشع به ذلك الرمز من دلالاتٍ حية على الخصوبة والعشق والقداسة ، وبكل ما يلعبه من دورٍ عضوى فى التجربة الكلية لقصائد الديوان ، بحيث لا تصبح الأنثى هى الوطن فحسب كما تعودنا فى التوظيف السائد ، بل يصبح أيضاً فعلُ العشق هو فعل القتال ، وتحقيق الحب تحقيقاً للحرية ، وانتصار الحب انتصاراً للوطن . ولمَ يدافع المرء عن وطنه إن لم يكن من أجل الدفاع عن قيم إنسانية رفيعة تتوزع بين الحرية والحب والجمال ؟ وهى قيم لا يوجد رمز غير رمز الأنوثة قادر على اختزالها وتصويرها فنياً ؟

يقول الشاعر فى قصيدة «البرزخ/صيف ٨٢» :

«وتمضى إلى زينة العاشقاتِ
تُرطِّبُ جبهتَها بالندى
وتكحِّلُ مقلتَها بالمدى
وتفتِّتُ منبتَ تفاحتيها موضحةً رمزَ بعض الخفايا
لتمشى إلى الملعب البلدى تناجى الزوايا
فأفتح حزنى سبيلا
أجوب بلادى قتيلا» .

ويقول فى قصيدة «المعشوقة والعربى» :

«كانت تعتكف على أضلاعى
تقترح على بدنى فتنتها
وتقول للحمى : حين تشارفُ أحصنةُ العربِ صبابتَها
سأحلُّ على بطنكَ شَعرى ،
كى ألتمَّ على جبهتكَ فضاءٌ يسكن فى الهدبين» .

ويقول فى قصيدة «تشبهين روحى» :

«كانت النخلةُ ،
تعاين انحلالَ جسمكِ الوسيع فى الرمل
على فراغ لحننا ،
وتسمع النعىَ فى مآذن القرى
قبل أن تذيعه الصحيفةُ اليومية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقبل أن يحمله
نسيمُ الحقل للدُّستِ العمومىّ» .

وفى قصيدة «تزيَّنتْ بكحل النهايات» :

«تزيَّنتْ بكحل النهايات ،
واختارتْ افتراحَ رَمْىِ قُلَّةٍ على جمرة
وراقبتْ حنينَها الملىءَ بالسكون
وعمرَها الذى شابهتْ رحيلَه بزهرة الحكايات» .

ففى هذه النصوص ، تفوح رائحة الحضور الأنثوى الطاغى ، ليس من أجل الزينة والزخرفة التصويرية ، بل من أجل تعميم قانون العشق الخالد على محابىء المدافعين عن الوطن وعلى أضرحة الذين استشهدوا دونه . ولعل القصائد القليلة التى خلت من هذا الرمز الآسر ، أو من أى رمز آخر بديل ، هى التى يمكن أن نصفها بأنها أضعف قصائد الديوان وأقلها شاعرية . ونسوق نموذجاً واحداً هو قصيدة «وجود» التى يقول مطلعها الحماسى الأمر :

«قاتِلْ
بالصدر العارى ،
بالجرح النازفِ ،
بالحزن المتكبر فى الحدقاتِ ،
بجوع الفقراء .
قاتل
بالحدادين وبالبنائين وبالشعراء»

وتمضى القصيدة على هذا النحو ، الذى قد يكون مبرراً ساعةَ القتال نفسها حين يحمى الوطيس وتلتهب الحماسة ، ولكن ليس بوسعها أن تبقى فنياً لأبعد من ذلك .

٤ - من حيث الرؤية :

حسناً فعل الشاعر حين ضم قصيدته عن «سليمان خاطر» إلى هذه المجموعة ، فالدفاع عن الوطن لا يتجزأ ، هو فى بيروت مثله فى أى مكان آخر . إن الحرية والكرامة الوطنية لا تعرفان الحدود الجغرافية ، والحصار الذى مُنيت به بيروت مضروب بشكل أو بآخر على هذه العاصمة أو تلك ، وهذا بالضبط هو الدرس الحقيقى الذى نخرج بعد قراءة الديوان وقد تسلّحنا بمحصوله .

يقول الشاعر فى قصيدة «وجوه تمنحنى وجهى» :

« التواطؤ المفضوح
مزّقَ الغلالةَ التى تقوم بين الخفاء والوضوح
فمتى نبوح ؟ » .

وهو فى آخر قصائد الديوان «حديث سليمان» يستلهم مقطعاً للشاعر اللبنانى الجنوبى المقاوم «شوقى بزيع» يغنيه المغنى الوطنى اللبنانى مارسيل خليفة ، يقول :

«فى الأفق عصافيرُ معاديةٌ
فى الأفق طيورٌ سودْ
فى الأفق دمٌ ورعود»

ثم يقول شاعرنا فى القصيدة نفسها :

« ــ سليمانُ
فمن أعداء سمائكَ وسمائى ؟
- قلتُ : الشارى والبائعُ
غاصبُ نافذتى والراكعُ
خاطفُ فرحى المتبوعُ ، وخاطف فرحى التابعُ ،
شاهدُ أوجاعى : الساكتُ والندمانُ» .

ولا تأتى هذه الرؤية الناصعة المتماسكة لتوحد بين قصائد «سيرة بيروت» وتصهرها فى بوتقةٍ واحدةٍ ، إلا كما صهرتها الرؤية التشكيلية الأبعد ، عن طريق استغلال طاقة الصور الحيّة البسيطة فى القصائد القصيرة الوامضة ، وإلا كما فعلت محاولة كسر التدفق الغنائى عن طريق مزج التفعيلة الخليلية بوسائل نغمية غير خليلية . وحتى عندما كان الشاعر يجرّب الالتزام بالتفعيلة الخليلية ، كان يلجأ بوعى إلى كسر حدّة الغنائية بالأناشيد الداخلية والمقاطع الحوارية ، من أجل ضبط هندسة البناء .

إن «سيرة بيروت» تجربة طليعية جديدة تُضاف إلى تراث شعر المقاومة العربى ، كما تُضاف إلى إنجازات الحركة الشعرية الجديدة .

الدوحة : حسن طلب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتاب.. وقضايا مطروحة

إسماعيل على

لولا أن هذا الكتاب يثير أكثر من قضية ما تعرضت له . والقضايا التى يثيرها على جانب كبير من الأهمية ، إذ تتصل بأهم مكونات العملية الإبداعية ، التوصيل ، الذى بدونه لا تنتج العملية الإبداعية أثرها ، لانتفاء شرط وجودها .

هذا الكتاب هو مجموعة قصصية بعنوان «البحث عن ثقوب الأرغول القديم» لمؤلفته سناء محمد فرج . وقد قدم للكتاب الأديب محمد الراوى .

والقضايا التى يثيرها الكتاب ليست وقفا عليه وحده . وإنما يشترك معه فيها عدد غير قليل من كتب أدباء الجيل الجديد ، وهذا هو مناط الاهتمام به .

الكتاب أولا من مطبوعات الماستر التى تعددت وتنوعت ، وزاد انتشارها فى الآونة الأخيرة . ولست أنكر أنه خرجت إلينا عن طريق هذا المنفذ بعض الأعمال الجادة ، لا أقدر أن أحصيها الآن عددا ، وأنه أسهم إلى حد بعيد فى تجاوز أزمة النشر والفكاك من أسر اختناقاتها . إلا أن الكتاب وكتباً أخرى مثله غير قليلة ، تؤكد أن ذلك المنفذ يستبيحه من كانت له هوية ومن كان بلا هوية . من كان مؤهلا للمرور منه إلى الساحة الأدبية ومن كان غير مؤهل لذلك ، فلا حارس له يصد عنه من لا حق له فى عبوره ، ولا رقيب عليه يميز بين من يتشدون المرور منه .

والكتاب من ناحية ثانية ، قدم له أحد الكتاب الذين تعرفهم الساحة الأدبية ، وعلى الرغم من أن الناس قد اعتادوا هذه المقدمات ، فإنه لا تعدّ إضافة للكتاب الذى تتصدر صفحاته ، بقدر ما تعد تزيدا لا طائل منه . لأن هذه المقدمات تقتصر عادة على تحية الكاتب والتبشير به ، فهو مبدع ، وهو واعد ، وهو ، وهو . ولو أن الكتاب الذى يتصدى لتقديم كتاب جديد يضمن سطوره المفاتيح التى وقف عليها من قراءته لمحتوى الكتاب ، وفنه ، لأعان القارىء ، وحفزه إلى قراءته ، وربما أضاء ذلك الكتاب الجديد جوانب تخفى عليه .

ولا أبخس هنا الكاتب محمد الراوى حقه ، فقد بذل جهدا مشكورا فى كشف بعض جوانب قصص كاتبته ، وجوانب فنها .

أما القضية الثالثة فهى أهم هذه القضايا ، لاتصالها بجوهر الكتاب ومحتواه . فالكاتب حين يعمد إلى تحطيم بعض عناصر القص ، تجاوزا لواقع ضاع منه الوهج ، واستشرافا لآفاق فنية جديدة ، فإنه يظل ملتزما بأن يبقى على ذلك العنصر الخفى الذى يربطه بالمتلقى ويجتذبه إليه . ذلك العنصر الخفى هو الشعاع الذى ينبثق فى وجدان المبدع لحظة الإبداع ، بوهجه ، ونفاذه ، حتى يبلغ وجدان المتلقى ، فيحدث فيه نفس الأثر الذى وقع فى وجدان المبدع لحظة الإبداع .

والكاتب الذى يفلت منه ذلك الشعاع ، يفتقد عمله الحرارة ، ويضيع منه الوهج ، فلا يجتذب إليه أحدا ، ولا ينجذب لأحد .

وذلك هو ما يغيب عن كثير من الناشئة وكتاب الجيل الجديد ، فهم فى محاولتهم تحطيم بعض القواعد المتعارف عليها ، تجاوزا لواقع واستشرافا لآفاق جديدة ، يحطمون بغير وعى منهم عنصر الجذب الخفى ، جواز مرور إبداعاتهم إلى أذهان المتلقين ، ونفاذها إلى وجداناتهم . وحين يفاجأون بإعراض المتلقين عنهم ، يصبون عليهم جام غضبهم ، ويصفونهم بالبلادة والتقاعس عن إعمال أذهانهم . ويمنون أنفسهم بأنهم ملاقون فى زمن آت ما كان ينبغى أن يلاقوه فى زمانهم هذا ، الراكدة ساحاته ، المتبلدة أذهان أهله .

والحق أن العيب فيهم لا فى زمانهم ، لأن المتلقين أفراد فى المجتمع ، يسهمون بسلوكهم فى تشكيل التجارب الفنية وتنمية خبرات المبدعين ، وهم الذين يتلقون التجارب بعد تشكيلها فى وجدان المبدع . وما لم يجدوا فيها صورة الواقع ، الصورة الأخرى التى تظهره على حقيقته فى وجهه الآخر كما يقول ماركيز ، فسوف يعرضون عنها .

إننى مع ماركيز فى قوله إن كل ما يجد من حرية الخلق هو رجعى ، لكنى أيضا مع الدكتور عبد الحميد ابراهيم فى قوله إن الفن ليس كهانة أو دروشة أو سيولة . ولكنه توصيل بالدرجة الأولى . وليس مهما أن يكون المؤلف فاهما نفسه ولكن المهم أن يفهم غيره عنه .

كيف يفهم القارى إذن قصصاً لجأت فيها المؤلفة كما يقول مقدمها فى تقديمه « إلى الأسلوب المخفى والرمز الدائر المطموس ، وكانت ضنينة جدا بالبوح عن المضمون والإفصاح عنه حتى ولو بدرجات محدودة » . وأية ضرورة تلزمه بأن يجهد ذهنه وينفق وقته فى محاولة « فك الإعتام المتعمد المراوغ ، وتفسير التجاء الكاتبة إلى استخدام بعض الدلالات الإسطورية والفرعونية وبعض الإيحاءات والنصوص الدينية فى قصصها » .

إن حرية الكاتب فى استخدام النصوص والإيحاءات ، والصور ذات الدلالات الرمزية ، والأحلام والتهويمات ، محدودة بمتطلبات العمل الفنى ما يورده الكاتب فى ثنايا عمله تزيداً يزيد ترهله ويدفع إلى النفور منه .

استخدم محمد جبريل نصوصاً من الكتب المقدسة والكتابات القديمة فى روايته (الأسوار) فلم تبد هذه الاقتباسات مقحمة على الرواية . بل بدت جزءا من نسيجها الفنى يكمل أصباغها وألوانها ويعمق معانيها ودلالاتها .

ونقل نبيل عبد الحميد فقرات من الانجيل إلى روايته (حافة الفردوس) الفائزة بجائزة الدولة التشجيعية . أوردها على لسان الأب العظيم ، الشخصية المحورية فى الرواية . فحبك منطقه ، وضاعف من أثره على أتباعه ومريديه ، ولو أنطقه بغير ذلك لما تحقق للشخصية اكتمالها الفنى .

ولجأ حافظ رجب إلى الصور الغريبة غير المألوفة ، وحشدها فى قصصه التى ضمتها مجموعته القصصية (الكرة ورأس الرجل) وما نشره بعدها ، لكنها كانت لاعتبارات فنية أراد بها أن يحدث صدمة للقارىء لتكون إطلالته على الصورة التى يضعها بين يديه للمجتمع إطلالة يقظة ، متيهة ، فاحصة ، واعية . عله يعيد تشكيل صورة المجتمع فى ذهنه ، ويصوغ رؤيته له صياغة جديدة .

وفى قصته « أبو الهول يزور الميدان » يفك محمود العزب تمثال أبى الهول من أسره الأبدى ، فينطلق إلى المدينة حاملا سؤالا لا يعرف مصيره ، يطرحه على موظفى مجمع التحرير دون أن ينطق به ، فيلزمون جانب الحذر لأنهم يصانعون الدهر والرؤساء . ويتمسكون بالروتين ، والخيطة عندهم ملاذ من العثرات . ثم يباغت به وكيل الخارجية فيقول له أنت جئت بأخطر شىء وأبسط شىء فى آن واحد . ثم ينتهى إلى ميدان التحرير وهو ما برح يتحسس أنفه ، فيجد خليطا من البشر ينغمسون فى القلق والعرق والانتظار يدهشون لوجوده بينهم ، ويتساءلون عن سبب تحوله إليهم ، وتحسسه الدائم لأنفه ، لا يخرج عن صمته ، ولا يطرح عليهم سؤاله ، فقد تخلى عنه .

أى سؤال ذلك الذى كان يحمله ؟ وكيف عرفه الكل دون أن يطرحه ؟ ولماذا تخلى عن طرحه ؟ أسئلة تفجرها القصة فى ذهن القارىء فهكذا يكون الفن . يطرح الأسئلة . يجيب عنها أو لا يجيب . وهكذا يكون الإبداع الحق . يستحوذ على المتلقى فيستغرق فيه ، ويغوص فى أعماقه ، يستخرج المخبوء فى ثناياه . يلقى فيه جمادا أو بشرا ، يصادف حيوانا أو طيرا ، يلمس سكونا أو صخبا . لا ينتبه لشىء من هذا ولا يشغله تميزه ، فما يعنيه المتعة السامية التى يفيض بها الإبداع عليه ، وما يثيره فى ذهنه من فكر خلاق .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، نجدها فى كتابات المبدعين من جيل الستينات ، وقلة قليلة من الجيل التالى ، الذين تؤكد إبداعاتهم مبدأ التواصل . فماذا فعلت الكاتبة سناء فرج فى قصصها ، وهى تشبه عددا كبيرا من أبناء جيلها ، فى الولع بالغموض المستغلق ، والإسراف فى استخدام الخيالات والرؤى الغريبة ، وتحطيم قواعد اللغة المتعارف عليها ، والجرى وراء اللفظ الغريب غير المرتبط ، والمغالاة فى جعل القصة أقصر ما تكون ، فضلا عن إغفال عنصر التوصيل

فى القصص الثلاث : صانعة الخبز ـ صانعة الفجر ـ صانعة الكروبات ، محاولة للمزج بين الطبيعة سخية العطاء والمرأة المعطاء .

تبدأ قصة «صانعة الخبز» بهذه العبارة «استقبلت السماء تنهداتها التى انسابت من صدرها . وقبل بزوغ الخيوط الأولى للفجر الذى أحسته قريبا منها بدأت تنفض عنها السواد القاتم» .

ومعنى هذا أن السماء والفجر قريبان من المرأة ، يتحدان معها وهى تتحد معهما وتحس بقربهما منها . وبعد سطور قليلة تقول الكاتبة «كانت الطبيعة تلفها برائحها النفاذة فى هذه البقعة من الأرض ، تنفذ داخلها فهى تعرف جلدها ، بريق عينيها ، مساماتها فتتحول إلى تيارات هوائية ، أو اعشاب صغيرة دقيقة متناثرة ، أو حبات مطر ، كل منها تختفى فى تعويذة سحرية وتنفذ فى أعماقها لتجد هويتها فى صدر صانعة الخبز» .

أى أن الطبيعة لم تعد ذلك البراح الذى يسع الإنسان ويحتو عليه ، بل صار صدر المرأة هو المكان الرحب الذى تذوب فيه الطبيعة ، وتجد فيه هويتها .

وتبدأ قصة «صانعة الفجر» بالإشارة إلى ذلك الانعكاس المتبادل بين مظاهر الطبيعة ومفردات الواقع وحركته ، فالأضواء التى تنفذ من خلال القطع الثلجية تكون أحرفا جديدة ، كالحروف المكتوبة بالأقلام الرصاص على صفحات كراسات الأطفال .

وتتكرر نفس النغمة فى قصة «صانعة الكروبات» إذ تبدأ بهذه العبارة «كانت

الشمس مستلقية على أريكة زرقاء مصنوعة من الشرائط الطولية الملونة السماوية ، وكأنها هذه الشرائط التي كانت جدتي تقصها لتصنع منها هذه الكريات الكثيرة» .

وإذا كانت المرأة ، الشخصية المحورية في القصص الثلاث تتحد مع الطبيعة ، وتماثلها في العطاء ، وكأنها المعادل الموضوعي لها ، فهي تعطي الخبز ، وتقدم المعرفة ، وتفتح الآفاق أمام الآخرين ، وتحفزهم على العمل والكفاح ، فإن المرأة في قصص : «البحث عن ورقة في شجرة منسية» ، و «البحث عن جدائل» ، و «البحث عن ثقوب الأرغول القديم» . تكاد تنفصل عن عناصر الطبيعة المحيطة بها ، تعيش منعزلة وحيدة ، تفتقد الضوء والدفء ، ولا ترى مما حولها غير الشحوب والاصفرار والذبول ، الريح عاصفة ، و «مصابيح السماء تتساقط كأتربة مخيفة» تحاصرها خيالات غريبة ، وتطاردها رؤى مفزعة ، وتمضي «تحت أروقة الكون الهامد بلا حراك بلا عيون» داخل سراديب مظلمة ، باحثة عن ورقة خضراء غير شاحبة ، أو حجارة غير ميتة ، أو «ضفاف جديدة يجبو عليها طفل البكارة وبدء التكوين» ، فتتنفس ضحكاته العذبة وهو ينقل خطواته الأولى» .

ولا يعيب الكاتب أن يوحد بين شخصياته وبين عناصر الطبيعة ، ولا يعد قصورا منه أن جعل بينها نفورا وانفصالا . فهو الذي يحدد الزاوية التي ينظر منها إلى شخصيته الفنية ، وهو الذي يختار من بين آلاف اللحظات ، اللحظة المناسبة التي يحاصرها فيها ، تلك اللحظة التي تكشف عن معاناتها ، وتتجمع في بؤرتها كل اللحظات السابقة عليها ، وما تفيض به اللحظة الحاضرة ، وقبس من اللحظات المقبلة . لكن الكاتبة لم توفق في صنع ذلك ، ففي القصص الثلاث التي اتحدت فيها المرأة والطبيعة ، لم يأت هذا الاتحاد من خلال تجربة إنسانية ، ولا تفجر من موقف مأزوم تعيشه .

صانعة الخبز واحدة كالأخريات تصنع الخبز لأهل القرية ، لا تخوض صراعا ، ولا تعيش تجربة مريرة ، ولا تقاسي عذابات مؤلمة من أجل تقديم عطائها . لم تدخلها الكاتبة تجربة إنسانية لتكشف لنا أبعادها النفسية ، وترينا مدى إصرارها ومعاناتها من أجل ما تقدم من فعل يميزها عن الأخريات ، ويستوجب اتحاد الطبيعة معها .

وبالمثل صانعة الفجر معلمة تقف أمام تلاميذها الصغار تلقنهم الحروف الأولى . لحظة عادية غير مأزومة ، عارية من الدفء النابع من تلاقي العلاقات الإنسانية ، أو احتكاكها ، أو تصادمها . وموقف مألوف متكرر خال من الصراع .

وشبيهة بالاثنتين «صانعة الكريات» التي تقبع في مكانها ، تلقي العظات والحكم في تقريرية ومباشرة .

أما المرأة في قصص البحث عن الأشياء المفتقدة ، فتبدو على العكس من ذلك فقد حاصرتها الكاتبة وهي في لحظات تأزمها . لحظات التحول من الجمود والسكون ، إلى الحركة ، الفعل ، البحث المضني عن شيء مفتقد ، لهذا تحوي تلك القصص شيئا من الدفء يجعل المتلقي على الاقتراب منها ، وإن كان الغموض الذي يسودها ويهيمن عليها يجعله اقترابا غير حميم .

وإذا كان العمل الفني الذي يكون مضمونه البحث عن أشياء مفتقدة تخوض الشخصية الفنية في سبيلها آفاقا بعيدة لا محدودة ولا محددة ، يبرر تضمينه مشاهدات غير مألوفة وبعض الرؤى والخيالات الغريبة ، فإن براعة الكاتب هنا تتمثل في أن يتقي من تلك المشاهدات والرؤى والخيالات ، ما لا يثقل عمله الفني ، وأن تكون بالقدر الذي يجعل الإعتام في العمل مشفا ، والرمز غير مستغلق ، فتطبع التجربة الفنية أثرها على نفس المتلقي ، وتبقى ملامحها في وجدانه طويلا .

ولو نظرنا إلى لغة القص في المجموعة القصصية فسوف نجد أن قاموس الكاتبة اللغوي ، يحوي مفردات كثيرة ، لكن التوفيق يجانبها في اختيار اللفظة المناسبة ، أو ما أسميه مجازا اللفظة المرتبطة ، أي التي تعبر أكثر ـ متى اقترنت بلفظة أخرى ـ عما يراد التعبير عنه . فالكاتبة ـ مثلها في ذلك مثل كثير من أبناء جيلها ـ يستهويها إيقاع اللفظ ، وغرابة ما يثيره من صور إذا ما اقترن بألفاظ أخرى . لا تحفل بما ينبغي أن يحويه اللفظ من شحنات وما يشعه من ظلال تعمق المعنى الذي يدور حوله ، والذي انتقي وصيغ من أجله .

في قصة «البحث عن جدائل» نقرأ هذه العبارة «أوضاع كونية تتبدل من حين لآخر ، سحابات زئبقية تتذبذب تحت خصلات شعري ، اندفع منها الصقر الرمادي محلقا ، يدور في الأثير دورات الوهم ، أقواس قزح تتداخل وتتشابك ، ألوان من الخيال ، الهواء ، الروح ، معارج يصعد إليها عقل ، تتعثر خطواتي ، يداهمني الخوف» .

ألفاظ متلاحقة لا تكون عبارات ذات معنى ودلالة ، تكشف أبعاد الشخصية وما تعانيه ، وإنما تخلق صورا متراكمة غير كاشفة ولا معبرة . وهو ما يؤكد أن الكاتبة تستجيب لكل ما يرد على ذهنها ، لا تنتقص منه شيئا ولو كان تزيدا أو إطالة لا مبرر لها .

يبقى بعد ذلك جانب هام أحب أن أشير إليه دون أن أجعل منه قضية رابعة ، وإن كان يرقى إلى ذلك ويستأهل المناقشة . ذلك الجانب هو بعد الكاتبة عن بيئتها المحلية ، فجميع قصص المجموعة ما تناولته منها وما لم أتناوله ، تجري أحداثها في بيئة غير محددة المعالم . والكاتبة حرة في اختيار أحداث قصصها ، وأماكن حدوثها ، لا قيد عليها . وعلى الرغم من ذلك فإن ابتعاد قصص المجموعة عن بيئة الكاتبة ، يطرح سؤالا لا مهرب منه ، وهو لماذا لم تتأثر الكاتبة بما جرى على أرض مدينتها السويس ؟ والسويس مدينة لها تاريخها المميز ، وما وقع على أرضها خلال الحقب الماضية مادة خصبة ثرية ، امتاح منها كتاب كثيرون .

ثلاث عشرة قصة تضمها المجموعة ، تدور كلها في عوالم لا هي غريبة ولا هي مألوفة . حتى تلك القصص التي اقتربت من أرض الواقع بدا واقعها ، غائما ، غير محدد .

قرية صانعة الخبز لا نرى حواريها المتربة ، أو شوارعها الضيقة بما يصطخب فيها من صغار وطيور ، ولا نتعرف على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حركة ناسها ، أفعالهم ، سلوكهم ، فتفهم لماذا يوقرون صانعة الخبز وينزلونها منهم تلك المنزلة السامية . ومثلها صانعة الكروريات .

المكان إذن لا يحظى بتحديد كبير ، فهو مجرد بقعة من الأرض ، أو حجرة ضيقة ، أو فصل فى مدرسة مجهولة . حين تتجه خواطر الشخصية فإنها تتجه إلى سرداب مظلم ، أو إلى براح غير محدد المعالم . وحين تنسحب خطاها فإنها تنسحب إلى أرض بور أو موحلة .

ولم تحظ الشخصيات من التحديد بأكثر مما حظى به المكان . الشخصية الرئيسية فى القصص امرأة مجهولة الهوية غير مسماة ، قسماتها الخارجية غير محددة ، وجيشانها الداخلى لا يكشف بعمق أبعادها النفسية . امرأة غير فاعلة ، تدور أكثر فى فلك خواطرها . وحركتها الداخلية والخارجية متى تحركت ، تكون بغير امتداد كبير سواء فى الزمان أو المكان . خطوات تخطوها على قدميها ، أو فوق ظهر حصان عجوز خائر القوى . وفعلها غير منته إلى نتيجة ، عقيم غير مثمر مثل عقمها .

ولقد آثرت الكاتبة أن تكون أكثر تجاربها القصصية بغير حدث ، وأن تجريها فى أماكن لا يسهل التعرف عليها حتى نألفها أو ننفر منها . لهذا لم تقدم أى من القصص صورة أخرى للواقع ، تظهره على حقيقته فى وجهه الآخر كما يقول ماركيز . ولم ترتق أى منها إلى مستوى التجريد لتكون كلها رمزا له مراميه ودلالاته .

وقد أسرفت الكاتبة فى ربط بعض شخصياتها بعناصر الطبيعة ، فذهبت فى ربط الفجر بصانعة الخبز إلى حد القول بأنه ارتباط أزلى ، وأنه «الأبجدية الأولى فى علم الأرض والسماء» فصانعة الخبز ينبع منها «ذلك التيار الذى يصله ـ أى الفجر .. بعالم الأرض ، ويجعله متلهفا لأن يمد اشراقاته فى عينيها» وهى ـ أى صانعة الخبز «النقاء والبذور التى يحملها من مآقيها عند رحيله لينبتها فى أرضه» .

هذا الاسراف فى وصف الارتباط بين الشخصية وبين عناصر الطبيعة ، والكشف عن أوجه التماثل بينهما ، لم يسهم فى خلق شخصية أسطورية كما أرادت الكاتبة ، ولا أوجد شخصية حية نابضة تستحوذ علينا وتثبت فى ذاكرتنا . لأن الارتباط والتماثل الذى سعت الكاتبة إلى إثباته وتأكيده ، ارتباط غير موجود إذ لا ينبع من الموقف ، وتماثل غير متحقق ، إذ لا يكشف باطن الشخصية عن تشوفها وتحرقها لتحقيقه . وإذن فنحن نتعرف على كليهما من خلال السرد التقريرى المباشر فقط . والفرق كبير بين ما يفرضه مضمون العمل وينبع من داخله ويتواءم مع مكونات الشخصية الفنية ، وبين ما يفرض على العمل من خارجه فيكون تزيدا يزيد ترهله ويميع أثره .

إن الأدب الذى صنعته الكاتبة أدب بين بين ، فلا هو انعكاس للواقع ولا هو إغراق فى الحلم ، لا هو بالوهم ولا هو بالحقيقة . مثله فى ذلك مثل أدب كثير من أبناء جيلها الذين لا يلقون بالا لأصول فنهم ، ويؤثرون أن تكون إبداعاتهم أشبه بحصوات متفرقة فى فلاة موحشة ، بدلا من أن تكون فلكا تجرى فى أنهار الزمن المتدفقة . فكل ما يعنيهم ويشغلهم أن يقال عنهم إنهم تجاوزوا أقرانهم ، وسبقوا زمانهم .

القاهرة : إسماعيل على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آدم حنين
النحت على ورق البردى

توفيق حنا

إن الكتابة عن الفنون التشكيلية - بصفة عامة ، وعن فن آدم حنين بصفة خاصة ، أمر شاق بل يكاد يكون عسيراً ؛ ذلك لأن أعمال آدم - نحتا أو رسما - يجب أن تنظر العين إليها لتراها ، فإنك مهما حدثت إنسانا عن نعومة ملمس الحرير أو القطيفة ، فلن تصل بحديثك هذا لما تحسه اليد وهى تمر على الحرير أو القطيفة وتلمس هذه النعومة لمسا مباشرا معيشا . ومهما وقفت الكاميرا فى تصوير هذه الأعمال فلن تبلغ إلى ما تصل إليه العين التى تنظر وترى هذه الأعمال وهى تعيش فى هذا الفضاء الذى يبرزها ويقدمها ويجسدها .

يقول آدم حنين :

« علاقتى بالفن تبدأ بزيارة للمتحف المصرى فى القاهرة . كان عمرى ثمانى سنوات ، وكنا ، أنا ورفاقى ، نرافق أستاذ التاريخ داخل المتحف . أمام التماثيل والرسومات ، وقفت مذهولا كأن على علاقة قديمة بها ، خرجت من المتحف ولم تفارقنى التماثيل - حاجة ماسة إلى لمس مادة النحات سيطرت على يدى ، وكان أن سرقت « المعجونة » من المدرسة لأجلبها إلى البيت وأصوغ منها منحوتتى الأولى ، وهى تقليد لرأس إخناتون كما رأيته فى المتحف ، لونتها وأريتها لوالدى ، وكان حرفيا فى صياغة الفضة ، فانبهر ووضعها فى الواجهة بجوار أعماله ، وعندما يزوره أصدقاؤه يريهم عملى ، وأصبحت هذه الواجهة أول معرض لى » .

وهكذا ولد النحات آدم فى المتحف المصرى ، ومن الصلصال أبدع النحات الطفل أول أعماله .. رأس إخناتون .. ولكن لماذا إخناتون ؟ .

كان إخناتون يحلم بعالم واحد تشمله رحمة وعطف ومحبة إله واحد - يتجسد فى أتون - تمتد أشعته على هيئة أيد ممدودة تقدم للناس - كل الناس - الخبز والبركة والنور والحياة . وهو الحلم الذى حاول كل من الإسكندر ونابليون تحقيقه .. وهو الحلم الذى تغنى به الشاعر الفرنسى فيكتور هيجو .. يقول آدم :

« النور هو سر الفن ، ففى كل عمل فنى مبدع ، هناك إشعاع معين يصدر من لعبق الفنية ، أحب أن يكون إشعاع المادة نفسها .

ورق البردى مادة مدهشة ، مادة تجمع بين الحجر والخشب ، فيها نوع الدفء يجعلنى مرتبطا بها ارتباطا عضويا .

كانت علاقتى بمادة البردى مثمرة للغاية ؛ لأنها كشفت عندى عن مخزون ثقافى وروابط ماض مازال يتحرك فى داخلى حتى الألوان التى استعملها فى تكوين العمل الفنى أجبلها بنفسى ، وهكذا أحس أكثر بحضورها فىّ » .

النور والدفء والبردى .. وهذا المخزون الثقافى .. وهذا الماضى - الحاضر .. أتكون هذه الأشياء جميعا ثمرة هذا اللقاء السعيد مع رأس إخناتون ؟ ...

يقول آدم :

« .. الصفاء ينبع من الداخل وليس من الخارج . الوطن فى داخلنا حتى لو كنا بعيدين عنه . جئت إلى باريس وكنت قد وصلت إلى مرحلة من الوعى والنضج الفنى . جئت ومعى زادى الثقافى دون أن يمنعنى عن الاستفادة من تجارب الفنانين » .

ويؤكد هذا المعنى صديقه الفنان المصرى جورج بهجورى (الذى يقوم معرضه الآن فى قاعة مسرا MESSARRA فى باريس من ٤ مارس الى ٧ إبريل ١٩٨٧) فى العدد الصادر يوم ٢٨ يوليو ١٩٨٦ من « الطليعة العربية » :

« ورق البردى الذى يجف تعود إليه الحياة بمائيات آدم حنين الترابية ، تحمل أنفاس الإنسان وريح الجبل وسحر الطبيعة فى صعيد مصر ، من قرية الجرنة فى البر الغربى للأقصر حتى النوبة ..

بعض لوحاته التجريدية رقيقة كالصباح أو ساخنة كوقت الظهيرة أو حالمة بعد الغروب ...

درجات اللون تذوب فى شفافية كأن النور ينبع منها أو كأنها مساحات زجاجية فى نافذة دير أو معبد .

أعمال آدم حنين المصرية تجمع ما بين

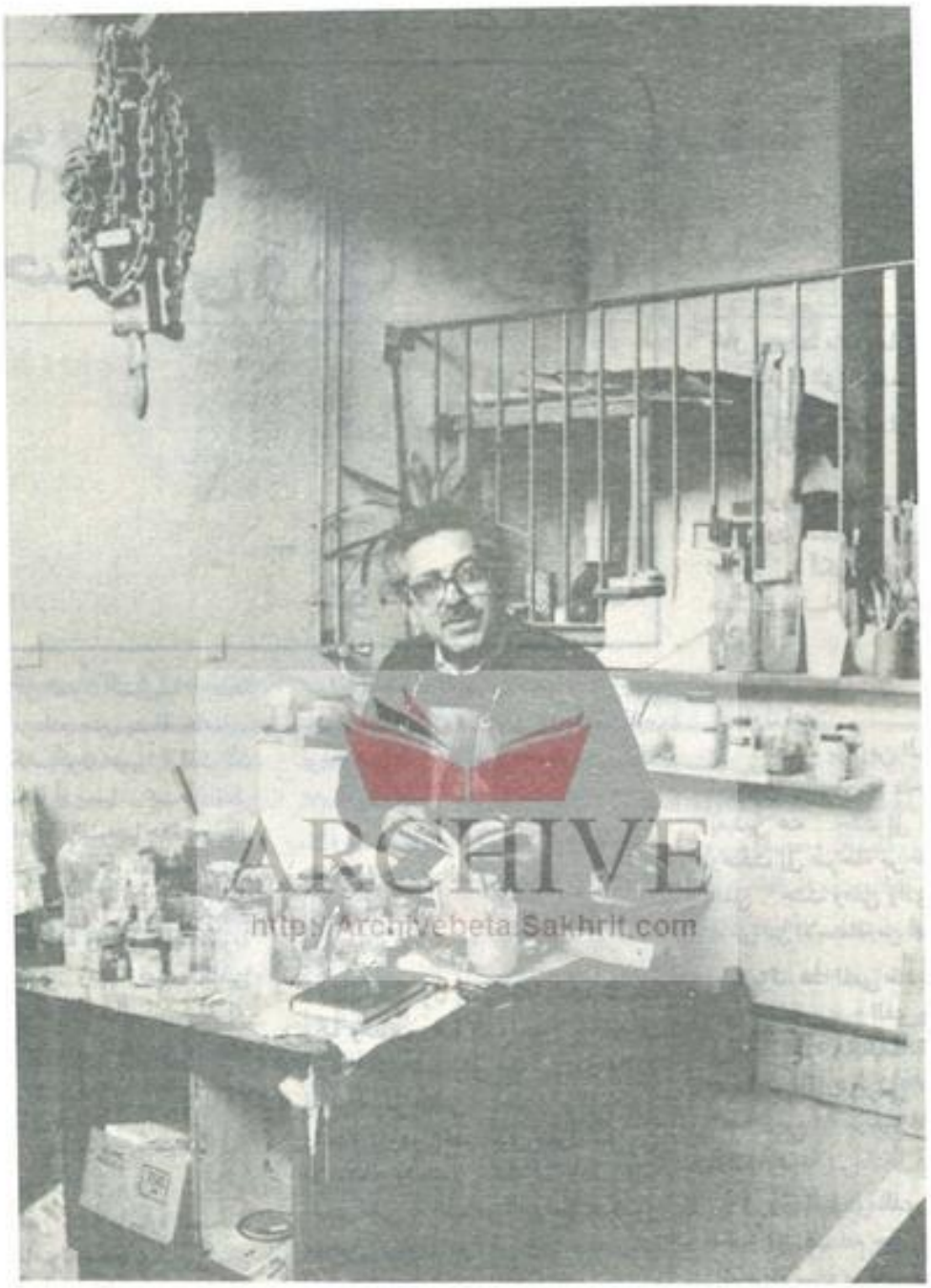

الفنان آدم حنين فى مرسمه

التراب الفرعونى القديم وتطورات الفن الغربى الحديث مرورا ببول كلى الألمانى وبراك الفرنسى وبلياكوف الروسى » .

وعن التجريد وعن إبداعاته التجريدية يقول آدم ، وكأنه يحدثنا عن معرضه الأخير فى قاعة « مشربية » (١٥/٣ الى ١٥/٤/ ١٩٨٧) والذى أهداه إلى صلاح جاهين وشادى عبد السلام وجمال كامل :

« التجريد يشمل كل المخزون الشعبى ، بل ويدخل فى أسراره ومعانيه الداخلية ، وهكذا فإنك تلمسه أكثر ، وتتمكن من التعبير عنه تعبيرا أعمق .

ولهذا فإن للتجريد عندى خصوصية معينة . . إذ يحس المشاهد أن لوحاتى قادمة من مكان آخر ، من أرض فيها شمس وضوء وطنى وعاداته . كل هذا تراه خلف التجريد .

تماثيلى تختزن الحركة فى داخلها ، ويقدر ما هى ساكنة من الخارج فإنها تنفجر فى الداخل . إن الحركة الداخلية هى الأكثر سرا وسحرا » .

وعندما وصل آدم إلى باريس عام ١٩٧١ (ولد آدم عام ١٩٢٩ وتخرج من قسم النحت بكلية الفنون الجميلة عام ١٩٥٣)

اختلى بنفسه أمام علبة من الألوان المائية - كان قد أهداها له الفنان الراحل جمال كامل - ومجموعة من الأوراق البيضاء راح يدون عليها أشكالا متعددة ، تشكل حتى اليوم عناصر عالمه الفني الخاص (في معرضه الأخير ، يرى المشاهد لوحتين لهذه الأبجدية التشكيلية) وكأنها مفردات لغته في فني النحت والرسم .

وآدم يحب الخامة الأصيلة .. فهو يرسم - أو ينحت - على ورق البردي بألوان يقوم بصنعها بنفسه من الجير والحديد والمنجنيز ، وهي خامات مصرية استعملها المصري القديم في كتاباته ورسومه .. ألوان من صنع الطبيعة بعيدة عن زيف الصناعة ..

وقد انتهى آدم من رحلاته الإبداعية مع الجرانيت والبازلت والحجر الجيري والخشب إلى ورق البردي .. وكأنه يعود إلى لحظته الإختناتونية الأولى ، .. بدأ آدم رحلته الإبداعية على ورق البردي عام ١٩٧٦ .

ويحدثنا جورج بهجوري في عدد من أعداد « صباح الخير » عن معرض آدم في باريس عام ١٩٧٦ :

« .. وأخذت أتأمل وجه آدم من جديد لأتذكره عندما كنت أراه كل صباح في القاهرة وبالتحديد في شارع جزيرة بدران في شبرا في صحبة زميل أول مشوار الفن فريد كامل ثم مع زميل قسم النحت الفنان بهجت عثمان ، ثم لما كنا نرسم سويا على مقاهي الأحياء الشعبية .. إنه هو نفسه هنا في باريس بعد أكثر من عشرين عاما .. نفس الوجه الهادىء ، كل إيماءة لها إيقاع حتى ولو كانت لحظة سكون .

تماثيله صمت ورسومه حركة هائلة . هنا التزاوج بين بلاغة الصمت وبلاغة الكلام .

الناس هنا حول كل قطعة وهو يقف وسطهم يحدثهم ومعه زوجته عفاف الديب التي تقوم بدور هام معه في العناية بأعماله وحسن تقديمها والحديث عنها للناس . إنها العقل المدبر وراء خطوات نجاحه .

وعلى مدخل المعرض ورقة البردي المصرية القديمة في إطار ، كتب عليها آدم بخط يده بالفرنسية :

« هذا هو ورق البردي الذي استعمله قدماء المصريين منذ آلاف السنين ، وقد قام الفنان حسن رجب بتحضير هذه الأوراق مرة أخرى ، وفضله في اكتشافه في معهد بحوث البردي » .

وهكذا كانت بداية رحلة آدم مع ورق البردي .

• • •

في بيت السناري عام ١٩٦٦ (١٤ - ٣٠/أبريل) في حارة مونج (أستاذ نابليون في الكلية العسكرية في باريس ورئيس البعثة العلمية والمشرف على إخراج موسوعة « وصف مصر ») المتفرعة من ميدان السيدة زينب بالقاهرة يقوم هذا البيت المملوكي الجميل والذي كان مقرا لفنان هذه البعثة العلمية الفرنسية ، ويمتاز هذا البيت بمشربياته الخشبية الدقيقة والأنيقة الصنع وكأنها براقع من خشب في واجهة هذه التحفة المعمارية المملوكية ، في هذا البيت شاهدت معرض آدم حنين لأعماله في سنوات التفرغ الأربع في أسوان ، وذلك بعد رحلاته في الأقصر (لمدة عامين) وألمانيا (لمدة عام واحد) . عندما عبرت الباب الخشبي الضخم بمقبضه النحاسي إلى الممر المستطيل الذي يشعرك بهذا الضوء الخافت بجو البيت وما يشيع فيه من سكينة وسلام .. التقت عيني بهذا التمثال من الجبس « غلام يشرب » ، ولمست كيف تمكن الفنان أن يحرر الكتلة من ماديتها وثقلها وأن يحيلها إلى معنى وحركة ونغمة .. هذه العلاقة الحميمة بين الإناء والماء والرأس المرفوعة - وكأنها تصلي - وهذا الجسم الممتد مع الرأس إلى الإناء .. هذا الاندماج وهذا الالتحام العضوي بين الرغبة والتحقق .. بين الطريق والهدف .. وفي كلمة واحدة بين الفنان والواقع .. لمست في هذا العمل - وفي غيره من أعمال آدم في هذا المعرض - هذه الواقعية الصوفية .. ففي هذا اللقاء الجامع بين الرأس والماء .. يتحقق الارتواء .

ونرى في تمثال « حامل الدرع » هذا الانسان الشامخ في وقفته المتوازنة الرصينة تعبير عن الثقة والاعتزاز وشجاعة الإيمان .. في هذا العمل نلمس اللقاء السعيد بين الصمت وبلاغة التعبير بأقل الحركات وأبسط الأشكال .. كما نلمس هذه القدرة على الإيجاز والتركيز .

• • •

إن اللحن السائد في حياة وإبداع آدم حنين هو لحن الرحلة .. فهو فنان جوال .. يبحث دائما عن الجديد .. في الشكل وفي المضمون .. في المكان وفي الزمان .. في المادة التي يبدع بها وفيها أعماله .. وفي اللون .. وما أن يصل حتى يدفعه الوصول إلى رحيل وإلى رحلة جديدة ..

وها هو في معرضه الأخير يقدم لنا مرحلته الجديدة والتي اخترت لها عنوانا دالا .. وهو « النحت على ورق البردي »

• • •

هذا المعرض في « مشربية » ١٩٨٧ في قاعة « مشربية » يقدم لنا آدم حنين معرضه الخاص الثامن عشر ما بين عامي ١٩٥٦ و١٩٨٧ (٤٣ لوحة وثلاثة تماثيل) .

في كل لوحات هذا المعرض تلمس العين هذا الإيقاع العام الذي يتميز بالهدوء والرصانة .. وكأننا نستمع وراء هذا البناء التشكيلي المتوازن إلى موسيقى باخ .. وكلما ازددنا قربا - أي فهما - من لوحات آدم حنين أحسسنا بأنها تنفتح لنا .. أمامنا .. حتى تدخلنا إلى أعماقها وأسرارها وقدس أقداسها ، وهذه الأعمال عن طريق البناء الفني المتزن والمتوازن والمتناسق تمنح المشاهد المشارك هذا الإحساس بالراحة والسكينة .. والطمأنينة .

• • •

استوقفني عند المدخل هذا العمل من أشكال هندسية يتوسطها مثلث مقلوب - وكأنه سهم - قاعدته إلى أعلى ورأسه تشير إلى الأعماق .. والألوان كابية .. تقدم انطباعا بلون الماء ينتشر على الجبل .. وعلى الحقول .. وفي السماء .. لحظة تأمل وأسى .. وذكرى ماض بعيد ..

وعلى الجانب الآخر من المدخل شاهدت صورة فتوغرافية لتمثال تكاد ملامحه وسماته التجريدية تبرز من الصورة .. وهكذا لمست في لحظتي الأولى وأنا أتقدم في هدوء وترقب داخل هذا الفضاء التشكيلي هذه

الأبجدية الهيروغليفية الجديدة التى ينحت بها آدم لوحاته على ورق البردى .. وتسعد العين بهذا اللقاء السعيد بين النحت والتصوير .. وتجريد آدم فى هذه اللوحات تجريد له خصوصيته .. تجريد صوفى .. إذ تلمس العين البصيرة فى لحظة تأملها هذا الكون الغنى الذى يندمج فيه الشكل والمضمون فى كيان واحد .. وكأن آدم قد توصل أخيرا إلى بلورة مخزونه الحضارى داخل ذاكرته المصرية ذات التاريخ الذى يمتد آلاف السنين .. إلى بلورته وتجسيده فى هذا التشكيل التجريدى برموزه وألوانه وأشكاله ومضامينه .. والذى يؤكد هذه العلاقة الحميمة بالطبيعة المصرية ، وكأن الفنان يريد من وراء أعماله أن نستعيد علاقتنا بهذه الطبيعة التى ألهمت المصرى القديم أروع أعماله وأخلد إنجازاته فى العمارة والنحت والتصوير .. وذلك بلغته التى صنع أبجديتها من مفردات هذه الطبيعة بكل كائناتها وأحيائها .. فى الأرض وفى السماء .

ولقد وفق الفنان المصرى إلى إضفاء هذا الجو الهامس على لوحاته بهذه الألوان التى تعبر فى آن واحد عن ماض يحتضر وعن حاضر يحاول أن ينبعث من هذا الماضى .. ونحن نتأمل فى انبهار هذا الجهد العبقرى الذى نحت به آدم حنين لوحاته على ورق البردى حاملة للعين البصيرة رسالة الفن إلى إنسان هذا العصر .. وكأننا نستمع عبر ألوان ورموز وتشكيلات اللوحات إلى تراتيل تصل إلينا من وراء جدران دير من أديرة الصحراء .. تراتيل بأشواق إلى مطلق يتحقق فى الواقع وبالحنين إلى ماض من أمجاد تعيش فى ذاكرة الفنان ..

وفى هذه اللوحات نلمس تأثر آدم حنين بالعمارة المصرية .. الفرعونية والقبطية والإسلامية .. ولا أدرى كيف رأت عينى فى إحدى اللوحات الكبيرة تكوينا تجريديا لمسجدى السلطان حسن والرفاعى .. يمتد الأفق خلفهما .. والصحراء .. وشمس غاربة .. غير مرئية .. وفى لوحة أخرى رأت عينى تمثال خفرع فى وضع جانبى .. بروفيل .. ولوحات آدم فى هذا المعرض هى كل لونية تحولت بريشة الفنان إلى إبداعات نحتية .. فالعين تلمس إبداع النحات وهو يرسم لوحاته ، وفى هذه اللوحات بألوانها ومشاهدها ورموزها إحساس عميق بالتاريخ .. بكل إنجازاته الحضارية والمعمارية والتصويرية .. وبكل أساطيره ووقائعه وحقائقه .. هذا التاريخ الذى بناه المصرى فى كل عصور تاريخه بالحجر وبالكلمة .. بالمحبة وبالإيمان .. هذا الإيمان الذى حرك الجبل وأبدع منه هرما .. فالأحجار هى أبجدية آدم .. نحتا كان إبداعه أو رسما

وفى أعماق هذه اللوحات .. بل فى كل إبداعات آدم .. نجد هذا الصمت الذى يدعو المشاهد الى تأمل عميق ولا يجد كلمات تعبر عنه تعبيرا صادقا .. لعل سر هذه الصمت ينبع من سنوات قضاها الفنان فى أحضان معابد الأقصر وأسوان والنوبة .. صمت صوفى جليل وكأنه صلاة . ولم يجد آدم إلا ورق البردى ينحت عليه .. هذا الصمت .. وهذه الصلاة .

ولا أدرى كيف أمكن أن تحمل - أو تتحمل - لوحات البردى هذه الكتل من اللون .. هنا يكمن سر إبداع النحات آدم حنين .

وأتردد طويلا قبل أن أطلق على إبداعات آدم هذه الكلمة التى ترددت كثيرا .. حتى ابتذلت .. كلمة التجريدية .. ذلك أن المصرى القديم عبر عن حياته وواقعه .. عن دنياه وآخرته - التى هى امتداد لدنياه - بهذه الحروف التى جسدت فى شكلها ورسمها كل كائنات الكون المصرى .. هكذا أبدع آدم هيروغليفيته الجديدة يبدع بها واقعه الفنى .. هل يمكن أن نطلق على لوحات آدم أنها واقعية تجريدية .. رغم تناقض طرفى هذا المصطلح ..

ونحن نلمس هذه الواقعية التجريدية فى تماثيل آدم الثلاثة فى هذا المعرض .. وما أصدق كلمات آدم وهو يقول : « تماثيل تختزن الحركة فى داخلها ، وبقدر ما هى ساكنة من الخارج فإنها تتفجر فى الداخل » ويقول : أيضا « إن الحركة الداخلية هى الأكثر سرا وسحرا » وقفت طويلا أمام تمثال « مصارعة الثيران » الذى تلخص فى حركة الثور وهو يندفع بقرنيه فى قفزة درامية .. تؤكد فن آدم فى الاقتصاد والتركيز والإيجاز .. وما أبعد هذا الصراع الدامى عن تمثال « حمار » بكل ما يعبر عنه من طيبة وسلام وسكينة .

آدم حنين فنان مصرى .. بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .. وبهذا المعنى فهو فنان إنسانى .. عالمى (إذا أردنا استعمال هذه الكلمة التى لا أجد لها معنى محدد) .. فالفنان الصادق .. وآدم فنان صادق .. وهو يعبر تعبيرا مخلصا أمينا عن هويته .. مصريته هنا .. يجد فنه الطريق إلى عين وقلب كل إنسان . ويقول سمير غريب : « آدم هو الفنان المصرى الوحيد الذى يشترك سنويا فى السوق الدولية للفن التشكيلى (فياك) والتى تقام فى الجران باليه ـ السراى الكبرى ـ فى باريس »

القاهرة : توفيق حنا

آدم حنين
النحت على وَرق البردى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

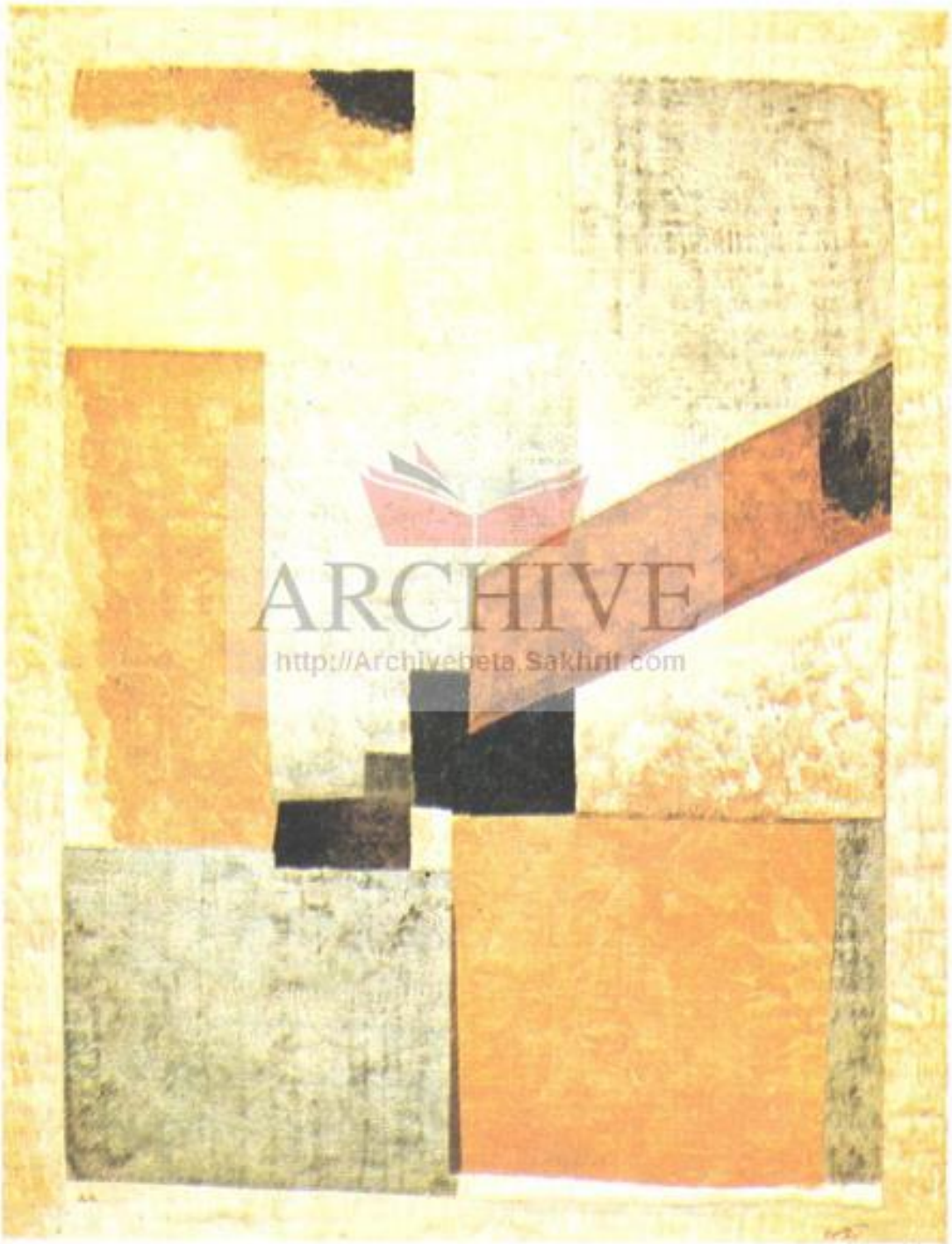
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

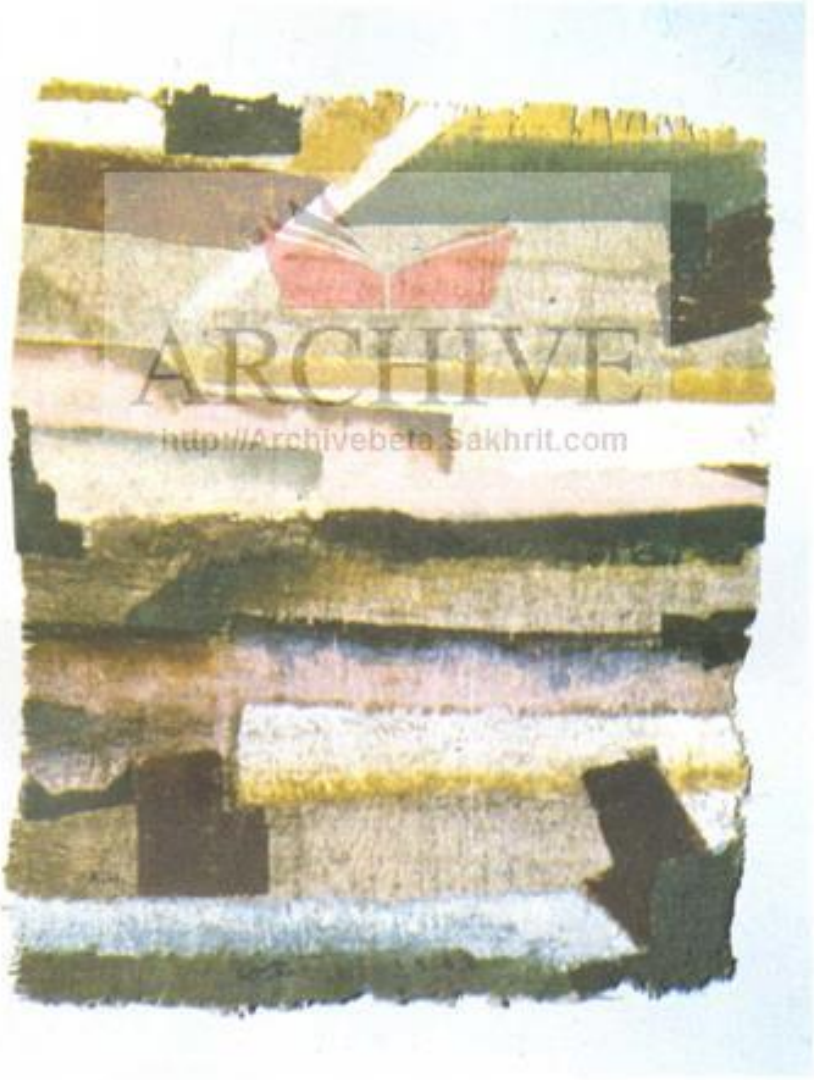
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

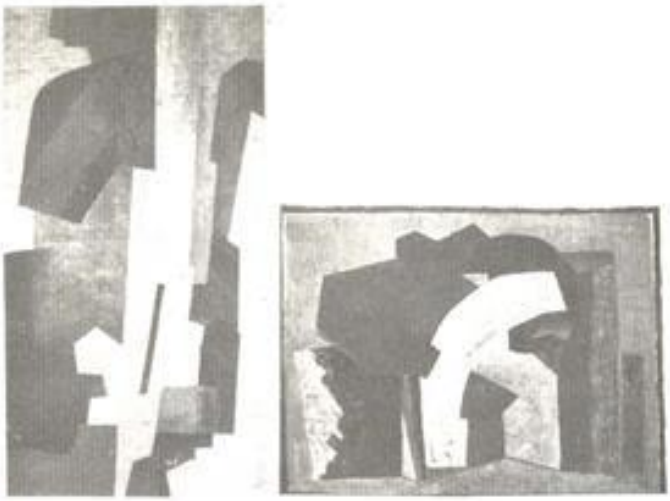

صورتا الغلاف للفنان آدم حنين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
رقم الايداع بدار الكتب ٦١٤٥ - ١٩٨٧

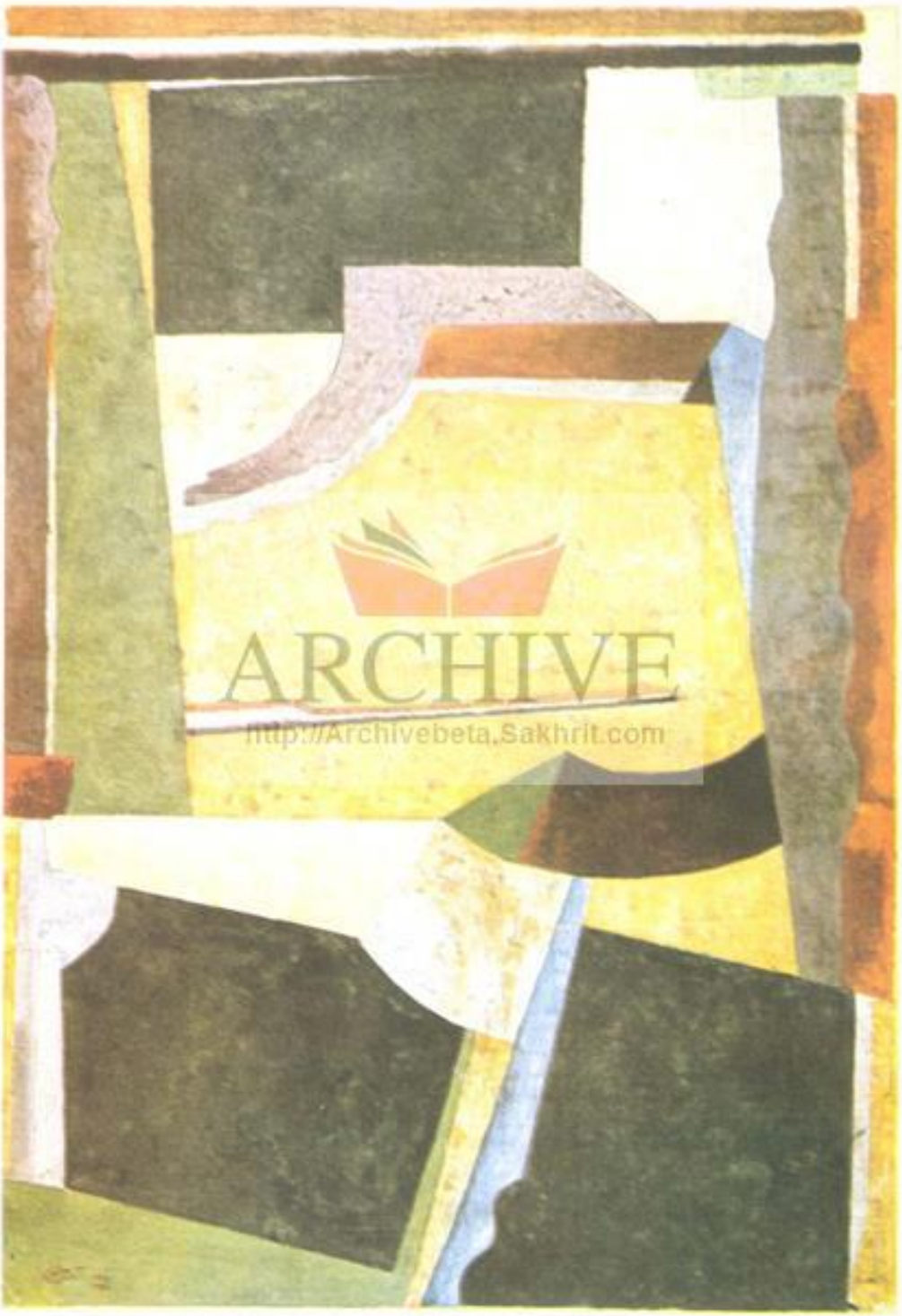
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com